

رواية

اميقوس

AMICUS

احمد عبد الله



أمي جويس

أميجوس

رواية

اسم الكاتب: أحمد عبدالله

تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية

IBRAHIM ELSHERBINEY: تصميم الغلاف:

الإخراج الفني: جمال عبدالرحيم

الطبعة / الأولى

رقم الإيداع: ٢٠١٨ / ١٣٤٨٣

طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

المكتبة العربية للنشر والتوزيع

FACEBOOK.COM/ARABICLIBRARY2017

إلى الرفيقِ قبل الطريق، إلى الصديقِ قبل عنوان الرواية، إلى
الصاحبِ قبل البداية، إلى الذي سار معي على الأشواكِ فدميتُ ودُميتُ
وتقطعت بنا السبيلُ وتفرقت بنا الأهواءُ وسيرنا في مفترق الطرقات نبحتُ
عن النور في الظلمات، إلى الذي سكن القلوبَ قبل العقول، وتعلقتُ
بحبله فأشدد الحبل واستقويت به فما خارت قواي، إلى الذي سألتُهُ
وأجاب، وأهمني النورَ في الظلمات، إلى من كان طيفه يسكنُ أعماقي إلى
رفيقِ الدرب، إلى الذي ظل حاضراً في الغياب، إليك إهدائي ومعك أدفنُ
الأسرار، إلى من جدَّ جدُّه وعظَّم أمرُهُ وقُدِّرَ له الإبتلاءُ بالأسرِ في سن
الشباب، إلى أصحابِ المحنِ والشدائد، إلى الصابرين في البأساء والضراء
إلى أبي وأمي .

(القسطنطينية) السوق العظيم

أكبر أسواقِ الدولة، يحضرهُ التجارُ من شتى بقاعِ الدنيا، سوقٌ قام ولم ينفُض، لا يخلو من البضائعِ المجلوبةِ من أنحاءِ العالمِ الواسع، يتسوق فيه الناس، يبيع التجارُ بضاعتَهُم ويشترون ما يلزمهم في بلادهم، إلى أعماقِ السوق، يباع العبيد والغلمان والجواري، أمام تاجرِ غليظِ الوجه، كثيفِ الشعر، كث اللحية، ضخمِ الجثة، ذو بطنٍ عظيمة، عندما تراه تشعر وكأنها خزانة طعام وخزنة أموال، يتحدثُ بصوتٍ غليظٍ يصيبُ من حوله بالصنج والطرش، وكأنه وحده في السوق، خلفه يوجد أربعةٌ من العبيد من مختلف الأنحاء، بدء التاجرُ يُعرِضُ بضاعته على الحاضرين، الأول أسود الوجه والجسد، حليقُ الشعر واللحية، متوسط الطول والبنيان، جُلِبَ من بلاد إفريقيا، سعره عشرين دينار من الذهب كسعر أولٍ للمزاد، يتميز بالفروسية والقتال وحماية سيده من الأخطار، ويتحمل المشقة والمتاعب، ويسير على الأشواك، عمره ما بين العشرين والخمسة عشرين، الثاني جميل الوجه أبيض يميل إلى الاحمرار، أشعث أغبر، وبالرغم من شعته الذي أصاب جسده إلا أنك تستطيع أن تري جمال الفتى، شعره طويل متساوي وله لحية، عظيم المنكبين متوسط الطول والبنيان وعليه أثرٌ

النحافة كأنه قد عُذّب لسنينٍ طويلة، فبالرغم من كل هذه المساوئ التي تظهر على هذا العبد إلا أنه بينهم كالبدر المضاء، كالقمر المستنير، سعره ثلاثين دينار من الذهب كعرض أول، به كل الصفات التي لا تخلو من المحاسن، الثالث كان أصلع الشعر، كبير السن تخطى حاجز الأربعين، كبير الجسد، وذا بطنٍ عظيمة، كثير الأكل وليس به منفعة، سعره خمس دنائير من الذهب، أما الرابع فمن بلاد الفرنج، نحيف الجسد، كثير شعر الرأس، ليس له لحية، ووجه يميل إلى الاحمرار، من مميزاته خدمته في المنازل وجلسه مع الحرّيم ولا خوفٌ عليهم منه لأنه قد خصي، ويتحمل المشقة وما يرهق الأبدان، سعره سبعين دينار من الذهب كعرض أول، عمره لا يتخطى العشرين، ولما بدأ المزاد، بيع العجوز أولاً، ثم بيع المخصي، وجاء فارس عظيم الهيئة وحوله جنود يتبعونه أينما راح وعليهم ملابس الفرسان الرومان، ملابس بيضاء فضفاضة وعليها عباءة مربوطة بحبلٍ صغير من عند العنق، ويتوسط الملابس صليب بطول الجندي، وقد جاء من روما بصحبة التجار لجلب البضائع للإمبراطور والأمراء، ودخل السوق على حين غفلة من الجميع، وكان المزاد قد رسي على بيع العبد الأسود بخمسة وعشرين دينار فتوقف الجميع عند ذلك، ودخل الفارس المزاد وصاح قائلاً سأشترى العبد الأسود بثلاثين دينار من الذهب.

فتحدث التاجر قائلاً؛ ولكن يا سيدي لقد بعث هذا العبد.
سأشترى هذا العبد الأسود بثلاثين ديناراً وأشترى معه هذا
المملوك الأبيض بأربعين ديناراً من الذهب.
توقف التاجر قليلاً ثم أردف قائلاً هنيئاً لك البيع يا سيدي
وقهقه.

عمت الفرحة مدن المسلمين بعد الانتصار العظيم الذي حققه
السلطان السلجوقي سليمان بن قتلмыш على الروم وفتح أنطاكية
والسيطرة على إزنيق عام ٤٦٧هـ (١٠٧٥م)، وإراحة المسلمين
والنصارى من شرور الروم، وبهذا الانتصار أصبح للمسلمين أول دولة
إسلامية على حدود الروم عرفت بدولة سلاجقة الروم.

بعد مائة عام سنة 585 هـ

مدينة خونيا إحدى المدن الواقعة بالقرب من ساحل بحر إيجه، تقع بالقرب من قونية عاصمة السلاجقة بمقدار خمسة أميال، يحيط بها البحر من الغرب والغابة تحيط بها جنوباً .

تتميز المدينة بالمراعي الكثيرة المكتظة بالأغنام التي لا حصر لها، تعود الأهالي إرسال الأبناء صغاراً إلى المعلم لتعليمهم القرآن والحديث واللغة العربية، اللغة المركزية للعالم الإسلامي، فهي التي تربط بين الشعوب الإسلامية بعضها ببعض، اللغة الأولى في العالم.

بعد أن فرغ الإمام من صلاة الفجر؛

انطلق خارج المسجد وخلفه غلامان تظهر عليهما علامات البلوغ وشدة البأس حتى أقبلوا على الثامنة عشر، كانا يسيران في خشوعٍ وانتظام خلف المعلم، يتمتموا بأصواتٍ لا يسمع أحدهم الآخر، حتى وصلوا إلى مشارف الغابة، ظل المعلم يخترق الغابة حتى وصل بين شجيراتٍ عظيمة، فروعها كبيرة، وأوراقها كثيرة وكثيفة، تحيط بجوانب المكان تجعلها حديقة غير مرئية للناظرين، اتخذها المعلم قاعدة له في دروسه للتلاميذ، وعلى

الأرض الكثير من النباتات مختلفة الأنواع، تزين المكان وتعطي له بهجة الحياة ونشوة الخلود؛

جلس المعلم متكئاً على مقعد مصنوع من الشجر اشترك في صناعته هو وتلاميذه، خصوصاً حمزة وحسن، وأخرج المعلم من حقيبته ورقة وقلم، وأخرج المحبرة وبدأ يدون ويكتب الكثير من القرآن والحديث ويعيد ترجمة الكثير من اللغة العربية إلى الفارسية لغة الترك والسلاجقة، وجلس الغلامان تحت قدم المعلم وأخرجوا الأوراق من حقيبتهم، وبدأوا يكتبون خلف المعلم ويتلون آيات القرآن.

كان حمزة يرتدى جلباباً قصير، وسروالً ثقيل يحتمي به من شدة البرد وعلى رأسه قلنسوة، وكان يجلس عن يمين المعلم، أبيض البشرة، ينسدل شعره بعد فحمة أذنه، متوسط الطول والجسد، حباه الله بعيناي الغزال شديدة السواد، يشبه الصقر في نظراته، يُرمي به في مطالع الجيش، يبصر العدو من مسافات بعيدة (يقوم مقام الكشاف)، يحفظ القرآن ويجيد الرماية بالسهم ولا يخطي سهمه، حمله منذ الصغر على تعلم اللغة العربية بجوار الفارسية ولغة الأمازيغ وأحب الإشتغال بالزراعة وخرج في التجارة مع أبيه في رحلاتٍ معدودة أزداد بها خبرة، ظل يقرأ على المعلم حتى فرغ.

وبدأ حسن في التلاوة على الشيخ وكان يجلس عن يساره وفي يده
أوراق كبرديات فراغنة مصر، وكان شديدُ بياض الوجه يميل إلى الاحمرار
ويزداد وجهه حمرة كلما انقادت نار الحياء، كثيف الشعر طويلاً يربطه
ويعقده كذيل الحصان، قوى الجسد، عظيم الهيئة، شديدُ الذكاء، كأنه أوتي
الكمال على أشكال، وبات جليساً بين أكابر القوم يحضر ندواتهم، ماهراً في
فنون القتال خصوصاً السيف، يتمتع بعين زرقاء تشبه عذوبة المياه، تميز
بتقدمه في الصفوف الأولى، عذب الصوت كأنه قد أوتي مزاراً من مزامير
آل داود.

لم يتبق مع المعلم حُبيب سوى حمزة وحسن وبعض الصغار، ونفر باقي الشباب عن المعلم ليلتحقوا بمعسكرات السلاجقة كي يستطيعوا تأميناً لحياتهم في المستقبل ومن الحصول على الاقطاعات والخدمات التي تميزهم عن أفراد الشعب، لقد كان همُّ الشيخ وجلُّ أفكاره أن يخرج جيلاً قادراً على النهوض بالبلاد من تلك الأزمة العاصفة التي تمر بها، والنجاة بها من وسط الأمواج إلى بر الأمان، جيلاً قادراً على إعادة الحياة إلى الأمة من جديد، جيلاً قادراً على إعادة النبض إلى الجسد وتنقيته من شوائب السنين، وليس جيلاً هممه أن يصبح جندي فيتفاخر بذلك أمام فتيات المدينة، لقد أصبح جيش السلاجقة عبارة عن مصالح شخصية يتميز بها أفرادها عن باقي أفراد الشعب حتى تناسو تعاليم الأوائل التي كانت سبباً في قيام الدولة العظمي.

مر وقت طويل استطاع حمزة فيه أن يجمع الكثير من الحطب وأتى بها وألقاها أمام المعلم واستلم حسن المهام الجديدة وأعطى السيف للمعلم وحمل الحطب إلى منزل المعلم .

لم يمر الكثير من الوقت على ذلك وأخذ حمزة ينقل الأشياء
ويضعها في مكانها مخفياً إياها عن الانظار، لقد كان المعلم يعيش البستان
كثيراً ويأتي إليه من حين لآخر ليري جميل صنع الله في كونه، وكان كثيراً ما
يأتي إليه وحده، وبعد أن فرغ حمزة من أداء عمله وانطلق يمشي- بجوار
المعلم، التفت إليه المعلم قائلاً، زمان يا بني كان هناك فجوة متسعة بيننا
وبينهم، الروم عن يميننا والفرس عن شمالنا، ونحن بينهم أمة منسية لا
قيمة لها ولا وزن، كان فينا الشجعان والأبطال، ولكن عبادة الوثن تمكنت
من القلوب حتى جبننا عن مواجهة الحقيقة التي ورثناها عن آباءنا أننا
أسياد الأرض، فمن الله علينا بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم (وكان من
عادة السلاجقة عند سماع اسم النبي يضعون أيديهم على موضع القلب)
فأخذ بأيدينا إلى النجاة، وألبسنا التيجان، وبشرنا بكنوز كسرى وقيصر-،
وأنا لا محالة سنرث الأرض، فزعم المنافقين كذباً أنه محال، فكان يا بني ما
أراد الله، فشرذم كسرى وضاع ملكه، وفر قيصر- هارباً إلى أرضه، ومنذ
ذلك الوقت لم نجد من يردنا عن عزمنا، أيخيب ظننا بالله وقد تمسكنا
بحبله، ثم استرد الحديث وأخذ يحكي له عن الخالدين في التاريخ، ويذكره
بعماد الدين زنكى وابنه محمود نور الدين اللذين كانا سبباً في قيام صلاح

الدين ومعركة حطين وعودة القدس، على الرغم من كونهم ماتوا قبل استعادة القدس، وأخبره عن بن تاشفين ومعركة الزلاقة، وذكره بأجماد السلاجقة، بالأخص السلطان الب أرسلان ومعركة ملاذكرد والسلطان طغرل بك الذي أسس دولة السلاجقة الأولى، كل ذلك كان قبل الانحدار والترف والعيش الرغيد للأمرء، لقد كانوا سبباً في ضياع الدولة .

والتفت المعلم فجأةً إلى حمزة وقال له بنبرة صوتٍ حادة: أتعلم يا حمزة أن هذا الطريق طويل يحمل بين طياته تعبُ السنين، إما البقاء وإما السقوط الذي لا قيام فيه .

أخذ حمزة بعض أنفاسه، ثم أردف قائلاً ومن أين يأتي القيام .
: بالصبر يا بني، الطريق عظيم، يحتاج إلى أنفاسٍ عميقة تستطيع الصمود إلى النهاية، أنفاس قوية .

: من أين لي بهذا الطريق .

: كأني بمخيلتك حتى تظن بأن الطريق سهلٌ يسير، مفروش بالورود يمسه الطيب، والزعفران على جانبيه مرصوص، أتظنه سهلُ المراد، إنه محفوفٌ بالأشواك من أوله، مليئٌ بالعراقيل وتحيط به الافخاخ .

: ظللت ضربات قلبه تتزايد، والتقط أنفاسه بصعوبةً وأردف قائلاً: لقد صعبت على الاختيار يا سيدي.

: إن كنت قد اخترت الطريق؛ يجب عليك أن تكون على دراية كاملة بتلك الأخطار التي تحيط به، وكل العواقب التي تنمو به، عندما تسير في هذا الطريق يجب عليك أن تعيد ترتيب أوراقك جيداً، وتعيد ترتيب حساباتك، هذا السبيل لا يحتاج غلمان أو نساء، أو ضعيفٌ يتكئ على عصاه، بل يحتاج إلى نفوسٍ مخلصه، ورجالٍ همتهم عالية، إن فكرة النهوض سهلة ومتيسرة عند معظم الناس، ولكن عند تنفيذها تحتاج إلى تلك القلوب.

: الأمر عظيم.

: إنه يفوق الخيال، لقد وقع الأمراء في الهاوية، ولم يأخذوا العبرة بمن سبقهم، ولم يتعظوا بالأباء قبلهم، ولم يتتهجوا على نهجهم بل غيروا وبدلوا؛

ثم قرء قوله تعالى (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا)، لقد استطاع الشيطان أن ينفذ مهمته بإتقان، استطاع أن يُجمع كل قوي الظلام في صفه من جديد.

: بدائت ضربات قلب حمزة تتزايد بسرعة ملفتة، وبدأت أنفاسه
تتضارب شهيقٌ زفيرٌ متكرر لا يهدأ، حتى قام المعلم وربت على كتفه وهدأه
ثم أردف قائلاً إنما ينبعث الأمل من الظلام.
: ولكن الظلام قد حاك خيوطه.
: إذاً فما عليك إلا أن تسلك مسلك الجمل حتى تبلغَ سم الخياط.

.....

بعد أن فرغوا من صلاة العصر انطلق حسن متخفياً يسير ببطءٍ
ومن خلفه حمزة في خفةٍ ودهاءٍ حتى لا يعرف لهم أثر، ولا يري لهم موضع
قدم، لقد استطاعا أن يصلوا إلى مكانٍ في عمق الغابة، موقعه وسط، يطل
على جميع مداخل ومخارج الغابة، ويحيط بالمدينة بأكملها، ويستطيع من
بداخله أن يرى أي غريبٍ داخلٍ قادم إلى المدينة، ويطل على البحر.
من بين شجرتان عظيمتان الطول، كثيفتان الورق، كبيرتان
الفروع، حرك حسن إحدى فروعها فاتحاً بذلك باباً يخلف وراءه الأسرار.
داخل المكان جنة من جنات الرحمن في الدنيا، وآية من آيات الزمان
العجيبة، البقعة المباركة من الشجرة، كما يطلق عليها حمزة وحسن، بالرغم
من بساطتها إلا أنها كنز ثمين، محملة بداخلها اختلاف أصناف النباتات،
استطاع حمزة أن يستفاد من رحلات أبيه في تكوين البقعة بشتى أنواع
النبات والزهور، جمال الدنيا سكن بداخلها، شجيراتٍ صغيرة كأنها لؤلؤة
تزين المكان، مقاعدٌ كثيرةٌ نحتت من الشجر، زهورٌ على مختلف الجوانب،
وردٌ يفيحُ عطره بهجةً ونقاء، وفي وسط المكان شجرةٌ عظيمة، ذات عمودٍ
طويل عريض كبير، وبجوارها يوجد مقعدٌ صغير، وأمامه متكئٌ يضعون
عليه الأوراق ولوازمهم، أما العمود فطوله يصل نحو أربعة أذرع، أساسه

في الأرض، يظن بأنه من الأزمنة البعيدة، قطعت اطرافه والكثير من فروعه، كأنه زرع خصيصاً ليكون في هذا المكان.

جلس حسن على حشائش الأرض ويده حجر يحده سيفه، وجاء بجواره حمزة وفي يده القوس والسهام وظلوا يتحدثون.

: أتدرى ماذا أخبرني المعلم اليوم، أمسكني من ياقتي وقال لي أن النهضة التي تبحثون عنها ليكن وجودها بداخلكم وإنما لتمحور في قلوبكم، إنها المشكاة المضيئ الذي يُحييكم ومن أجلها تحيا الدنيا وقد تزول، عليك التمهل في قراراتك، وأن تستيقظ جيداً لذلك الصراع الذي تخوضه مع نفسك، إما أن تكون أو لا تكون، لقد ذهب عقلك من كثرة التفكير في الإنضمام للسلاجقة، أنا أعلم أن هذا حلم جميع الشباب، خصوصاً شابٌ مثلك في ذكائك وقوتك ويجد غيره من البلهاء في مكانٍ لا يستحقونه .

: ليس ذلك يا سيدي أنا أريد البقاء هنا بجوارك ولحماية أهل مدينتي .

: وتريد البقاء بالمدينة حتى تستطيع الزواج من رقية، أحمر وجه حسن من كلام المعلم ونظر في الأرض خجلاً واستحياء، وما يدريك

بذلك يا معلمي، أتدري يا حمزة لقد شككت فيك بأنك أنت من أخبر المعلم.

: أقسم لك بأنني ما فعلت ذلك .

: ولو فعلت؛

وتبسم له، ثم أردف المعلم قائلاً أأستم أبناءني قبل أن تكونوا تلاميذي، لا بد وأن أرى ما يدور في عقولكم وأسمع ما يقال عنكم، وأرى كل ما تراه عيونكم .

: تراقبنا إذاً.

: ليس كما تظن .

: كيف إذاً.

: هذه بصيرة المؤمن يعطيها الله لمن يشاء من عباده .

قام حمزة بوضع الأشياء موضعها، وإخفائها كما كانت، وكان حسن يرتب المكان ترتيب دقيق كأنه تاركه لمن سيأتي بعدهم، وانطلقوا يسرون نحو الشاطئ مكملين حديثهم

: أتعلم أن معلمنا على حق .

: على أي شي تقصد .

: فيما قاله من سعي للانضمام للسلاجقة، أجد ذلك في نفسي، أرى
أني أحق بذلك كثيراً من أولئك الذين لا يريدون من الجيش سوي
الإقطاعيات، كلما أراهم عندما يأتون إلى المدينة ويتباهون أمامنا
ويتفاخرون بالمعارك التي خاضوها أمام الروم وغيرهم من أعداء دولتنا،
كم يزيد ذلك عندي في الاسراع للانضمام للسلاجقة .

: أنت أفضل منهم وأعظم، لكنها مسألة وقت وستجد كل ما
تتمناه تحت قدميك، أبذل أنت ما في وسعك لتحقيق ذاتك.
:أتمني ذلك .

: إن شاء الله، وستأتي إلى المدينة وأتباهى بك أمام جميع الناس وأنا
سائرٌ بجوارك.

: سنكون حينها سوياً يا صديقي، سنكون معاً في كل مكان وكل
مجال، عهدٌ على ذلك طول العمر .
: عهدٌ على ذلك، ألا نفرق أبداً مهما حدث .

: كل خير يا صديقي يجمعنا الله في المكان الذي لا نفرق فيه أبداً .
جلسوا على الحشائش وشاخصةً أبصارهم تجاه البحر، بين أوراق
الشجر لا يري لهم بريق، حينها خرجت حوريات من البحر تزين الآلا

أعناقهن، والخلاخل ترن في أقدامهن، يرتدين ثياباً أفرجت عن جمال
أجسادهن، كأنهن البدر والكمال ليلة القدر، كأنهن نورٌ هبط من السماء إلى
دنيا الأرض لتشعل الأرض بلهيبٍ لا يقاوم.

: لو علم المعلم بما نضع هنا لعاقبنا عقاباً شديداً.

: ومن سيخبره إذاً، وماذا نفعل نحن، لاشيء، غير حراسة
الفتيات.

: ولكننا ننظر إليهم ونراهم.

: ومعهم أخواتنا ونحب الفتيات ونريد الزواج منهم.

: أنت تعلم نقطة ضعفي يا صديقي، ثم نظر إليه مبتسماً، رقية إذاً،

إنها تستحقك يا صديقي، هي أيضاً، لا ترى غيرك في قلبها.

: وكيف وصلت لذلك، اشققتَ عن قلبها ورأيت ذلك.

: لم اشقق عن قلبها لأرى ذلك، ولكن لي عين أراها بها، عندما تمر

من أمامها لا ترفع عينها عنك، تنظر إليك نظرة المشتاق، حدث أمك في

أمرها، ولا تخجل يا حسن فالنساء أدرى بتلك الأمور منا.

: أنت تعلم أني لست جاهزاً بعد للزواج.

: حدث أمك في أمرها، ودع الباقي لأمك ستنتهي كل شي من أجلك.

: سأفعله إن شاء الله، هيا بنا لنرحل يا حمزة.
أسدل الليل ستاره وتعانقا الصديقان ورحل كل منهم إلى داره
وكان العشاء قد حان.

صباحُ الفجر بعد أسبوع

فرغ المعلم من أداء الصلاة، وانطلق كعادته وخلفه حمزة وحسن،
لكنه غير الوجهة هذه المرة وانطلق نحو منزله، كان في انتظاره راحلةٌ مجهزةٌ
وزادٍ لرحلةٍ يبلغ أمدها بعيد، لم ينتظر حمزة كثيراً حتى فاجأ المعلم متشككاً
في أمر الراحلة: لمن هذه الراحلة يا سيدي.

فالتفت المعلم إلى حمزة محبباً عليه: إنها لي يا حمزة.

:لما يا سيدي، أترحل وتتركنا؟ .

: كلا يا حمزة لن اترككم .

: كيف، وما شأنُ تلك الناقة؟، ماذا تحبُّ عنا يا سيدي؟ .

: زيارة يا بني إلى قديم الزمان للسؤال عن شيخي وأقارب لم

أراهم منذ زمن، اشتقت إلى موطني يا بني، رحلة لن تطول كثيراً.

: وماذا سنصنع بدونك سيدي .

: كيف تنطقها يا حمزة لقد عهدتكم رجلاً.

: أنا اعلم ذلك ولكن صعبٌ عليّ فراقك .

: لن يفرق بيننا سوى الموت يا ولدي .

ثم أمر حمزة بالإطلاع على الراحلة والتأكد من وجود جميع

الاحتياجات المطلوبة للرحلة، ووضع يده على كتف حسن وأخذه جانباً:

يا بني لقد علمت كل شيء؛ كل ما تعلمته في سنين واكتسبته من خبرات

وضعتها فيك أنت وحمزة، فحافظ عليها، ولا تستخدمها إلا في موضعها،

خذ قرارك جيداً، ولا تتردد كثيراً، خذ من الشورى حكمة تخرج بها

للحياة، سأعود عما قريب، أقبل يا حمزة .

: نعم يا معلمي .

: جلس حمزة بجوار المعلم وكاد دمع عينيه يتساقط .

: أتبكي يا حمزة .

: لا يا معلمي ولكنها دموع حزنٍ على رحيلك .

: اصمد يا ولدى ما عهدتك إلا رجلاً .

: فراقك يا معلمي يوجعني ، لمن ستركننا .

: للذي أخرج الماء من تحت إسماعيل ، أنسييت ذلك .

: لم أنسى ذلك ، ولكنني أظن بأن الوقت لم يكن بعد على رحيلك .

: إنه الوقت المناسب لزيارة الأهل والعودة قليلاً إلى قديم الزمان ،

كن يا بني في ظهر صديقك ولا تتخلى عنه ، كن دائماً معه ، وشاركه في أمره

وقرراته ، لا تنسي أن ترعي زوجتي ، إنها امرأة عجوز ، وليس لها غيري ،

أريد منك عند عودتي أن تكون قد أنهيت تعليمك للغة البيزنطيين والروم ،

أكمل في طريقك ولا تتوقف .

: أريدك أن تطمئن يا معلمي .

: بارك الله فيك يا ولدى ، حفظك الله من كل سوء .

ركب المعلم الناقة منطلقاً نحو خرسان .

بعد أسبوعين على رحيل المعلم

سقوط نيقية عاصمة السلاجقة في أيدي الحملة الصليبية بقيادة الجيش الألماني، ودب الحزن في بلاد المسلمين وأعلن الجيش السلجوقي النفير العام في البلاد، واستقطاب الأجناد لمحاربة الصليبيين واسترجاع نيقية من أيديهم.

أسرع حمزة إلى صديقه يحمل له خبر سقوط نيقية، وركب حصانه وأخذ يعدوا به مسرعاً منطلقاً يخرق به الغابة الواسعة، لما وصل حمزة إلى البقعة، نزل من على الحصان وربطه في إحدى فروع الشجرة، وهرب إلى حسن فوجده مسترخياً على السرير ووجهه ناحية البحر، وبعض الفتيات يلعبون ويقومون بغسل الملابس والأواني، فنظر حمزة إلى حسن إذ رقية معهم.

فنظر إليه مبتسماً ولم يجبه، ففزع في صديقه: أتجلس ههنا والحرب قد حمي وطيسها واحتل الصليبيين نيقية.

: أتعلم أن رقية جميلة، إنها تجذبني بجمالها.

: سبحان الله يا حسن !!، أقول لك الصليبيين احتلوا نيقية، وأنت

تقول لي رقية جميلة، ثكلتك أمك .

انتبه حسن من شروده ونظر إلى حمزة منزعجاً وقد ظهر على وجهه
ملامح الغضب ماذا تقول نيقية سقطت!.

: نعم والسلاجقة أعلنوا النفير العام في البلاد.

: إذا الخطر يقترب من بوابتنا، اسمعني جيداً يا حمزة، اجعل
لعيونك متسعاً ترى كل الناس، ولأذنيك مجالاً لتسمع الآنين، وأخبرني
بكل ما هو جديد، لا بد وأن نذهب إلى قائد الحامية السلجوقية ونجلس
معه لمعرفة الأوضاع في المدينة وخارجها.

: كبار المدينة وسادتها سيجتمعون به الليلة.

: تمام يا حمزة، فليحفظنا الله من شرور العدو وكيده.

: ماذا ستصنع في أمر رقية.

: سأحدث أمي اليوم لخطبتها، فلننشغل بها هو أهم الآن.

: مبارك عليك يا صديقي، لقد سلب حب رقية عقلك وقلبك،

هذا الزواج سيعيد إليك رشذك، ابتسم حسن لصديقه وعاد ببصره نحو

رقية، وأنشد بعض أبيات الشعر، رقية تيممت قلبي فواكبدي من الحب

نهاني أخواتي عنها وما بالقلب من عتب.

حل الظلام وأذن الله للشمس بالغروب واقترب المغرب، وحسن
وحمزة ينظرون باتجاه البحر تدور أعينهم حول المكان مخافةً على فتيات
المدينة من الخطر، ولكن حسن كان بصره مشغول تجاه رقية، رقية التي
استطاعت أن تسرق قلبه وتعبّر به إلى الأفاق غير مباليةً بسلب روحه عن
جسده، لقد نذر نفسه أن يحميها ويدافع عنها من كل مكروه، حتى من
نفسه التي تعشقها، وأن يبقي بجوارها دون أن تشعر بوجوده، وأن يقاتل
كل من سولت له نفسه بالاقتراب منها أو بأذيتها، وكشفت عن ساقها
ودلت برجلها في الماء تغسلها، لقد كاد بصره يذهب عندما رآها على تلك
الهيئة، وحدث نفسه إنها لخورية من حوريات الجنة، لقد ظل متمسراً مكانه
شاخصاً ببصره فاتحاً فاه حتى أصبح مأوىً للذباب، لاحظ حمزة ذلك وقام
بضربه على رأسه حتى أفاق من غفلته وتنبه لما حدث منه، ثم أردف إليه
قائلاً: لقد تخطينا بذلك كل الحدود، لا ينبغي أن يقع ذلك منا، نحن لم نبقي
هنا لمشاهدة الفتيات على هذه الحالة، نحن هنا لحمايتهم.

: لكنى أحبها وسأتروجها.

: لكنها ليست زوجتك الآن، عندما تتزوجها أفعل ما تشاء أما

الآن فلن اسمح لك.

واشتد النقاش واحتدم وعلت الأصوات حتى وصل صدى الصوت ناحية البحر، فقامت الفتيات مفزوعاتٍ من أماكنهن تهرول كل واحدة ناحية الشجر تحتمي في ظله، ظناً منهم أنه هجومٌ للصليبيين، ورفعت سيوفهن خشية أن يكون هجوم، وفزعت الفتيات بأصواتٍ عالية "صليبيين صليبيين" ويصرخن ويستغيثن بأهلي المدينة، لاحظ الشباب ذلك الفزع، وانطلق حسن يهرول نحو الجانب الغربي للغابة (القريب من المدينة) قبل أن يري ذلك أحدٌ من أهالي المدينة فتكون الطامة الكبرى، وقبل أن يلحق حمزة بصديقه رأى بريق سيفٍ لامع يخرج من غمده بالقرب من إحدى الأشجار يجري ويختبئ بين الشجيرات ثم أغمد السيف مرة أخرى، ولحق حمزة بصديقه وحمل قوسه وانطلق مسرعاً بفرسه داخل الغابة لينقذ الفتيات ويسبقه حسن شاهراً سيفه، حتى وصلوا إلى مكان الفتيات وأخذوا يتجولون حول المكان، ونزل حسن من على فرسه متحدثاً إلى الفتيات "هل أصابكن مكروه".

ردت عليه رقية في رقة وبهاء لم نتعرض لسوء، لقد سمعنا أصوات

حركة وأصوات سيوف فخشينا أن يكون هجوم للصليبيين.

أشار حسن إلى حمزة هل وجدت شيء.

:لم أجد أي شيء، كأن الأرض قد ابتلعت من عليها.

كان فرسان المدينة قد وصلوا إلى المكان، وانطلقوا يتجولون في الغابة بحثاً عن أي آثارٍ لأقدام، سأل شيخ المدينة عن حال الفتيات فأجبن له ما قالته رقية لحسن، وما فعله حسن وحمزة، فتوجه شيخ المدينة (حاكم المدينة) نحو حمزة وحسن وأردف قائلاً الحمد لله أن في المدينة مثلكم.
: سلمت يا سيدي.

وانطلقوا نحو المدينة والعشاء حل، واجتمع شيخ المدينة بساداتها وقائد الحامية بعد أن فرغت الصلاة، ودخل حسن ومن خلفه حمزة وألقوا السلام على الحاضرين وجلسوا في المجلس يستمعون وينصتون جيداً لحديث وكلام سادة المجلس، دخل أحد الجنود إلى المجلس يستأذن في دخول أحد الأشخاص فأذن له، وفي هذه الأثناء دخل فارس بملابس سلجوقية فألقى السلام على الحاضرين، فقام شيخ المدينة باحتضانه وتقيله، فقام الفارس بتقبيل يده، "أهلاً بك يا بني"، حمد الله على سلامتك، فقام الحاضرين بالتسليم عليه ومصافحته، وذهب إليه حمزة ومن خلفه حسن وسلموا عليه وجلس تحت قدم أباه، إنه مسعود الفارس السلجوقي، من أبناء المدينة، ابنُ شيخ المدينة، كان صديقهم فيما مضى قبل

الإلتحاق بالسلاجقة، منذ أن ألتحق بهم ولم يرونه كثيراً، تحدث مسعود وظل يحكى ما حدث منذ سقوط نيقية وانسحاب السلاجقة، وحالة الضعف التي تمر بهم هذه الأيام، حتى أتى إلى، البلاد لم تعد في أمانٍ كما الماضي، الصليبيون يحيطون بكل الأماكن، وجواسيسهم في كل مكان، سأله أحدُ الحاضرين وما احتياجات السلاجقة هذه الأيام.

: السلاجقة في حاجة إلى كل الشباب، وكل الفرسان، كل مستطيعٍ على حمل السلاح، فالسلاجقة بحاجة إلى جهوده.

: ولكن ما سبب عودتك الآن يا مسعود والبلاد في حالة حرب.

: لقد طلبت إجازة من قائدي ليستقيم فيها حالي وتهدأ أوتار أعصابي، وأنوى الزواج، وسأعود إلى قونيا من جديد، لقد أصبحت عاصمة الدولة بعد سقوط نيقية.

سرَّ الجميع بخبر زواجه ليخفوا أثار الحزن من على وجوههم، تحدث شيخ المدينة موجهاً حديثه نحو قائد الحامية السلجوقية ولكبار السادة بالمدينة ولأبنة مسعود مستبشراً بعودته، وحكي لهم ما حدث للفتيات، فأشار لأبنة أخذاً رأييه، فيما حدث، ما الذي يجب علينا فعله وتحدث قائد الحامية ولم يبدي مسعود أي اعتراضٍ، بل وافق على كل ما

قاله قائد الحامية، واستأذن للانصراف بسبب مشقة الطريق وعناء السفر،
استأذن حمزة أيضاً من الحضور ليوصل مسعود إلى منزله.

: اشتقتنا إليك يا رجل.

: وأنا أيضاً اشتقت إليكم كثيراً يا حمزة، اشتقت إلى كل شيء

بالمدينة.

وأخذ يتحدث معه ويسرد له الحكايات في الطريق ومسعود غير
مبالي شارداً بذهنه حتى أنه نسي تمام وجود حمزة، لاحظ حمزة ذلك فغير دفة
الحديث وأردف قائلاً له ومن تكون سعيدة الحظ التي ظفرت بقلبك، انتبه
مسعود لكلام حمزة وقال هااااا فآعاد حمزة الكلام مرة أخرى.

: ليس هناك بعينها، سأدع الأمر لأمي تختار، وتركه حمزة عند باب

المنزل وعاد والتقني بحسن.

بعد أن فرغ الإمام من أداء صلاة الفجر، وقف خطيباً في جموع
الحاضرين من أهل المدينة، بالأمس أثناء وجود الفتيات عند البحر حدثت
أصواتٌ في الغابة، وتواصل متتبع الأثر لوجود أثر قدمٍ في الغابة، نظنه من
كشافة الصليبيين يستطلع الأخبار ويكتشف المدينة لهم، شعرت الفتيات

بالخطر قادم إليهم، قام مسعود معقّباً على كلام الشيخ هل رأى أحدٌ هذا الجندي.

: لا، لم يراه أحد، ولكن متتبع الأثار، "قالوا بأنهم وجدوا آثارٍ لشخصٍ واحد".

: أظن بأنهم جنود الاستطلاع، جاءوا ليعرفوا مداخل المدينة ومخارجها وحالها، لا بد وأن نتخذ احتياطاتنا جيداً.

: هذا ما اتفقنا عليه أمس في المجلس مع قائد الحامية القائد عثمان.
: هذا جيد يا سيدي.

قام قائد الحامية بالشرح لأهل المدينة ما عليهم القيام به من إقامة متاريس، وحفر خنادق، وتصليح الأسوار التي تحيط بالمدينة، ووضع الكمائن، وعمل مناوبة بين الحراس، وحث الشباب وكل القادرين على حمل السلاح بالانضمام إلى الحامية للتدريبات وحماية المدينة، وأشار إلى حمزة وحسن بمساعدته في حمل هموم تدريب الشباب في المعسكر.

لقد استجاب أهل المدينة لنداء القائد عثمان؛ وأعانوه بكل ما يحتاجه من معداتٍ ومال، وأنضم الشباب إلى المعسكر، واستغل قائد

الحامية وجود مسعود واستأذنه في مساعدته في تدريب الشباب، ولكن الآخر أبد إعتذاره ولكنه وعده بالحضور والمساندة.

كان نبوغ حمزة وحسن وبراعتهم الحربية والعسكرية كفيلاً بأن يرفعوا الحرج عن قائد الحامية ومساندته في تدريب الشباب، لقد استطاع القائد في فترة قصيرة تكوين جبهة مدربةً جيداً على القتال من ألفين مقاتل، مستعدة لخوض الحرب والصمود أمام العدو أن حدث قتال، إلى يأتي مدد السلطان السلجوقي.

مر أسبوعٌ على وجود مسعود في المدينة، كان حينها حمزة في منزل زوجة المعلم يقوم على خدمتها، بعد أن جلب لها الغداء. وأثناء الحديث قالت ستشهد المدينة عيداً الأيام القادمة يا حمزة.

: لما يا خالة.

: الم تعرف بعد.

: لم أعرف.

: مسعود سيتزوج.

: "يا الله" هذا خبرٌ جميل، النذل لم يخبرني، لكن بمن سيتزوج يا

خالة.

: من رقية يا بني .

: رقية !!، ووضعتُ يدي على وجهي من الصدمة واتسعت

عيناي حرجاً، رقية بنت الخال مراد خان؟.

: نعم يا بني هي .

في سريرةً نفسه حدثها، "يا للمصيبة إن عرف حسن"، فليحفظنا
الله، وتذكر ليلة عودة مسعودٍ من أرض السلاجقة، "ليلة الغابة"، عندما
فُزعت الفتيات، مسعود لقد رايته سارحاً بخياله غير متبهاً لكلامي
فأردت أن أخرجهُ من شروده وكتبته وغمه، "ومن تكون سعيدة الحظ التي
ظفرت بقلبك"،

: لا أعلم، سوف اترك الأمر لأمي تختار ما تراها مناسبةً لي .

: هنيئاً لك يا مسعود، سيكون زواجاً مباركاً إن شاء الله وسكتنا

هنيئاً؛ ونظر إلى عمامته وملابسه عند كتفه، فوجد بقايا لأوراق شجر، ثم
نظر إليه وهو مازال متشرد الذهن، أي الطرق سلكت أثناء عودتك من
نيقية .

نظر إليه وقال سلكتُ طريق البحر .

: لم تسلك طريق الغابة؟.

: لا، إنه طريقٌ طويل.

: عندك حق، إنه طريقٌ طويلٌ وخطير، لقد أرهقتك، سأدعك

ترتاح، غداً نُكْمِلُ حديثنا إن شاء الله، وودعه ورحل، كيف يسلك طريق
البحر وملابسه مليئة بأوراق الشجر!!.

وأشدَّ النِّقاشِ واحتدم، وعلتِ الأصوات، وهروا لستِ الفتياتُ

نحو اسلحتهن، واختبئوا خلف الشجر، وهروا ل حسن بسرعةٍ نحو
المدينة، ومن خلفه همزة، وأثناء مروره رأى رجلٌ خلف الشجر مختبئاً، وقد
أخرجَ سلاحه من غمده، وظهر بريقُ السيفِ لامعاً، إذأً لقد كان مسعود
هو الذي ينظر إلى الفتياتِ على الشاطئ.

لفتت الخالة انتباهه وأعادت ذهنه من شروده، أين ارتميت بعقلك

يا بني.

: أنا هنا يا خالة تذكرت شيء، متى سيكون الزفاف.

: الخميس القادم، العقبى لك يا بني أنت وحسن.

: سلمتِ يا خالة أأذن لي بالانصراف.

: تفضل يا بني في رعاية الله.

ماذا أصنع، هل أخبر حسن؟، لقد ذهب عقلي كالسكارى من فرط شرب الخمر، أأتركه، فيبصر وحده، أم أدله على جور الطريق، فليكن الله معنا، هذا الخبر ليس بالهين كي يستوعبه بدوني، على أن أتمهل في الحديث، لن أظهر له شي، أه منك يا مسعود؛ فعلت كل هذا من أجل أن تخفي أمرك، تسورت خلف الشجر، ونظرت إلى رقية، وقمت بوضع كل هذه الأكاذيب صليبين واستطلاعيين، ماذا أفعل لو علم حسن بكل هذا، لن يكفيه رقية مسعود.

: لقد تأخرت كثيراً يا حمزة، ماذا أحضرت معك من طعام، لقد كان أكثر بهجة من قبل.

: كنت أنظف بيت السيدة، جلس بجوار حسن ووضع الطعام على المائدة وظل يتذكر أيامهم ويضحك وهو يأكل، وحمزة يتصنع الضحك معه ويتحاشى النظر إلى عينيه، خشى أن يري ذلك في عينه، لكنه لاحظ ذلك، وفي قرارة نفسه كيف أخفي عن صديقي همي، فجذبه إليه، ولفت انتباهه بقوله له لقد ذهبت أُمي إلى بيت رقية لخطبتها لي، انتظر البشرى يا صديقي.

نظر إليه وكاد يبكي، مبارك عليك مقدماً يا صديقي.

: العقبى لك يا صديقي، إنه أسعد أيام عمري، نظر إليه ثم قال:

مالي أراك مهموماً كأن الجبال قد انطبقت على صدرك.

: لا ينبغي أن أتركك على هذا الحال يا صديقي.

: تغير وجهه واحمرت عيناه، ماذا حدث أخبرني.

: سكت قليلاً، فقام مفزعاً فيه وقال: أخبرني ماذا حدث.

: رقية ستتزوج الخميس القادم.

احمر وجهه وارتفع حاجبه واتسعت عيناه وضم شفثيه ضاغظاً عليها بأسنانه، وبقبضة يده ضرب بها المقعد وصاح يهيج كالمجنون، مستحيل، مستحيل أن تتزوج رقية غيري، ويضرب بقدمه يميناً ويساراً، وضرب الشجر بسيفه، وحمزة في مكانه متمسراً لا يستطيع الحركة، ظن بأنه قد بُلي بالشلل المؤقت، لا يستطيع الحركة من مكانه لمساعدة صديقه، لا يدري ماذا يصنع له، لأول مرة يشعر بالعجز، وفجأة تحول حسن باتجاه حمزة يستشاط غضباً وجذبه من قميصه جذبة حزت منها رقبتة، أخبرني من سيتزوجها.

: لا اعلم.

: فقام برفعه من القميص حتى اعتلت قدمه عن الأرض وألقاه
على الأرض رميةً، وسقط على ظهره وشعر وكأن الأرض تدور به، ونزفت
أنفه من قوة الرمية، فلما رأى حسن الدماء تسيل من وجهه رق وأسرع إليه
مهراً ولا يبكي، لم أقصد ذلك يا حمزة، أنا أسف يا صديقي ساحني، وقطع
من قميصه قطعة ليوقف نزيف الدم السائل من أنفه، وأتى ببعض النباتات
وحمله ووضعها على المتكى وجلب له بعض الماء.

: أنا بخير يا صديقي لا تقلق لم يحدث شيء.

: اعتذر إليك يا صديقي لقد تهورت كثيراً واصابتك.

: هذا قدر الله يحمل بين طياته الرحمة.

: أنت تعلم ولا تريد أخباري.

: أنا مثلك يا صديقي سمعتُ فقط بأنها ستتزوج.

جلس حسن متكئاً على إحدى المقاعد سانداً ظهره وشارداً بذهنه
سارحاً ببصره نحو السماء وتساقط الدمع من عينيه، فقام حمزة من مقامه
والألم يقتل ظهره وربت على عاتقه، فانحنى برأسه إلى أسفل وبكى كطفلٍ
رضيع يبحث عن أمه.

: هوناً عليك يا صديقي الأمر لا يستحق كل ذلك.

: أنا لا أبكي عليها يا حمزة، بل أبكي على ضعفي وهواني، لأنني فقير، فقيرٌ بائسٌ لا أملك الأموال الوفيرة لأقدمها من أجل رقية.
: يا أخي لا تجزع من أمر الله نحن راضينا به، دع الأمر لله يدبر مملكته كيف يشاء.

: صدقت يا أخي، لكن لماذا يفعل الله معي كل ذلك.
: لأنه يريدك مرهون بقوته، يريدك عظيم في ملكه، يريدك أعز البشر، لا يريدك منكسراً، يريدك جاهزاً لتلك المهمة العظيمة.

صباح يوم الخميس، المدينة تتزينُ للاحتفال بزفاف رقية على الأمير السلجوقي مسعود. تذهب الفتيات إلى رقية ليزينوها، وضبط فستان الزفاف عليها لتكون في أبهى صورتها، سيأتي بعض القادة والأمراء من القصر السلجوقي لحضور حفل زفاف مسعود.

كان حمزة يبحث عن حسن بين الشباب فلم يجده؛ لقد عَرِفَ إذاً، انطلق يخرق الغابة ويعبر الأشواك إلى الاشواق، ويقفز من فوق برك الماء ويخرق الحواجز والكمائن التي وضعها وأخفاها، لما وصل وجد حسن

جالساً القُرفصاء ينظر نحو البحر، أين كنت أمس يا حسن؛ بحثت عنك كثيراً وأمك أخبرتني أنك لم تبيت في المنزل.

أتدري؛ لقد أيقنت بأن الحب والمال يجب وأن يجتمعا سوياً، حبٌ بدون مالٍ كبيرٍ بدون ماء، لا ينفع نفسه ولا ينتفع الناس منه، لا يصلح أن يسمى بئراً لأنه سيُلقي فيه القاذورات والحشرات وسيظل يندم على فقدانه الماء.

:ألن تحضر الزفاف يا صديقي، مسعودٌ ليس له علاقةٌ بالأمر، هو لا يعرف أنك كنت تريدها قبله، لو كان يعلم ذلك ما تقدم إليها.
:لا؛ بل هو سبب كل هذا، لو لا نفوذه وأمواله ما وافق أهل رقية، ولكانت رقية الآن زوجتي.

: يا أخي لو كانت تريدك لتمسكت بك، هي تريد المال والجاه.
: السبب أهلها، .

:وليكن؛ فأهلنا أدرى بأحوالنا منا، هيا بنا لنحضر حفل الزفاف.
: اذهب أنت وأنا سألحق بك.

: لن أرحل من دونك، قدمي لن تسبق قدمك؛ سنذهب معاً.
: حمزة ارجوك اذهب وأعدك بأني سأتي خلفك.

: لن اذهب بدونك .

: ارجوك دعني لنفسي .

انطلق حمزة مخترقاً الغابة عابراً نحو المدينة ليتجهز لحضور حفل

الزفاف .

:أمام بيت شيخ المدينة"، الأبواب مفتوحةً على مصراعها،

والمفارش مرصوفةً، والشباب مجتمعٌ حول الدارِ كلِّ بسلاحِهِ، جاء

يشارك في الحفل، ويحيط بمسعود زملائه في المدينة وبعض زملائه من

السلاجقة الذين أتوا لحضور حفل الزفاف، أناسٌ يدخلون إلى مائدة

الطعام ويخرج آخرون، عادةً حميدةٌ تعارف عليها المسلمون "تكون بمثابة

مباركة العروسين"، مازال حمزة جالساً مكانه يلتفتُ يميناً ويساراً ينتظر

قدوم حسن، وشباب المدينة يسألونه عنه، ويتعمد الهروب في الكلام، "لا

يدري بماذا يجيبهم" فيجيب تارةً بأنه عند زوجة المعلم يقوم على خدمتها،

وأثناء الاحتفال مر موكبٌ عظيم، يتقدمه فرسانٌ من السلاجقة على

أحصنةٍ تميزت باللون البُني الفاتح، عليها قماشٌ زُينت باللون الأزرق

الساوي، يتوسط الموكب عربةً صغيرةً يقودُها حصانين عليهم سائق،

ويسير خلف العربة مجموعةٌ كبيرةٌ من السلاجقة، وقفت العربة في

المنتصف أمام بيت شيخ المدينة، ونزل رجلٌ من على إحدى الأحصنة، رجلٌ عظيمُ الهيئَةِ، من يراه يهابُهُ ويُقَرُّ له بالاحترام، عندما نزل الرجل هرولاً إليه قائد الحامية ومسعود يسلمون عليه وينحون له كنوعٍ من أنواع التوقير والاحترام.

دخل وألقى السلام على الحاضرين وقام له كبار المدينة ومشايخها وأجلسوه على المنضدة داخل الدار على الكرسي الكبير الذي يجلس عليه شيخ المدينة والجميع حوله، وأخذ الحديث يتطرق بهم حتى وصل حسن ودخل وألقى السلام على الحاضرين، وحياهم بتحية الأباءِ واضعاً يده اليمني على قلبه، وسلم على مسعودٍ وتعانقا، وهنأه بحفل زفافه، وكان حمزة يسير خلفه يسلم على الحاضرين، فلما رآه قائد الحامية قام وسلم عليهم مبتهجاً مسروراً، ثم همس في أذن ذلك الرجل العظيم، وكان قائد الحامية يجلس عن يمينه، إنه أحد أمراء القصر السلجوقي، أحد المقربين من السلطان السلجوقي، أشار قائد الحامية ناحيتهم وقال له هذا حسن الذي حدثتك عنه يا مولاي.

: ومن خلفه.

: إنه حمزة أفضل رامى في المدينة، وإن قلت أفضل من جنود
السلاجقة لقلت يا سيدي أنى أكذب عليك.

قام الأمير من مكانه وتحدث قائلاً، "أيها الشابان"، وأشار
ناحيتهم أقبلوا إلى، وأفسح لهم بجواره مكان، وتفاجئ أهل المدينة من
صنيع الأمير، ثم تحدث بصوت عالٍ موجهاً حديثه إلى حسن: أنت حسن
الذي ذاع سيطه عند السلاجقة.

رد حسن في خجلٍ، لأن الياقوت لا يرضى بغير التاج علواً يا
سيدي.

تبسم القائد عثمان من كلام حسن.

: فتبسم الأمير، لقد علمت بأنك من أفضل شباب المدينة، لماذا لم
تأتى إلينا ونحن بحاجة إلى كل الشباب الشجعان مثلك.

: ومدينتي أيضاً جزءٌ من البلاد، لذلك فضلت البقاء بجوار القائد
عثمان للدفاع عن المدينة أن وقع بها خطر.

: لقد تحدثت معه في ذلك يا سيدي كان المتحدث القائد عثمان.

: أنت تعلم أننا بحاجة إلى كل شاب شجاع قوى.

: نحن فداءً للدين والبلاد يا سيدي.

: سأكون في انتظارك يا حسن، عندما تأتي سيكون السلطان بانتظارك، أنا فخور بمثلكم.

تبسم حمزة؛ نحن لسنا أهل لكل هذا الثناء يا سيدي لقد عظمت من أمرنا ورفعنا من شأننا.

: هذا قليل من غيث الثناء عنكم، واليوم نرى ما سمعناه وتكون المشاهدة خير دليل على الكلام، ماذا ستقدمون اليوم لصديقكم في حفل زفافه.

: نحن في خدمتكم يا سيدي، الأمر أمرك فانظر ماذا ترى.

: أرى أن يبدأ حمزة الحفل بالرمي.

: كما تحب يا مولاي.

: وأنت يا حسن ماذا ستقدم لنا اليوم.

التفت حسن من شرود عقله المتمرد: نعم يا سيدي ما رأيكم في مباراة قائد الحرس الخاص بكم.

تعجب الأمير من كلام حسن ونظر إلى قائد الحرس هذا أمر حسن، سنستمع اليوم بالمبارزة، وعم السكون ونزل الطعام وأكل الحاضرين وحل المساء وأسدل الليل ستاره، وأنيرت الشوارع وأضيت

الطرق، وخرج الأمير من الدار وجلس متكئاً على يده اليسرى مربعاً قدمه اليسرى فardاً قدمه اليميني كمثلث متكامل الاضلاع، وبجواره حراسه، وحمزة عن يمينه، وحسن عن يساره، والقائد عثمان وقائد الحرس .

: هيا يا حمزة قم أرنا ما عندك .

: كما تحب يا سيدي .

: ما هي أقصى مسافة يستطيع فيها سهمك إصابة فرسته .

: تبسم حمزة أكثر من مائة ذراع يا سيدي .

: جميل ولكن هل هناك ما هو أفضل من ذلك .

: ما زالت أتعلم يا سيدي .

: إذا وضعنا تلك التفاحة فوق رأس هذا الرجل وأشار نحو أحد

الجالسين هل تستطيع إصابة التفاحة بدون قتل الرجل .

: عندما قال الأمير تلك الكلمات؛ نظر باتجاه حسن وانتبته

قشعيرة في جسده، واتسعت عيناه، وحدثت هزة في جسده كتلك الهزة

التي تسقط القصور والبيوت وتشق الأراضي وتقتل الجمع الغفير من

البشر، ولكن يا مولاي .

: إذا ما أنت إلا كشموعٍ احترقت في الظلام وما انتفع منها الدار،
ثم وجه نظره باتجاه عثمان؛ لا أدري كيف يكون هذا من أمهر الرماة بالمدينة
ولا يستطيع أن يصيب تفاحة فوق رأس رجل.

: من أي المسافات تريدها يا سيدي، كانت جراً منه ليس في محلها
فالرجل الظاهر عليه الرعشة والخوف، وهو أيضاً يشعر بهزة في جسده
خوفاً من قتل الرجل بسبب حركة تضرهم جميعاً.

همس الأمير في أذنه: ثق في نفسك يا حمزة واعلم أنك تستطيع،
ومتى وُجِدَ هدفك فأنت قادرٌ على أن تصل مهما كان ومهما طال ومهما بعُدَ
عنك، عليك أن تحقق ذاتك وأن تحسن الظن بالله، وتركه وجلس مكانه
ينظر إليه وابتعد الرجل مقدار مائةً وعشرين ذراعاً، بجوار فتيلٍ مشتعلٍ
يضيئُ المكان، فقام الأمير وقال للرجل ليس هنا، وأشار إلى مكان الإضاءة
فيه ضئيلة وتحجب الرؤية فيها من بعيد، تسمّر الرجل وارتعشت يده،
واهتز جسده ولكن يا سيدي، المكان هنا مظلم قد يصيبني السهم بدلاً من
التفاحة.

: لا تقلق يا رجل معنا رامي عظيم.

اشتد الأمر على حمزة أكثر فأكثر، فالمسافة ليست قريبة، والمكان باهت الإضاءة، فقام حسن من مكانه ذاهباً نحوه ومسك بمعصمه قائلاً له لا تخف، أمضي بسهمك حيث أراد الله؛ وعاد بجوار الأمير، وحمزة ما زال يشعر بشي من الرعدة والبرد يصيب أنامله حتى ظن بأن الشتاء القارص قد حل، ذهب إلى الرجل ليهدي من روعه ويطمئن قلبه، وقبض على القوس بيده اليسرى وأمسك السهم بيده اليمنى ووضع السهم بداخل القوس وبدأ بجذب السهم وفجأة توقف ونظر إلى الأمير قائلاً له (^_^) استمتع بقدر الله (^_^)، نظر حسن إلى حمزة وكان يتمتم ببعض الكلمات في سره قبل أن يلقي سهمه، علم بعد ذلك أنه كان يقر بعض آيات القرآن "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى" وجذب سهمه ورماه في اتجاه الرجل وكان الرجل يتمتم بالشهادة وجسده يرتعش ضاغطاً على عينيه كأنه قد أصابه العمى، وسقط الرجل على الأرض، وهرول الحضور نحو الرجل؛ وتسمر حمزة مكانه فاتحاً فاه واضعاً يده على رأسه، عندما وصل الناس عند الرجل وجدوه ملقياً على الأرض والسهم في قلب التفاحة مخترقاً الشجرة، قام الرجل وحمد الله وسجد لله شكراً على بقاءه حياً، وأجلسه الأمير بجواره يطعمه ويسقيه بعض الماء، ألم أخبرك يا رجل أنه ماهر، وضحك

ضحكةً أسمعت الحاضرين، فتبسم القائد عثمان وقال للأمير أضحك الله سنك يا سيدي هلا أخبرتنا ما الذي يضحكك فنضحك لضحك، فنظر إلى حمزة وقال أضحك على ما ألقاه حمزة من ضروب الذكاء.

هذا من كرمك يا سيدي، فتبسم الأمير وغمز له بعينه ووجه

حديثه نحو حسن: هلا متعتنا بقدر الله مثل حمزة يا حسن.

: كما تحب يا مولاي هل تحب مبارزتي.

ضحك الأمير: لم يكن هذا بعد يا حسن، ستبارز قائد الحرس كما أردت.

: كما تحب يا سيدي.

قام قائد الحرس من جوار الأمير وأخرج سيفه من غمده، ونظر

حسن إلى الأمير وقال له "سيدي هلا تكرمت علينا بإعطائنا سيفك المبارك

نبارز به حتى تحمل علينا البركات في المبارزة"، تبسم الأمير وأخرج سيفه

وألقيه تجاه حسن فتلاقه من مقبضه، ثم التفت إلى قائد الحرس وبدأت

المبارزة بين الطرفين، كل طرفٍ ينظر في عين خصمه، يملقون في دائرة

مفتوحة، يطوفون حول بعضهم البعض، ثم تقدم حسن وضرب أول

ضربة بسيفه نحو قائد الحرس فتلقى الضربة وردها، وقام قائد الحرس

باستعراض قوته والهجوم المفاجئ وألقى الضربات يميناً ويساراً بسرعة

وقوة ويتقدم خطوات، وحسن يتراجع ويصد الضربات، حتى رده وأوقف تقدمه بأن أشتبك معه والتحم السيوفان، ونظروا بأعين بعضهم بقوة، ثم قام حسن بضربه بيده اليسرى في أنفه فرده إلى الخلف بضع خطوات، ففاجأه حسن وهو يطير في الجو بضربة بالسيف هزت يد القائد، فأدار جسده ولف لفة قصيرة فضربه في ناحية قدمه فردها الحارس ثم أسرع حسن الضربات يمين يسار عند رأسه نحو يده نحو قدمه؛ فضربه ببطن السيف في كتفه ضربة وجع فاشتد زعر قائد الحرس ولم يدري ماذا يصنع غير التراجع للخلف وصد ضرباته، وكان الأمير ينظر بعين القلق نحو قائد الحرس ثم أشار إلى أحد جنوده برمي السهام باتجاه حسن، "فألقي أول سهم نحو قدمه"، فأنزعج حسن وتشتت انتباهه، فنظر حسن نحو الرامي فأخذ قائد الحرس بعض أنفاسه وعاود الهجوم، وكان هذا الهجوم أكثر شراسة وجرأة وأشد ضراوة، وألقى الرامي بسهم آخر كاد أن يصيبه، فأرد حمزة مساعدة حسن ومساندته لكن الأمير أمره بالجلوس، فجلس وكله قلق على حسن، لم يكتفي الرامي بهذين السهمين وزاد من راميته، ولكن تفاجئ الجميع بضراوة حسن في القتال وكفأته في الصمد ورد الضربات، وصد السهام المتجهة إليه نحو صدره بالسيف والدرع الذي ألقاه إليه

حمزة، وصدده ضربات قائد الحرس، قبض حسن على السيف بيده وأخذ
يقاتل قتال المستميت، واخذ يطوف حول خصمه جاعلاً الرامي يدور
حول نفسه حتى يستطيع إلقاء السهام نحوه، لقد احجب الرؤية تماماً عن
الرامي حتى يستطيع كسب بعض الوقت لتفادي ضرباته واحمر وجهه
وهجم على الحارس هجمة قوية تفاجئ منها فهو لا يدري أين تكون
الضربة القادمة، وقائد الحرس ظهره في وجه الرامي، وعين حسن في عين
الرامي، كلما حاول الالتفاف ليلقي بسهمه يسبقه حسن ويلتفت بقائد
الحرس، حتى حانت الفرصة التي يتهيئ لها منذ بداية المباراة، وقام حسن
بعمل خديعة أسقطت الفارس في الفخ، فاصطنع التعب من كثرة الالتفاف
فباغته قائد الحرس ليقضي عليه ويسقط سيفه، فمرر السيف فجعل حسن
السيف يمر بجوار إبطه ثم قبض على السيف ويد الفارس بذراعه ورد
سيفه نحو رقبة قائد الحرس معلناً انتهاء المباراة وانتصاره عليه، ف ضرب
الأمير يداً بيد معرباً عن سعادته لانتصار حسن واستدعاه للجلوس
بجواره، وجلس حمزة عن يساره، فليبارك الله همكم وعزمكم، بمثلكم لا
تسقط دولتنا أبداً، سنلتقي عما قريب؛ فمثلكم لا يترك، سأعود من أجلكم

مرة أخرى، استمروا في التدريبات حتى يأتي اليوم الذي نتقابل فيه، لا بد وأن تكونوا على يقيناً بأن الله سيجعلكم نبتة في الصرح العظيم.

وهمَّ الأمير بالرحيل وتهيئ الجميع من أجل ذلك، وسلم الأمير على كل الحاضرين، وارتحل كل واحدٍ إلى داره، ثم تحدث حسن: سيدي هل سترحل الآن إلى الديار؟ .

: نعم يا حسن؛ هل هناك شي تريده مني قبل أن أرحل؟ .

: نعم يا سيدي، نحو لا نأمن عليك الطريق، قطاع الطرق يملئون المكان، يتربصون بالمارة، وجنود الروم في المحور راصدين .

: لا تقلق يا حسن، نحن نسلك طرقاً أكثر أماناً، ولا بد أن أكون صباحاً في قصر السلطان.

: هل تدع هذا الشرف لي يا سيدي؛ بأن أتولى أمر إيصالك إلى أقرب حاجز للسلاجقة.

نظر الأمير إلى قائد الحرس ومسح على لحيته : لكم ذلك، وصعد الأمير على فرسه، وصعد حسن وحمزة كل واحدٍ على فرسه وانطلقوا مسرعين بالأحصنة نحو الغابة يتبعهم الأمير والحرس يتحدثون فيما بينهم، فلما اقتربوا على مشارف الغابة ضرب حمزة بفرسه وسبق الجميع مسرعاً من

إحدى المخابىء السرية، وأمسك حسن بفرسه وأشار بيده للجميع بالتوقف، وظلوا على هذا مقدار من صلى ركعتين بتأني متوقفين يحيطون بالعربة من كل الاتجاهات، نظر الأمير إلى قائد الحرس، فعاد إلى جواره ما الذي يحدث، " انطلق حمزة داخل الغابة ليؤمن الطريق .

: هل أماننا الكثير.

: لا أظن ذلك يا سيدي؛ لا تقلق، لكنني أتعجب !!، كيف يمتلكون كل هذه المعلومات عن تلك الطرق المؤدية إلى قصر- السلاجقة بدون الوقوع في الأخطار، أنى لأتعبج منهما كيف لا يكونوا بيننا !! .

من داخل الغابة يغرد الكروان معلناً تأمين الغابة، على إثر الصوت انطلق حسن وأخبر قائد الحرس بالانطلاق، هيا بنا سيدي، الطريق آمن، سنكمل المسير، لقد سلك بهم حسن طريقاً آخر غير الذي سلكه حمزة، وقام حسن وبجواره قائد الحرس بالانطلاق مسرعين داخل الغابة، ومن خلفه الأمير والعربة والحراس يخترقون الغابة بسرعةٍ مألولة في طريق مستوى منحدر فاقدٌ للأشواك والمنحنيات، وقليل المخاطر، ظل الطريق مفتوحاً أمامهم يسرعون المسير حتى هدأ حسن من سرعته، وبدأ يسير ببطءٍ مرةً أخرى، فاستغرب قائد الحرس من هذا، لماذا نبطئ سرعتنا؟.

:سنعبر طريق به الكثير من الحواجز والأشواك لا بد من أخذ

الحذر.

:أين حمزة يا حسن؟!.

:يؤمن لنا الطريق، ويحمي ظهرنا، ويكتشف وجهتنا .

تبسم قائد الحرس، أسرع حسن المسير مرةً أخرى، حتى غادروا الغابة وانطلق بهم نحو أقرب حاجز للسلاجقة، هنا يا سيدي مهمتي انتهت، أمامك خمسة أميال حتى تصلوا إلى القصر، فلتصحبكم السلامة، وقام الأمير بتوديعهم، وانطلق الأمير إلى قصر- السلاجقة، وعاد حسن وحمزة إلى المدينة.

تمضي الأيام وتمر وتسير في طريقها لا تعود، مضى- الأسبوع الأول بعد حفل الزفاف، كان حسن جالساً وما زال عقله في شروء، وباله يمضي- في طرق الخيال والأوهام، حتى عيناه حُصرت من كثرة السواد المحيط بها، لا يدرى أسواً هو أم ظلام، كان حمزة يجمع الحطب ويقوم بتقطيعه لاستخدامه في صناعة السهام، وإرسال الباقي إلى المحاربين لصناعته، ولا ينسي طبعا إرسال الحطب إلى زوجة المعلم .

: انتهى الأمر يا صديقي؛ أنت في طريقٍ وهى في طريق .

: أرأيت يا صديقي؛ المال يغير القلوب !.

: ليس كل القلوب يشغلها المال، هناك قلوب عامرةٌ بحبِ الله،

وقلوبٌ لا يشغلها غير الزهاد والعباد، القلوب بيد الرحمن يقبلها كيف

شاء، أنت تتحدث عن فئةٍ قليلةٍ في المجتمع .

: أخرج يا صديقي من خلف تلك العبادة وأعبر تلك الأشواك،

أخرج من هذه الغابة لترى الناس في الخارج ما الذي يُشغلهم ويُريخُ بهم،

الناس الآن يعملون طوال النهار، وهذا من أجل كسب المال، ومن أجل

الحياة، تناسي الناس المقصود الحقيقي من الحياة، أصبح كل ما يشغلهم

الآن المستقبل وحياة كريمة يوفرونها للأبناء .

: وهل هذا عيب يا صديقي أن يعمل الوالد من أجل أبناءه ومن

أجل أن يوفر لهم حياة كريمة يحيونها، وحتى لا يطلبون العون من الغير،

ويمدون أيديهم إلى الناس طلباً للمال .

: وعندما يتقدم شابٌ إلى فتاةٍ يحبها وتجهه كان أهلها له بالمرصاد .

: لا تقارن جميع الناس ببعضهم، فالناسُ أشكالٌ وألوان، فيهم

الطيب وبينهم الخبيث .

:أتعلم يا صديقي بأن أمي ذهبت إلى أم رقية بشأن زواجي بها،
تعجب حمزة مما سمعه من صديقه ومما يدعيه من أقوال: كيف حدث ذلك.
: أتذكر عندما قلت لي دع النساء بعضهم لبعض، ذهبتُ إلى أمي
وأخبرتها بنيتي، فتبسمت أمي وأشرق وجهها وأضاء نورها، وقامت
بإحتضاني وتقبيلي، أخيراً يا بني سأراك عريساً وأداعب أبنائك قبل أن
أتورى في التراب.

: أطال الله عمرك يا أمي، ولا يجرمنا من رؤية وجهك .
: مبارك عليك يا ولدي سأذهب إليها في الغد باكراً إن شاء الله،
وأفتح معها هذا الأمر .

: وماذا حدث بعد ذلك .
ذهبت أمي إلى بيت رقية وتحدثت مع أمها في رغبتني بالزواج من
رقية، قالت أمي عندما عادت؛ لما رأيته يا ولدي كان النور الساطع يخرج
من وجهها، وسروراً أضاف البهجة إلينا.
: وهل نجد خيراً من حسن لخطبة ابنتنا؟، سأحدث مع أبها
وسنجيبك .

: متى يا أمي سنعرف .

: لا تتعجل يا بني الأمر شبه منقضي، أتعلم يا صديقي كيف كان ردهم، زواجها من مسعود، هذا ما يألمني يا حمزة، أنى سبقت لخطبتها، ولقلة نفوذي وأموالي لم يردوا على أمي حتى، لقد وصلت بهم الحقارة أنهم أخسئوا بكلام أمي الأرض، لقد راضوا بمسعود ورفضوني، المال يصنع كل شي ويغير كل شي .

:دعك من هذا يا صديقي وانظر أمامك ودع الماضي خلف ظهرك، فالقتيل لا يألم للطعنات ولا يمكن إحيائه، " صدقت"، وتركه وغادر إلى المنزل يحمل آلمه وجراحه، وكان الغروب قد حل بالمدينة والليل قد أتى بسواده، وأضاء القمر المدينة، وأشعلت المصابيح في جميع نواحي المدينة .
ووصل إلى البيت وصعد إلى السطح ينظر إلى القمر ويجوز بخياله معركة حاسمة تُنهى الصراع الذي يدور بداخله، لقد أتخذ القرار الأصعب، سيرحل بحثاً عن الثراء، ولكن عقله توقف وخرج أمامه قرينه يخاطبه ' ولكن إلى أين سترحل .

: صدقت إلى أين سأرحل، البلاد كثيرة وسأكون فيها غريباً، أي البلاد ستحتويني وتُدهب عني غربتي وتُشعُرني بذاتي، وأجلب من ورائها الخيرات الوفيرة والأموال الكثيرة؟! .

: وأيُّ البلاد بتلك الأوصاف؟! .

: البلاد كثيرة، ولكن كيف سأرحل إليها ومن أيُّ الطرق أمضي-

ومن يدلني عليها؟ .

: هل جربت خوض تلك المغامرة من قبل بما فيها من مخاطر

وصعوبات؟ .

: ها، مخاطر وصعوبات ؟ .

: أو تظن نفسك ذاهباً من بيتك إلى النزهة في الغابة؛ لن يقابلك ما

يعتريك في طريقك، ربما يسلب منك روحك وما معك من أموال، وربما

سلب حرّيتك وأصبحت عبداً بعد أن كنت سيداً .

: معك حق ولكن من هذه الناحية لا تقلق، لا يستطيع أحدٌ

مبارزتي، ولن يستطيع أحدٌ أن يغلبني إذا التقى السيفان .

: الأمر ليس كما تظن، فلصوص الطرق ماهرون في فن

الاختطاف، والكثرة تُغلبُ الشُّجعان وتهلكُ الأبطال، عليك قبل أن تقرر

الرحيل أن تعد الزاد، وأختار الصحبة والطريق، وأختار الأرض الخصبة

التي ستجني من ورائها الأموال .

ما رأيك بالشام؟، بها الخيرات وفيها الجند الهمام والأمن والأمان،
وبها أكثر التجار.

: الشام! نعم الرأي ما تقول، استعد لها إذاً، وأبحث عن من
يأخذك إلى هناك وأحذر من اللصوص، لا بد أن تكون على معرفة تامة بمن
تذهب معهم حتى لا يغدروا بك ويبيعونك في الأسواق.

: انظر في هذا الأمر، ورحل القمر وأرتقى الصباح، وشقت
الشمس طريقها في السماء، وأشرقت الأرض بنور ربهها.

مر يوم اثنان ثلاثة أيام، والرفيق غائب لا يعرف له طريق؛ ولا
يرى له أثر، كأن الأرض قد انشقت فابتلعتة، يبحث عن صديقه الغائب
الذي لم يتعود على فراقه كل هذه الأوقات، بحث عنه في كل مكان، في
البيت؛ وفي المعسكر؛ وفي البقعة، في كل الأنحاء، لا يعلم ماذا حدث، أمه
وأباه في القلق نائمون، والأحزان ماكثون، ووصل الحال إلى اليأس
والإحباط، ومر اليوم السابع على اختفائه، حتى ظهر بشكلٍ جديد، متغير
الحال، متنكر الأوصاف، عليه هيئة الغرباء، يرتدى ثياب جديدة لا
يعرفونها، بل أنكرها حمزة في الحال، لقد ارتدى ثوب الرحلاء؛ ثوب
الأعراب، وما هذا الذي يحمله على كتفيه، ما هذا يا حسن.

: ماذا يا حمزة .

: أراك متغيراً يا صديقي، ما الذي حل بك؟

: لا شي حدث.

كان حسن بجوار فرسه وعلى الحصان مخلتان، وأما حسن فقد كان مرتدي السواد؛ قميصٌ طويل وبه أكمامٌ وبه أزرار، وطوله يصل إلى بعد الركبة بكثير، وبه فتحةٌ طويلةٌ من الأجناب، تبدأ من عند فخذهِ إلى المنتهى من القميص، ويرتدي سروالاً أسوداً ومعه سيفه والرمح والدرع وخنجرٌ وزادٌ، طعامٌ وشراب، ولأول مرة منذ زمن مرتدياً عمامة على أربع طبقات، تحيط بكامل رأسه من كل اتجاه، ويصل طولها أن مررها بعنقه من عند النحر إلى فوق الرأس .

: ما الذي يجول ببالك يا حسن، أيُّ الأفكار قد خطرت بعقلك؟

: لقد اتخذت قراري بالرحيل عن هذه البلاد .

: سترحل ؟ .

: نعم سأرحل إلى بلاد الله الواسعة، حيث كثرة الخيرات ووفرة

الأموال.

: ألاتجد المال هنا، وما حاجتك إلى الترحال من دوني، أتلك هي
العهود التي اتخذناها سوياً وأقسمنا على البر بها.

: المال يا صديقي يصنع كل شي .

: تباللهمال الذي يُفِرِّقُ الأحباب، لقد رحل المعلم ووعدي بالعودة

ولم أراه حتى الآن، وأنت أيضاً تريد الرحيل ومفارقتي من أجل المال .

: سأعود يا صديقي في يوم من الأيام، أعدك بذلك، واعتلى

حصانه وهم بالرحيل ثم نزل وقبل صديقه وقام باحتضانه وبكوا بكاء

الأطفال، ثم خاطبه حمزة متحدثاً إن كنت قد هممت بالرحيل فلتحفظ

العهد، ورحل ونسي أن يسأله إلى أي البلاد راحل، وأين سيكون اللقاء؟ .

همس حمزة لنفسه؛

رحل صديقي ورحل معلمي ولم يبقي غيري، تركوني وحيداً في

الغابة، هل يا ترى من سيعود أولاً؟، أو أنني سألحق بهم إلى البلاد البعيدة،

حيث الاغتراب وترك الأهل والأحباب، أمانى وأحلام أصبحت تدور في

أعمالي وتذعن لجبروت الحياة، ما الذي يحدث من حولي، "أنخدع بالحياة

أم هروب من الواقع الأليم"، كلها مبررات لا تصلح أن تكون سبباً من

أسباب الارتحال، تمر الأيام تحمل في طياتها كل موعود، وتحمل بين ثناياها

كل مرموق، "مقبولٌ أو مرفوض"، التمس راحتي في الغابة بين أوراق
معلمي وسيف صديقي، وفي بقعتي أجد الهدوء والدواء والطمأنينة على
كل حال، تلك البقعة المباركة التي تحمل بداخلها الذكريات.

كان الغضب قد ارتقى وبلغ ذروته، وحمزة جالسٌ بين أوراق
الشجر ينظر إلى السماء وعيناه قد زارها الاحمرار، فقام من مقامه وأخذ
قوسه والسهم، وأخرج السهم من الكنانة وصوب باتجاه دائرة نُحِتَتْ في
قلبِ الشجرة، فخرج السهم منطلقاً نحو هدفه، وقبل أن يخرج السهم من
القوس أقرب من الرجل وتمتت في أذنه ببعض الكلمات ثم نظر إلى الأمير
وقال له (^ ^ استمتع بقدر الله ^ ^) .

وجذب السهم ورماه في اتجاه الرجل، وكان الرجل يتمتم
بالشهادة وجسده يرتعش ضاغطاً على عينيه كأنه قد أصابه العمى في تلك
اللحظة، وسقط الرجل على الأرض، وهروا الحضور نحو الرجل،
وتسمر حمزة مكانه فاتحاً فاه واضعاً يده على رأسه، عندما وصل الناس عند
الرجل وجدوه ملقياً على الأرض والسهم في قلب التفاحة مخترقاً الشجرة،
قام الرجل وحمد الله وسجد لله شكراً على بقاءه حياً، وأجلسه الأمير
بجواره يطعمه ويسقيه بعض الماء، ألم أقل لك يا رجل أنه ماهر، وَصَّ حِكْ

ضحكةً أسمعت الحاضرين، فتبسم القائد عثمان وقال للأمير أضحكك الله سنك يا سيدي "هلا أخبرتنا ما الذي يضحكك، فنضحك لضحك"، فنظر إلى حمزة وقال أضحكك على ما ألقاه حمزة من ضروب الذكاء .

: هذا من كرمك يا سيدي، فتبسم الأمير وغمز لي بعينه ووجهه حديثه نحو حسن : هلا متعتنا بقدر الله مثل حمزة يا حسن .

: كما تحب يا مولاي .

وجلس حمزة بجوار الأمير ووجه الأمير إليه الكلام : أخبرني كيف أصبت التفاحة بدون أن تسقط الرجل ؟ .

: استعنت بالله يا مولاي ورميت السهم فأصبت الهدف .

: نعم أعلم، ذلك ولكن أحكى لي ما حدث مع الرجل وماذا قلت له عندما همست في أذنيه .

: كنت أثبتته بآيات القرآن حتى لا يهتز .

ضحك الأمير وقهقهه عالياً، أتظن بأن تلك الحيلة ستمر على دون أن افهمها؟!، أنت سحرت أعين الناس وتمكنت من قلوبهم ولكن أنا لا، أحكى لي بالتفصيل ما حدث .

: إذا يضيع سر المهنة يا سيدي .

: أريد أن أفهمها يا حمزة، لقد أخبرني الرجل بما دار بينكم من

حديث .

: تغير وجه حمزة والتفت إلى الأمير، إن كان الرجل قد أخبرك بما

دار بيننا من حديث، فما حاجتي إذاً إلى الكلام، فكلامي لن ينفع بشي .

: يا لك من ماكر!، أتبخل على بمعرفة ما حدث؟ .

: لا أستطيع أن أبخل عليك بشيء، سأحكي لك، كانت يدي

ترتعش ورأيت الرجل مهزوزٌ مرعوبٌ، فخِفتُ أن اخطأ السهم وأصيبه،

فهمست في أذنه بالصبر والثبات، وأخبرته عندما يري السهم مقبل يترك

جسده ويسقط على الأرض ويتصنع الإغماء ويتظاهر بالموت .

: جميل يا حمزة حيلةٌ ذكيةٌ هذا بشأن الرجل، فكيف أصبت

التفاحة، والرجل قد سقط قبل أن يصل السهم بكثير .

: ضحك حمزة، السر يا سيدي في الشجرة .

: كيف ذلك وانتبه الأمير وأعتدل في جلسته .

: أنا من نحت الشجرة ،

: ظهر على وجه الأمير علامات الاستعجاب، كيف ذلك
والشجرة سليمة!! .

: الشجرة سليمة للناظر إليها من بعيد، عندما تقترب منها
وتلامسها، ستجد النحت في كل جزء من أجزائها، والمخابئ المتعددة.
ولكن لماذا تصنع هذا بالشجر .

: حتى إذا غزانا غازي استطاعنا أخذ السلاح والقتال به .
: إذا هذه مخازن للسلاح أيضاً، أنت أمرت الرجل أن يضع التفاحة
داخل إحدى النحوت .

: نعم يا سيدي والتفت القائد ناحية حسن وظل يشاهد المبارزة،
وعينه في مكان وعقله في مكان .

عندما قرر الرحيل كان يجب عليه أن يخبرني، لا أن يفاجئني ويقدم
اعتذارته ويلتمس مني السماح، عندما أختار الطريق كان يجب عليه أن
يدعني كي أشاركه هذا الأمر كباقي الأيام، لماذا أنفرد به دوني؟، لأنه يعلم
رأيي جيداً، لذلك أخفى عني أمره .

عندما تعود يا صديقي اقسم لك بأني لن أعاتبك أبداً!!، ولكن
عد أرجوك فأنا بحاجة إليك، أنا مشتاق إليك، عدي يا صديقي فأنا حيران،
وعقلي تائه في الظلمات .

اقترب الغروب وبدأ الظلام يحل محل النهار، وظهر على البحر
احمرار الشمس وزوالها، كان حمزة جالساً يكتب؛ لقد أبلتُ بلاءً حسناً مع
القائد عثمان في تدريب أهل المدينة على القتال، وظهرت براعتي القتالية
وازدادت ثقتي في نفسي كثيراً، لقد قضيت معظم الوقت مع القائد في
المعسكرات، وفي منزله حتى أنه خطر ببالي أن أعلمه مكان البقعة ولكنني
تراجعت، وأظهر لي المودة والمحبة، وكنت أتى به إلى الغابة كثيراً، وأجلسه
في مقام الشيخ حُبيب، ونتسامر طوال اليوم؛ وأحكى له، ويحكى لي؛
وأخبرته عن بعض المداخل والمخارج بالغابة المطلة على المدينة، من أجل
حمايتها، كان يتفاجئ كثيراً مما أحكيه له .

: لماذا لم تخبرني بهذه الأماكن من قبل يا حمزة؟.

: والله يا سيدي خفت من الخونة أن يعرفوا هذه الأماكن فتكون
معلومة للعدو، لذلك أثيرتها في نفسي، حتى إذا جاء يومٌ نخافُ من وقوعه،
نستطيع تأمين خروج للأهالي.

: صدقت يا حمزة .

لقد زادني القائد خبرة أكثر بكثير مما كنت أتخيلها، فتعليمه إياي فن التخطيط، والترقب، والانتباه، والحس الأمني، ومراقبة العدو، والشعور بالخطر، كل ذلك أضاف إليّ الكثير والكثير من الخبرات اللازمة في إدارة الأمور المستعصية، أثناء عودتي إلى المدينة استقبلني إحدى جنود القائد وأخبرني بضرورة الذهاب إلى القائد فالأمر مهم .

: اذهب وسأتي خلفك .

: أمرك سيدي .

ذهب الجندي وذهبت خلفه إلى القائد.

: خير يا سيدي ماذا حدث، لقد أخبرني الجندي بأنك تريدني في

أمر ضروري.

: نعم الأمر ضروري، لقد وصلت رسالة من القصر الآن.

: خير يا سيدي .

: الأمير مراد الدين يستدعيك للحضور إلى القصر حالاً.

: الأمير مراد الدين يستدعيني إلى القصر؟! .

: حالاً في أزيق، جهز نفسك للرحيل حالاً.

: أمرُك يا سيدي، سأُتجهز في الحال .

انطلقت نحو المنزل أتجهز للرحلة العاجلة، دخلت المنزل وألقيت السلام وقبلت يد أمي وأخبرت بها برحلتى نحو أزيق واستدعاء الأمير لي .

: رضي الله عنك يا بني، وسهل لك أمرُك، وأنار طريقك، وأضاء

لك الأرض، وأستخدمك في طريق الصالحين .

: جزاك الله خيراً يا أمي، أإذني لي بالانصراف .

: طريق السلامة .

ما أجمل أن تبدأ طريقك بدعوات أمك لك فحينها ستري النور ينبع من كل الطرق، وتتخطي كل المصاعب، وسيكون الله معك في كل طريق، رضاء الوالدين يفتح لك أبواب الرضاء، أهمها رضي الله عنك، وأغلق الأوراق وأكتفي .

انطلق الحصان مغرداً يطير بجناحيه نحو أزيق، يخترق الغابة بصديقه، منطلقاً نحو القصر على حصان بني داكن اللون، ينطلق مسرعاً يقوده ممسكاً بلجامه، يعبر الحدود والسدود، لا يخشى على حاله، كأنه تحدث لسيده معلناً تعاونه معه من أجل الوصول في أسرع وقت .

يا بديع الكون أن لنا بجمال الكون، والغابات تخرج من بينها الجنان، وتظهر الحور وكأنك ترى الملائكة الحراس، يمينها أشجارٌ متتابعةٌ متلاحقةٌ مرصوفةٌ الصفوف، كأنها تسير معاك في طريقك، وفسحة من المكان لا يري آخرها، وعن اليسار تشاهد الزهور والبساتين والحدائق من صنع الله، ليس للبشر لها عنوان، ظل يغرد بحصانه ويستريح من عناء الطريق، ويريح حصانه ليطعمه، ويأكل لقمة يشتد بها عضده، يحل ميعاد الصلاة ينزل من على فرسه، "يصلي المكتوبة"، ثم ينطلق نحو هدفه لا ينظر خلفه، كأنه كتب على نفسه نحو الماضي، وتذكر كلمات شيخه: "إذا سيرت في طريقك فلا تلتفت إلى الوراء مهما كان النداء، وليكن همك الوصول، فمع كل التفاتٍ للخلف ماضي وحينٍ يصعبُ الطريق.

ما أدراك ما الليل إذا أنسدل بأستاره، فتلمع النجوم في السماء بديع الإله، والقمر في فلكه ينير الكون (كلُّ في فلكٍ يسبحون) سبحان الخالق لم يترك مجال للبشر فيه شك، استراح حمزة ونصب خيمةً تحت إحدى الأشجار العملاقة متخذاً من فروعها سكناً مؤقتاً حتى بزوغ الشمس .

وأشرقت الأرض بإذن ربها وذهب الظلام، قريباً سيبرزُ فجرنا وتخرج الأجيال مشرقةً، انطلق حمزة بحصانه وقد أقرب كثيراً من أزيق،

المسافة من خونيا لأزنيق يومان مع حصان سريع، وهذا ما حدث مع حمزة وحصانه العربي الأصيل الذي أعده من أجل تلك الرحلة، غربت الشمس أثناء الطريق وحل الليل وما زال حمزة مستمراً في طريقه، لا يرهبه ظلام الليل ولا قطاع الطرق ولا مخافة الظلم .

عندما وصل حمزة إلى أزنيق كان الليل قد أظهر سواده بقوة، والمدينة في أبهى زينتها كأنها تتزين منتظرةً قُدمه، وأثناء سيره داخل المدينة متحدثاً مع نفسه، "يا الله على الجمال، أهذه أزنيق بالليل لؤلؤةً وياقوت، فكيف حالها بالنهار!!"، الأضواء تنير المدينة من كل جوانبها، إذاً هذه مدينة البلاط والفخار، أسرع حمزة نحو قصر- الأمير مراد الدين، أمام القصر حارسان برماحٍ طويلة، نزل حمزة من على الحصان وربطه في الإسطبل وذهب نحو الحارس.

:لقد استدعاني حضرة الأمير مراد الدين، قل له حمزة قد وصل.

:انتظر هنا سيدي حتى أتيك .

دخل الحارس القصر- وحمزة في الخارج ينظر إلى القصر- الذي خطف منه بصره، حتى أنه في نفسه يحدثها، "إذا كان ذلك القصر- الصغير

هو إحدى قصور الوزير؟، فكيف بقصر السلطان!"، تلك أول مرة أري فيها قصرٌ في حياتي، حتى أنني عجزت عن وصفه بالتمام لقد رأيت أشياء لا يستطيع عقلي معرفتها بعد.

: سيدي حمزة تفضل، الأمير بانتظارك بالداخل .

سار الحارس معه إلى الداخل، وما أن وصل إلى مجلس الأمير حتى ألقى السلام فقام الأمير من مجلسه ورد السلام وقام باحتضانه، أو يا حمزة؛ أخيراً تقابلنا من جديد؛ لم أتخيل قدومك بهذه السرعة، كالعادة تبهرني بقدراتك، أجلس هنا بجواري .

: لا بد وأن نلبي الأمر في الحال يا سيدي .

: عظيم، كيف حالك وحال أهل المدينة، وحال حسن .

: الحمد لله كلهم بخير، حسن أرتحل منذ شهر ولا أعرف عنه أيُّ

شيء حتى الآن .

: خيراً إن شاء الله لا تقلق عليه .

: ما هو الأمر المهم الذي استدعيتني من أجله سيدي .

: غداً إن شاء الله سأخبرك، اذهب الآن لترتاح من عناء السفر

وغداً نتحدث .

: أمرك سيدي .

وأرسله إلى دار الضيافة .

لم يكن الليل جميلاً كالعادة فقد راحت عيني في سبات عميق، ولم أشعر بحالي غير والفجر قد حان والأذان يعلو بالتكبير، ضاع القيام، ارهقني المشوار، دار الضيافة في أزنيق، تشبه كثيراً البيوت في مدينة خونيا؛ بيت مبني من الحجارة العظيمة من الطوب الأبيض، دور يعلوه دور، والباب عظيم الهيئة كأنه باب قلعة كبير الحجم، من عند المقبض يوجد شبكٌ صغير يتعرف به صاحب الدار على الطارق، كانت الغرفة التي سكنتها عبارة عن غرفة في الدور العلوي؛ يوجد بداخلها سريرٌ مفروش على الأرض، و متكئٌ بجواره للجلوس عليه، وشبابيكٌ عملاقة، وستائر تزين الدار، كان الوزير قد أرسل إليَّ إحدى الحراس لمرافقتي .

: سيدي، الأمير مراد الدين بانتظارك بعد الصلاة، وقد أرسلني

لمرافقتك .

: جزاك الله خيراً، أنا جاهز سنحضر الصلاة مع الأمير، وبعد أن

فرغنا من الصلاة جلست في مكاني منتظراً حتى ذهب الحارس إلى الأمير وهمس في أذنه، وكان الأمير منشغل بسمع حجرات الناس، فلما فرغ وهمم

بالرحيل جاء إليَّ الحارس وأخبرني بانتظار الأمير في القصر، وذهبت خلفه إلى باب القصر، وسلمت السيف والقوس؛ ودخلت إلى حضرة الأمير، وألقيت السلام وأجلستني في مجلسه؛ وقربني إليه، وكان ينصت بشدة إلى جميع الحاضرين، كان لا يتحدث حتى ينتهي المتحدثُ ويفرغ من كلامه، ظللنا هكذا حتى الظهر، وقد أرهقني التعب، لأول مرة أشعر بالتعب من الجلوس، مع أن يومي يكون أشق من هذا، صلينا الظهر وأنفردت بالأمير في مجلسٍ غير مجلس الأمراء؛ وبادرت بالحديث " سيدي لقد طلبت قدومي إليك في الحال وحتى الآن لم تخبرني ما الذي تريده مني .

: الآن أخبرك يا حمزة، انظر يا بني؛ المهمة التي أريدها منك

خطيرة؛ وسرية، لن يعرفها غيرك أنت والحراس الذين معك .

: لقد اقلقتني يا سيدي، ما هي طبيعة تلك المهمة .

: سوف تذهب إلى بغداد .

: وماذا سأصنع ببغداد يا سيدي .

وبعد فترة صمت : سوف تجلب فتيات القصر؛ بنات الأمراء من

القصر العباسي، وسكت لبرهة؛ : وعلى رأسهم ابنتي "

وضع يده على عمامته التي تتوسطها الخوذة، واتسعت عيناه وشُدَّ لسانه ولم يدرى ماذا يقول. " ولكن يا سيدي هذا ليس بالسهل ولا الميسور، أنا لست أهلاً لتلك المهمة.

:وأنتفض قائماً واتسعت عيناه غضباً، وبلهجة حادة تحدث قائلاً؛

كيف تقول هذا يا حمزة؛ لقد اخترتُك بعناية فائقة من بين الكثير من الفرسان لتقوم بتلك المهمة، لو أنى اعلم أنك لا تستطيع إنفاذها ما رشحتك أمام الأمراء، هذه مهمةٌ سريةٌ وخطيرة، ووجب عليك تنفيذها .
:اعتذر إليك يا سيدي؛ لكن، هذه ليست غارة على بلاد الروم،

وليست سارية خارجة لتأديب المتمردين، أننا ذاهبون إلى بغداد؛ إلى قصر-
الخلافة لاحتضار فتيات القصر- السلجوقي، وعلى رأسهم أبنتك، أول مهمة لي عند السلاجقة تكون أصعب مهمة .

: اعلم أنها مهمةٌ صعبةٌ وخطيرة، ولقد علمتُ بخبرتك في الطرق، واجتياز المخاطر، وإطلاع نفوذك بالغابات، كل ذلك كان من أسباب اختياري لك.

: سيدي أنت تتحدث عن غابات خونيا وبحر إيجية، ولا نتحدث
عن غابات الشام ولا صحراء الأنبار الجرداء، أنا لا أعرف تلك المسالك
ولا هذه الطرق.

: لا تقلق جنودي سيعلمونك بالطريق، ولكن وجودك معهم مهم
جداً، اعلم ذلك جيداً.

: أمرك يا سيدي، كان الله معنا في هذه الرحلة.

: اذهب أنت وأسترح الآن، وبالليل ستتعرف عن المصاحبين لك
في هذه المهمة، إنهم من أشد وأقوى الفرسان، تعتمد هذه المهمة على السرية
التامة؛ فهمت يا حمزة.

: نعم يا سيدي فهمت جيداً.

غادر من عند الأمير يحدث نفسه في الطرقات، ما الذي حل بي،
سوف اذهب إلى بغداد، أول مهمة لي خارج الأناضول، ما الذي يحدث،
كيف خطرت تلك الفكرة برأس الأمير، إنها مهلكتي، أظن أنها النهاية قبل
البداية.

يقول لي اذهب وأسترح ونتقابل بالليل، كيف أسترح وقد أسقاني
من الحميم، كيف أنام وعقلي في التيه، وذهني شرده الأمير، من أين تأتيتني

الخبرة بطرق الشام وبغداد، نعم كانت لي بعض الزيارات هناك مع أبي أثناء خروجه إلى التجارة، ولكن ذلك لا يعطيني الحق في اختراق صحرائهم، قلت أبي والتجارة وخروجه معه وسلوكه بعض الطرق السرية، آه يا أبي قد أتى ذكرك في الوقت المناسب، كيف نسيت ذلك الأمر، الخروج مع أبي في التجارة، والطرق السرية من الأناضول إلى الشام.

وقهقه بصوت عالي رجَّ أنحاء الغرفة، وقام يقفز في الغرفة كالمجنون يا الله؛ لك الحمد على نعمك التي لا تحصى، ما خضت في أمرٍ إلا وكنت يارب لي عوناً، دلني على الطريق ولا تجعلني مع الظالمين ولا الضالين، آمين .

وذهب إلى النوم كي يستريح، فغداً يومٌ شاقٌ وطويل .
وفتح كتابه يكمل ما بدأه وكتب وجاء الليل وجاءت معه العتمةُ، وكما كان المتفق عليه، في غيابات الليل نطلق متخفين، نجتمع في الظلام حتى نكون في مرئٍ عن سهام المتربصين، وانطلقت كما وضح لي الوزير بين الحارات الضيقة، والبيوت المترامية المتراصصة، وبين الخانات كأشباح ليلٍ تنطلق في الخفاء، إلى أن وصلت إلى منزلٍ قديمٍ البناء يُرى كأنه مهجور، لا يسكنه الساكنين، وقرأتُ بعض الآيات، من كتاب الله، "المعوذتين، وآيةُ

الكرسي"، لعل الله يُنزلُ على قلبي الطمأنينة، خمسُ دقائق على الباب كما هو متفقٌ عليه، نظر رجلٌ من عينٍ سحريةٍ توجد بالباب بجوار اليد التي يمسك بها الزائر، والتفت إلى الوزير إنه حمزة يا سيدي .

: أدخله في الحال .

:السلام عليك أيها الأمير .

: و عليك السلام، جئت في معادك كما اتفقنا .

: الحمد لله، لماذا كل هذا العناء يا سيدي، لماذا لم نتقابل بالقصر .

: قلت لك الأمر خطير ويستحسن أن نجتمع هنا، أَعْرِفُكَ برفقك

في هذه الرحلة، موشتكين؛ جودوالب؛ شهاب الدين الموصللي، ومعكم خمسون فارس ستعرفهم أثناء الرحلة، ينتظرونكم في الخارج بعد ازنيق بعشرة أميال، في الصباح ستخرجون متفرقين حتى لا تُلفتوا الانتباه واحذروا من متبعي الآثار، فهناك خونة لم نصل إليهم حتى الآن، فليكن الله معكم ولتكونوا في معيته وحفظه، توكلوا على الله، وخذوا حذرکم .

وانطلقوا متخفيين كلٍ إلى مسكنه، على أن يلتقوا في الصباح .

ستبدأ المسيرةُ بعد بزوغ الفجر .

عند الشفق كان الحصانُ قد تجهز للانطلاق، لم يستغرق سوي
بضع لحظات حتى أصبح خارج أسوار المدينة، منطلقاً بحريةٍ يشعر بها
ويحيي في سبيلها، أمسك حمزة بلجام الحصان وانطلق يعدو مسرعاً، فبالطبع
لقد حذرهم الأميرُ أمسٍ من الجواسيس والمتربصين، على بُعد عشرة أميال
من أزيق يكون الملتقى، ووقف حمزة بضع لحظاتٍ ينظر في أمر الصباح
الذي غدق يظهر في الآفاق، وتحدث مخاطباً حصانه، أيها الحصان أغدو
بسم الله وعلى ملة رسول الله نحو بغداد، كأن الحصان قد فهم ما قاله
صاحبه، فانطلق حتى ظن نفسه البراق الذي انطلق به المصطفي من مكة
إلى القدس، وفي الطريق خرج الشيخُ حُبيبُ أمام حمزة بملابسه التي
أعتادى أن يراه بها، كأنه في حلةٍ من ذهبٍ يتزين بها، وذهب مسرعاً إلى
الشيخ مقبلاً يده .

:مهلاً أيها الفارس فالطريق أمامك طويل .

:معلمي؛ لقد اشتقت إليك كثيراً، ألن تعود .

: لا تتعجل فإن لكل وقتٍ أذانه .

: صدقت يا سيدي، أدامك الله ظلاً لحياتي .

: لا تتعجل فأنت ما زالت على عتبة حياتك، كن حذراً واعلم أن

الدنيا لا راحة فيها، لذلك قال الله ولقد خلقنا الإنسان في كبد

وثانيها؛ أنه لا حيلة في الرزق؛ ولا شفاعة في الموت، كن على ثقة

بمعوذ الله، وأحسن الظن بمولائك، تنل الخير وتنل ما تتمناه، فتبسم حمزة

وآفاق من حلمه وأكمل طريقه، حتى الحصان مازال يعدو حتى الآن ولم

يصل

بين الأشجار الكبيرة؛ وتحت ظل إحدى الأشجار العملاقة،

مجموعة كبيرة من الجنود والفرسان، يحمل كل جندي منهم سيف طويل

من السيوف الفارسية، وصحيفة يمانية (خنجر) ذات السن الحاد، ويتزين

بالملبس الازرق السماوي، وعليه سترة من الدروع فوق الصدر إلى ما بعد

السرة، وعمامة طويلة تُحيطُ بالخوذة المصنوعة من جلد الماعز، وترس

يترس به من العدو، "مصنوع من جلد الخرفان"، وبينما هم كذلك

يتسامرون دخل عليهم فارس؛ فألقى السلام " فعرفه بعض الحاضرين

وأجابوه برد السلام، ثم أردف قائلاً تفضل سيدي حمزة .

: أطال الله عمرك أخي، جلس حمزة بجوار الموصلي شهاب الدين

وأخذ الحديث يتطرق بينهم عن سبل الوصول إلى بغداد والعودة سالمين،

"خصوصاً فتيات القصر- السلجوقي"، ووقف حمزة مُحاطِباً في الجنود. سُنْعسِكِرُ الليلةَ هنا، وأرسل بعضُ الجنود لجلب الخطب، وأرسل الآخرين لتأمين المكان، وأرسل البعض لاكتشاف الجواسيس والمتربصين المحيطين بالمكان، وتبصرة الأخطار وتحذير الجيش من الكمائن والفضاخ، وعسكرت الفرقة الصغيرة لتستريح الخيول؛ ويستريح الجنود؛ لتحمل مشاققة وعناء الطريق الطويل، وناوب الجنود فيما بينهم وقال أميرهم صدق النبي إذا يقول عينان لا تمسهم النار عينٌ بكت من خشية الله، وعينٌ باتت تحرس في سبيل الله) لا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم.

مع اشراقه شمس اليوم الجديد، انطلق الفرسان مجتمعين نحو دمشق عاصمة بني أمية الراحلين، التاركين خلفهم حضارةً عريقةً شاهدةً على وجودهم، من الأناضول إلى دمشق، "مسيرة ثلاث أيام"، وفي دمشق كان رسول السلطان عز الدين قلع أرسلان الثاني؛ سلطان سلاجقة الروم، قد سبق الفرسان ووصل إلى دمشق، وخرج السلطان الأفضل الأيوبي بن الناصر صلاح الدين الأيوبي في استقبال الوفد القادم من الأناضول من البيت السلجوقي، ورحب بهم؛ وأكرم منزلتهم؛ واستضافهم في القصر- الملكي، ولم تطل مدتهم في دمشق، ولم يرغبوا في البقاء طويلاً بها، بالرغم

من سحرها الذي يفتن القلوب "ومنارتها" أعجوبة كل زمان، إلا أن حمزة ورفاقه كانوا في عجلة من أمرهم، حيث أن المدينة لا تصلح أن تسكن أيام المهات، بل لزم من أجلها رحلة خاصة، وأجازةً لبضع أيام، حينها تحلوا الحياة بدمشق، وأكمل الفرسان رحلتهم نحو بغداد عاصمة العباسيين، ومدينة المنصور، حاضرة بني العباس، والتي انطلقت منها الجيوش نحو بيزنطة لمقاتلة الصليبيين، ونزل حمزة بدار الخلافة، واستقبلهم نائب السلطان السلجوقي طغرل الثالث سلطان السلاجقة ببغداد، وجلس في مجلس الأمراء، وقبل يد وزير السلطان، وأنزله الوزير منزله، وأكرمه، وأعطاه لحسن حديثه وخطبته التي ألقاها بين يديه نيابة عن سلطان الروم عز الدين قلع ارسلان، لم يستطع حمزة مقابلة السلطان طغرل بك السلجوقي، ولا الخليفة العباسي، ولكنه انتظر بمن معه في دار الخلافة، بعد أسبوعٍ، أرسلت إليه الأميرة أطمياراة ابنت الأمير مراد السلجوقي، وأخبرته بجهازيتها ومن معها من فتيات القصر للرحيل إلى أزيق، ودعن صاحباتهن رفقاء القصر الآتي أتين من كل مكان ليتشرف أبائهم بتربية بناتهم في قصر الخلافة وتحت رعاية الخليفة، وودعتهم حينئذٍ زوجة الخليفة وبناتها وابنة السلطان طغرل بك، وحضر حفل التوديع كثيرٌ من الأمراء،

وشهده السلطان ووزيره، والخليفة ووزرائه، وكانت الفتيات قد تزين
ولبسن الحرير والفساتين الفضفاضة الطويلة، واعتلت رؤوسهم التيجان،
وخط وجوههم الجمال، وتخمرن بالحجاب، ورسمت الفساتين جمألهن
وحسنُ هياتهن، وودعهن الأمراء، وأحاط العسكر بالقصر من كل مكان،
وجهاز حمزة الراحلة العظيمة التي ستحمل بداخلها اثنا عشر أميرة، وأثناء
التوديع؛ كان حمزة واقفاً في انتظار الأميرات، وفي الخارج ينتظر الجنود
محاطين بالقافلة التي ستنتقل بعد قليل من بغداد إلى حلب، لتعسكر بها
قليلاً؛ ثم يكملون طريقهم نحو أزنيق، كان حمزة ينظر إلى الفتيات وعقله
قد سلبَ قهراً من كثرة التفكير بشأن تلك المهمة وحماية الأميرات، وكيفية
العودة بهن سالماتٍ إلى أزنيق، تلك المهمة كأنها جبلٌ أرتخى يوشك أن
يقطعه أحد المارين، وانتهى الحفل؛ وكرم السلطان والخليفة الأميرات،
وسار حمزة أمامهم، وانطلق الوفد من بغداد محملاً بالهدايا النفيسة،
والعطايا الكثيرة نحو أزنيق، حتي مرو بحلب، نزلت الأميرات بقصر-
الناصر صلاح الدين ونزل الفرسان بدار الضيافة، وقام السلطان الأفضل
بتزويد القافلة بكل ما تحتاجه من طعامٍ وشراب، وأمر بعشرين فارس
بالانطلاق مع القافلة لحماية الأميرات، فما كان من حمزة إلا شُكر السلطان

الأفضل نيابة عن السلطان قلعج، ونزلت الأميرات بحلب أسبوعاً في
حضرة زوجة السلطان الأفضل، يتسامرون ويتحدثون وحمزة والفرسان
يتجولون بين أسواق حلب وأبراجها وقلاعها، يشاهدون الصناعة المرئية،
والإبداعات الامنتهية، والعمارة الباقية، كأن الله قد هيئ لحلب ملائكة
قاموا على بنيتها، لم يكن هذا الأسبوع بالمريح، فلقد أخذ حمزة الدليل وسار
به بمن معه من الفرسان ليتفقد الطريق ويأمنه من الأخطار، ويعرف أي
الطرق سيسلك؛ وأي المخاطر سيواجه ليستعد لها قبل رحيله من حلب،
وانطلق حمزة والأميرات من حلب في حضرة السلطان، في موكبٍ عظيمٍ
شاهده جمعٌ غفيرٌ من العوام، وغادر حمزة بالأميرات من حلب، سالكاً
الصحراء الجرفاء، والدليل بجواره، والجنود يحيطون بالعربات لحمايتها،
وعلّت راية السلاجقة خفاقة في جو السماء، وفي الطريق؛ وأثناء الاستراحة
وعلى غير العادة أعدت الأميرات بعض الطعام من أجل الفرسان، الأمر
الذي أثار دهشة الفرسان، كيف تصنع الأميرات، الطعام وتعهده من أجل
الفرسان؛ أيتعلمون ذلك في القصر!؟؟، كأن الأمر لا يشغلهم .

تفضل يا حمزة؛ كان صوت الأميرة أطميارة، صوتٌ أحاط بالرقعة كالتي مرو بها، صوتٌ غردَ مثل عصفورٍ انطلق حراً يبيحث عن الطعام، معاذ الله يا سيدي؛ تقومون على خدمتنا بأنفسكم هذا لا يليق بكم .

:إنكم مستعدون للموت من أجل حمايتنا، أنبخل عليكم بإعداد الطعام، تفضل يا حمزة الطعام وقم بتوزيعه على الفرسان، نراهم قد أرهقهم الطريق، وهم بحاجةٍ إلى لقمة تسد جوعهم .

: ولكن يا سيدي هذا عملنا حمايتكم .

: وهذا عمل الأميرات مساعدة الفرسان .

: لا استطيع الرد على أميرةٍ تعلمت الكلام في بيت الخلفاء، تبسمت الأميرة وأدارت وجهها عنه، ولكن ما زالت تلك البسمة ترسم وجهها، وتزين خدودها، وتظهر العبق الجميل الذي بداخلها، أميرةٌ ولكنها تهزم العظماء بجهاها وحسن حديثها الذي أخذته وتعلمته في حضرة العلماء والخلفاء .

أما حمزة ما زال صوتها يرن في أذناه، لقد اذهب عنه السمع، وقتل بداخله كل الأصوات، ولم تعد نفسه تسمع غير صوتها، وبدون أيِّ مقدمات، خاطب نفسه وأعادها إلى الصواب، لا تخرج عن الطريق، ولا

تلتفت إلى الأميرات، وإياك والنظر إلى ما بداخل القصر - حتى لا تفقد روحك الغالية، وحتى لا تفقد نفسك إذا تطلعت إلى غير مستواك، هذه فتاة القصر المدللة، بنت أبيها الوحيدة، ولن يلقها إلى شابٍ مثلك، لقد أعدها ورباها جيداً حتى تصلح أميرة، زوجة أمير أو سلطان .

: عندك حق وأستلق على ظهره ورأح في سباتٍ عميق .

وعاد حمزة بالأميرات إلى أزيق، وطلب من الوزير مراد الدين أجازة ليُريح أعصابه من التوتر الذي أصابه في هذا الشهر المليئ بالأحداث والمستجدات والشخصيات والأمرء والسلاطين الذين لم يتخيل في يومٍ من الأيام أن يلتقى بهم ويجلس في مجالسهم .

بعد أسبوع من عودة الأميرات إلى القصر، دخل حمزة على الوزير مراد الدين وألقى السلام، "وكان واضعاً يده اليميني على موضع قلبه"، تلك العادة التي ورثها السلاجقة من أجدادهم .

: وعليك السلام وصنع مثله، تفضل يا حمزة .

: سلمت يا سيدي، كنت أريدُ التحدث إليك سيدي في أمرٍ

خاص .

نظر الوزيرُ إلى حمزة؛ وأردف قائلاً: انتظرني هناك في مجلس الضيوف، وبعد مرور بعض الوقت، وطال غياب الوزير بمقدار من صلي ركعتين بالبقرة، عاد الوزير إلى حمزة وأجلسه بجواره؛ وبدأ حديثه بالفور " كم كنت اتمنى وجود حسن معك في هذه الرحلة .

: أقدارٌ كُتِبَتْ علينا سيدي، ووجب علينا التهيئُ لها والوقوع فيها

: الحمد لله يا حمزة على كل حال، ونعوذ بالله من حال أهل النار،

لقد أستدعيْتُك لأمرٍ جليل، وقد نفذتَ المطلوب وأحسن، وجئت من بلادك مُطيعاً أمر السلطان، خادماً له، وذهبت إلى الشرقِ حاملاً على عاتقك مهمةً ثقيلةً، وهي جلبُ الأميرات من بغداد؛ وقد فعلتها على أحسن وجه، واستحسن السلطان ما فعلت، وقد حُكي له ما صنعت في الطريق من أجل راحة الأميراتِ وأمنهم، وقد أبذل لك العطاء الوفير، وقد أمرني بذلك، ويسعدني يا حمزة أن اصطحبُكَ في المساء إلى قصر- السلطان للجلوس بين يديه، فالسلطان مشتاقٌ لرؤياك، وبعدها إن شاء الله ترحل إلى بلادك في أجازة قصيرة، ترى فيها الأهل والأحباب وتعود لتكمل ما بدأت.

: هذا يا سيدي عظيمُ الجزاءِ منكم ومن جلاله السلطان، أنا لا
استحق كل هذا، ما فعلت إلا المطلوب مني، وكان دعائكم حاضراً معي في
طريقي، وعقولكم كانت تقودني نحو الأمان.

: بارك الله فيك يا حمزة، كل يوم يمرّ تظهر كفاءتك في المكان الذي
أضعك فيه.

: كل ذلك بفضل تعاليمك لي، وثقتك بي .

: لقد استأذنت السلطان في أمرك، وطلبت منه أن تكون في
خدمتي وخاصة محاربي، وقد أذن لي بذلك، وأنت من الآن من خاصة
فرساني وحراسي .

: هذا شرف لي يا سيدي أن أكون في خدمتك .

: الأمر الآخر يا حمزة، هو في المهمة التي كُلِّفْتُ بها، حقيقة الأمر يا
حمزة أنك لم تذهب إلى بغداد من أجل ابنتي، لقد أُرْسِلت خصيصاً كي
تحضر ابنة السلطان، وفي المقام الآخر ابنتي .

: ابنة السلطان، وسكت قليلاً محلقاً بنظره في السماء، كيف يكون
ذلك، ألا تتق بي .

: قلت عليك يا حمزة، إذا علمت بطبيعة الأمر أن ينقلَ بِ حالك
ويظهر عليك علامات الارتباك، لقد كانت الأميرة إرنا ابنت السلطان
تحمّل رسالة من السلطان طُغرل الثالث سلطان سلاجقة بغداد، رسالة
مهمة ستغير الأوضاع في المنطقة وتعيد القوة من جديد إلى الدولة العظمى،
خشينا أن تقع هذه الرسالة بيد أحد من أعدائنا، لذلك كان من الأفضل أن
تخرج الرسالة مع الأميرات، فمستحيل أن يفكر في ذلك الأعداء .

: ولكن يا سيدي كان يجب أن تعلمني بالأمر، وأنت تعلم جيداً
خطورة هذا، والجواسيس في قصر السلطان كثيرون، أمرٌ كهذا أن عُرف قد
تكون عاقبته لا تحمد.

: الحمد لله يا حمزة مر الأمر على خير، كانت هذه أوامر السلطان،
وقد أكتسبت ثقة السلطان .

: شكراً لك سيدي .

: سانتظرك بعد صلاة العشاء لننطلق إلى قصر السلطان .

: أمرك يا سيدي .

كانت الصدمة عظيمة من هول المفاجآت التي رآها اليوم من
خروج ابنة السلطان ومعها رسالة تحملها وعودته إلى ازيق بكل هذا

الحمل دون أن يدري، مقابلة السلطان اليوم، خدمته مع الأمير مراد الدين محمود.

حلَّ المساء، وانطلقَ خلفَ الوزير مراد الدين نحو القلعة الكبيرة، عظيمةُ البناء، المشيدةُ على الطراز الرومي القديم، بلغ ارتفاع سورها أكثر من مائة ذراع، وتحصن بداخلها السلطان في قصرها العظيم الذي يطلُّ منه على مياه البحار، ومنها ينظرُ إلى الدنيا بعين الاعتبار، بوابة القلعة اعتلى الأسوارِ حراس، واعتلى أبراجَ المراقبة رجالٌ يبلغُ نظرهم المدى البعيد الذي لا يرى لأيِّ الرجال، وعلى البوابة حارسان من العملاقة مفتولي العضلات، قوي البنية، أحدهم شديد السواد، كأنك تري بين عينيه لهيبٌ يحرقُ به من يراه، والآخر أبيضٌ بحمره من أهل البلاد، كان حمزة يتلفتُ يميناً ويساراً، ينبهرُ من دقة الإبداع بهذا المكان، هنا يجلس العظماء، "هكذا قالها في نفسه حمزة".

التفت الأمير مراد إلى حمزة مخاطباً إياه، هنا يُختلفُ الحالُ يا حمزة، لقد حُظيتَ بمكانةٍ عظيمةٍ بين السلاطين والأمراء، اليوم سيُعلي شأنك إن شاء الله.

: إن شاء الله يا سيدي .

وسلم الأميرُ سلاحه، ومن خلفه حمزة صنع مثل صنيعه، ودخل على السلطان، السلام على مولانا السلطان.

: وعليك السلام يا وزيرنا، جالب الخير والبركات، كان حمزة خلفه يحي الحاضرين بالانحناء قليلاً برأسه، واضعاً يده اليمني على موضع القلب .

: لقد حضر فارسنا الشجاع الذي أدى الأمانة على ما يرام .
: هذا بفضل ثقتكم بي يا مولاي، وقبل حمزة يد السلطان وأجلسه السلطان بجواره .

وأردف السلطان قائلاً " لقد حُكي لي عن صنيعك مع الأميراتِ وتكريمك لهن، وعن شجاعتك وبطولتك في الطريق .
: هذا بفضل الله على يا مولاي، ثم بدعائكم لي، فقد يسر - الله لي الطريق .

وأخلع السلطان الخلع له، وزاد في العطايا والهدايا من أجله، وأراحه الله من شر الحاقدين والحاسدين في تلك الليلة، وفي هذا المجلدِ سُ المبارك .

لم ينتظر شروق الشمس وطلوع الصباح، فبعد الفجر المبارك؛
انطلق مباشرةً إلى مدينة خونيا، حيث الأهل والصحاب، حيث الوطن،
وعلى مشارف المدينة، بدأت بوادر الرياح تأتي محملةً على ظهرها رائحة
الغابة الفقيده، والمزارع البعيدة، أتت الرياح تحمل بين طياتها أتربة المدينة
وعُبارها، أي والله إن الحنين واللهفة إلى الديار، يجعلك تهيئ عشقاً بترابها
وحداثتها، لقد طال الفراق فكيف حال المدينة من بعدى.

و شد اللجام وانطلق إلى داخل المدينة محيي الحراس على أبوابها،
إلى المنزل ملقياً السلام، وانحني يقبل أيديها، وجلس بجوار أبيه
يتحدثون: كيف حالك يا أبي، وكيف كانت رحلتك هذا العام.

: الحمد لله يا ولدى، كلُّ شيءٍ على ما يرام.

: صف لي يا أبي البلاد العجيبة التي رأيتها، لقد كانت رحلتك
طويلةً هذه المرة، أراك جلبت معك كلَّ جديد.

: الحمد لله على كل حال، لقد زرتُ بلاداً من أعجب ما رأيتُ في
حياتي !!، مررت ببلاد العراق إلى خرسان، ورأيتُ العجائب في بلاد
فارس، الإخوة يتقاتلون !!؛ والعييدُ رفعوا السلاح على أسيادهم،

واستولوا على الأراضي والحصون، وأقاموا لأنفسهم دولة منيعة يقاتلون بها الكفار والمسلمون، لم يسلم أحدٌ من سيفهم يا بني .

: يا الله يا أبي أحدثُ هذا بين المسلمين ؟!! .

: وأكثرَ من ذلك يا بني .

: دعك من هذا يا أبي وأخبرني كيف وجدت البلاد والعباد .

: البلاد بخير والحمد لله، في خوارزم أمتلك الخوارزميين حتى وقفوا قبل حدود الري وأصبحوا يهددون السلاجقة بالفناء، والعباسيون في وادي والأيوبيين في واديٍ آخر، والغزنويون وحدهم على حدود الهند يقاتلون البوذيين والملاحدة، والعباد حالهم بخير والحمد لله راضين بقضاء الله، رأيتُ مكارمَ الأخلاق، ورأيتُ الفسقَ والفُجورَ والانحلال، ورأيتُ الزُهادَ والعُبادَ والتُّجار، على مختلفِ أعمارهم من مختلفِ البلاد، ربحتُ تجارتنا والحمد لله، في بلاد الخوارزم الأسواقُ كبيرةٌ تستوعبُ الكمَّ الهائل من البضائع والتجار .

: الحمد لله على عودتك سالماً إلينا يا أبي .

وحكي له قصته وما حدث معه في الطريق من عجائبٍ وأغراب .

ثم تدخلت أمه في الحوارِ قائلةً: لقد عاد المعلمُ حُبيب يا ولدى إلى
الديار .

: أحقاً يا أمي ؟ .

: نعم يا ولدى، وسأل عنك كثيراً.

: سوف أذهبُ إليه في الحال

: فليحفظك الله يا بني، ستجده مُنتظِرُكَ في الغابة، في مجلسه الدائم

: أدام الله وجودك على رأسنا يا أمي، وقبلَ يداها، ورحلَ مُنصرٍ- فأ

إلى المعلم، وبعد فراقٍ طويلٍ أخيراً التقى بمعلمه، حلقةٌ دائريةٌ يترأسها

المعلم حُبيب، وحواله جمعٌ غفيرٌ من الأطفال، يتلون آيات القرآن، وما أن

رآه المعلم، حتى قام من مجلسه وعانقه عناقٌ طويل، ورَبَّتَ على ظهره، آه يا

حمزة، لقد اشتقت إليك كثيراً يا فتى .

: وأنت أيضاً يا معلمي، قد طال بنا الفراق ورأينا ألامه وعِشَّنا

جراحه .

: الحمد لله يا بني على كل حال، الضربةُ التي لا تُميتُك تحي

بداخلك قلباً أماتوه من كثرة الطعنات، تجعلك قوياً ويستقيم حالك بها

وتُعلَى من شأنك .

: صدقت يا معلمي .

: أجلس يا بني، وأجلسه بجواره، آه على الأيام يا حمزة، لقد تغير
شكلك كثيراً يا بني، واشتدَّ عظمك، وعظمتُ أمرُك، ولبست ثوبَ العظماء،
وخلعت لباسَ الأباء .

: حدث ما لم أتوقعه في يومٍ من الأيام يا معلمي .

: قُصَّ عليَّ يا بني، لقد سمعتُ الكثيرَ والكثيرَ عنك منذ رحيلي .

: سأخبرك يا معلمي بما حدث، وقصَّ عليه القصص .

مرت الأجازة مرور الكرام، كأنها ساعةٌ من نهار، انتهت الأجازة،
وعاد الكد من جديد، والمشقة والتعب والعناء، لا راحة بعد اليوم، ودع
أمه وأباه مُقبلاً أيديهم، وانطلق إلى المعلمِ مُودِعاً إياه، وانطلق على الفرس
إلى قونيا، راحلاً بعيداً عن خونيا، على أبوابِ قونيا، تخطي الحصان
الحواجز، وعبر البوابة إلى أعلى، حتى وصل إلى القلعة الكبيرة، "وبها مقر
الحكم"، ونزل من على حصانه مُحيياً الحراس، ودخل في حضرة الوزير مراد
الدين مُلقياً السلام، مُقبلاً يده، جالساً في الجوار، بجوار الوزراء والأمراء،
وأشار إليه الوزير بالجلوس والإنصات، فاستمع حتى فرغ الوزير من
كلامه، ورحل الأمراء والوزراء، وبقي في مكانه جالساً ينتظرُ أوامرَ

الوزير، فالتفت إليه مُحاطباً حمداً لله على سلامتك يا حمزة، لقد اشتقنا إليك كثيراً، السلطان كثير السؤال عنك .

: سلمك الله يا سيدي، سلمت وسلم السلطان، إنما كنا نسير برضاكم عنا ودعائكم لنا.

: تبسم الأمير مراد من إدعائه، الآن يا حمزة نعود للعمل، لقد اخترناك عن باقي الفرسان؛ وفضلناك عنهم؛ وجعلناك في الحرس الخاص لأهل بيتي.

: ولكن يا سيدي، أنا لا أستطيع أن أقوم بمثل هذا العمل، اجعلني في حراستكم، أرسلني في الجند، اجعلني على طليعة الجيش، أرسلني إلى الحرب والقتال والمهمات الصعبة، ولكن لا تقعدني إلى الترف، ورعاية المزارع؛ ونزل برأسه في الأرض؛ ووجه وجهه موضع السجود، وزاد من كلامه وحراسة النساء .

ضحك الوزير من كلام حمزة وأردف قائلاً " كل يوم يمر يزداد إعجابي بك وبشخصيتك، لأجل ذلك لم أجِدُ أفضلَ مِنْكَ يُلازمُ الأهل والأبناء، ويقوم على حراستهم ورعايتهم والدفاع عنهم، أنت تعلم يا حمزة؛ حراسة النساء أفضلُ مائة مرةٍ من قتال الروم والفرنج، النساء هم

العرض والشرف، ومن أجلهم تُهدم الدول وتُقام، ومن أجلهم تقوم الحروب ويموت الرجال، أنسيت يا حمزة أنك ذهبت إلى بغداد لحماية أميراتُ القصر .

: الأمرُ يعودُ إليك يا سيدي .

: هيا بنا حتى تستلم الوظيفة الجديدة، ألق بي .

: سار خلف الوزير على حصانه إلى القصر بالمدينة العظيمة، وبه سكنه الخاص، داخل القصر-بوابة عظيمة، يقوم على حراستها أربعة فرسان، غير معتلي الأبراج والكشافة، وحينما تدخل من البوابة، تقابلك حديقةً عظيمةً مليئةً بالزهور والأشجار، مختلفة الجودة، كثيرة البذور والحبات، تنوع المجلوب من الهند والسند وبلاد الفرنج، تُزينُ الحدائق والبستان، وتبعث البهجة والاطمئنان إلى النفوس، وتُرسدُ الراحة إلى القلوب، وتُعيدُ الصفاء إلى الأذهان، وبعد أن تعبرَ الحديقة وتُحترقُ الأبواب إلى داخل القصر، تري العجب العُجاب، كأنك في قصور الشام أو قصور كسري، تري العماد الطوال؛ كأنك في إرم ذات العماد، أدوارٌ يعلوها أدوار، وجمالٌ لا يُباهيه جمال، تخطى قصور الملوك والخلفاء، مازال مُشرِّداً بذهنه، ينظر إلى جمال القصر ويستنشقى هواءه النقي الذي ليس له مثيلٌ في

هذه الأجواء، ظل الوزير ينادى ولا يجيبه، حتى التفت إليه، ما الذي خطف عقلك عنا .

: هواء القصر يا سيدي أعظمُ مما كنت أتخيله، ضحك الأميرُ ونظرَ إلى حمزة " ليس هواء القصور فقط أعظم؛ بل حياة القصور لا تُقارِنها حياة.

: أبعدنا اللهُ عنها، بل الحياة في الغابة لا تُضهِمها حياة، وأكمل الوزير مسيره داخل القصر، يسيرُ خلفه يتلفتُ وينظر في الأنحاء، ويتفقد النقوشات والكلمات، حتى وصلوا إلى مدخل إحدى الغرف التي تجهزت للضيوف والغرباء، وكان بها الزوجة والابنة؛ والأمير الصغير الطارق، وحيوهم بتحية الإسلام، ثم تحدث الوزير إليهم: هذا حمزة وانحننا عتذرية أطمياراً برأسها، وأردفت قائلةً: تقابلنا من قبل، ثم أكمل الوزير حديثه: من اليوم سيكون في خاصة الحرس بكم .

ابتسمت الأميرة تركة تون وتحدثت: مرحباً بك يا بني، رضي الله عنك وأعانك على ما أسندك به السيد مراد .

: أتمنى يا سيدتي أن أكون عند حُسن ظن سيدي بي، وأن أقوم على خدمتك وحراستكم على الوجه الذي ترضونه وتحبونه.

: حمزة خير مرافق؛ وخير من يحرصنا يا أماه، لقد أثبت كفائته من بغداد للأناضول، وأظهر براعته في إيصالنا سالمات.

: نتمنى ذلك يا ابنتي، واستأذن الأمير وسار خلفه، وأراه غرفةً داخل القصر، بجوار الباب من الناحية اليسرى، كانت واسعةً وبها سريرٌ صغيرٌ مصنوعٌ من القطن، ومكتب صغير مرافقٌ للأرض ولا يعلوه إلا بذراع لا تظهر للنظر، ومكتبةٌ بسيطةٌ المقام، خاويةٌ على عروشها، يملأها الفراغ والأتربة، وينقصها الكتب التي تزينها وتجعلها باهيةً كي يراها الملوك على أبعى حال، وأردف الوزير قائلاً: لقد أمنتك أمانةً عظيمةً يا حمزة؛ إياك، وضع حمزة يده على فم الوزير وقال له: لا تنطقها سيدي: فمثلي لا يخون، إن كنت ترى ذلك سأعود إلى المدينة في الحال .

: أنا لا اقصد ذلك يا حمزة، أريد أن أخبرك أنك ستكون كاتم الأسرار، وساتر العيوب، ستصبح أعمى وأصم وأنت داخل هذا القصر .
: من غير أن تقول هذا يا سيدي، فأنا لن أهتك سترك، ولا افضح سرك، ولا أتحدثُ مع الناس بما فيه شأنك وعظمتك ومقامك .

: أحسنت القول يا حمزة، من أجل ذلك؛ فضلتك عن بقية الفرسان، تمتع بقدر الله يا غلام ^_^ وتبسم إليه ورحل عنه، وتبعه في

الحال إلى أبواب القصر العملاقة التي بها الحراس، وبما أنه أصبح رئيس الحراس فعليه أن يعرف مداخل القصر ومخارجه ومخابئه ونقاط الضعف به وحالة الأسوار .

وأعاد القلم من جديد ليدون الأخبار .

حتى تلك المهمة الجديدة لم أشعر برغبةٍ في تحملها والقيام بها، كان هدفي الأعظم القتال ومقدمة الفرسان، ولكن الأمير مراد الدين يريدني بجواره، تلك هي حياة القصور التي سمعت عنها في خونيا، حياة الأمراء والسادة .

حمزة؛ كانت السيدة تركة تون المتحدثة .

: نعم سيدتي .

: سنخرج إلى السوق .

: وهل تذهب الأميرات إلى السوق يا سيدتي، أخبريني بحاجتك

وأرسل من يجلبها من أجلك .

: هذا أمرٌ من الأمير مراد، مخالطة الناس؛ ومعرفة مشاكلهم

والاهتمام بهم، السير بين الناس يُريحهم، ويهدي من غضبهم، ويُخفف

الآلام عنهم، ويزيل التوتر والخوف، ويعيد إليهم الأمن والأمان .

: أَمْرُكَ يَا سِيدَتِي، سَتَجْهَظُ فِي الْحَالِ .

في هذه الأثناء، تجهزت الخيل، وتجهز الرجال، وأحضرت العربته أمام باب القصر، داخل العربة تسكن الأميرة تركة تون مطمئنة مرتاحة البال، ترتدي جلباباً طويلاً من الكتان الصوف الفضفاض، وحلة من الخمار تُزين وجهها، وتاج الأميرات يعلو رأسها باستقرارٍ وتمكين وإحكام، وانطلقت العربة تسابق الزمان، والخيل أمامها، معلنين النفير العام إلى أسواق قونيا، لم تهدأ الخيل حتى استقرت أمام السوق، ونزلت السيدة تركة تون من العربة، وسار حولها الفرسان؛ عن يمينها ويسارها؛ وسار خلفها يجلب لها الاطمئنان والأمان، تسير السيدة تركة تون وسط الباعة في السوق الكبير، تمر بالحياكين وزوجاتهم، وبالمشغل الكبير بالسوق، تطمئن على أحوالهم، وتتفقد وتسمع ما يقلقهم ويشغل بالهم، مر النهار بطوله على ذلك الحال، تفعل ذلك السيدة تركة تون مرة في الأسبوع، تمر بالأسواق وتعقد الندوات والجلسات مع النساء في المدينة، أما حمزة فقد ظهر عليه بوادر الملل من هذا الأمر، شهرٌ على ذلك لا جديد، حتى الأمير مراد الدين أصبحت رؤيته تحدث صدفة على غير المعتاد، والأجازه أصبحت من المستحيلات، كان رده دائماً من يسير خلف السيدة تركة تون؛

من يحمي الزوجة والأبناء، تلك أصعب مهمة كلف بها في حياته، بل مهمةٌ مملّةٌ تنسيك فروسيتك وقوتك، وحن ميعاد الأجازة، بعد شهر ونصف في خدمة أسرة السيد مراد الدين يعود لرؤية الأهل والأحباب.

وفي قرارة نفسه يحدثها وتحذثه كالمعتاد؛ كان اشتياقي للمعلم خبيب يفوق المعتاد ولكنني أشعر بنغزة في قلبي تقلقني، لا اعلم من أي شيء، ولكن أشعر بأن هناك شيء سيء سيحدث .

وما أن وصل إلى الدار حتى وجد أمه تعد الطعام لإخوته الصغار، فقبل يدها وقدمها وعانقته عناق المشتاق، حمداً لله على سلامتك يا ولدي؛ اشتقنا إليك كثيراً، كيف حالك وكيف تعيش وكيف حال صحتك .

: وأنا اشتقتُ إليك كثيراً يا أمي، الحمد لله بخير لا تقلقي فأنا بصحة جيدة، وتبسم لها وقال، ولكن ينقصني طعامك الشهوي الذي لا يعوض يا أمي في العاصمة.

: تعال يا بني تعال؛ واحتضنته أمه، ولم يشعر بحاله إلا وهو بين يديها، هذا هو أفضل شعور أشعر به في حياتي، الشعور الحقيقي بالأمان والاطمئنان بين يدي أمي، أفضل من الشعور الذي تشعر به السيدة تركة تون وأنا أقوم على حمايتها، أبي في رحلة تجارية يخوض الصعاب مع الحياة،

يقاتل حتى يصل إلى مبتغاه، يتحدى الصعاب ويعبر المشقات، يريد أن يصبح أعظم تاجرٍ في الوجود، حتى يصل سيطه مشارق الأرض ومغاربها، لقد كانت رحلته هذه المرة إلى بلاد الروم "قسطنطينية" كما أخبرتني أمي، سأذهب لمقابلة المعلم خبيب يا أمي .

: لا تتأخر يا بني، حتى نجلس معك لقد اشتقنا إليك .

: أمرك يا أمي .

عدت إلى البيت، أفكر فيما قاله المعلم خبيب، كان كلاماً منطقياً، إنها بوادر التغيير التي أتطلع إليها، إنها مرحلة من المراحل التي أخطط لها من أجل اليوم الذي سيأتي محملاً بالخيرات، لقد ملئ قلبي شغفاً بحب المهمة والتفكير من أجلها، كالعادة مرت الأجازة كمرور القمر في ليلة المنتصف يضىء الكون ليلته ويرحل عابراً ليأتي الشهر المقبل ومعه الخير والنور .

قبيل الغروب وبين يدي معلمي نتحدث ونشارك الأسرار .

: يا ولدي هناك أمورٌ أريد أن أخبرك بها، فأنا لا أدري أيطول بي

العمر أكثر، أم سينقضي أجلى .

: أطال الله عمرك يا معلمي لا تقل هذا .

: لا بد وأن يأتي هذا اليوم يا ولدي، لا بد وأن أخبرك بالسر- الذي طالما دفنته سنين، أن الأوان كي يخرج من بين أطنان المستحيل، خذ يا بني .
: ووضع خريطة في يدي " هذه الخريطة تأخذك إلى مكان الكنز الذي خبأته في منزلي، أعددت له لأجلك أنت وحسن؛ حتى تستفيدوا من هذا الكنز الذي لم استطع الاستفادة به يوماً من الأيام، هذا يا بني ميراث الأجداد، قد ورثته عن أبي وعن جدي، اعتني به جيداً .
: ولكن يا معلمي، أنا لا استحق أبداً هذا الكنز .
:ومن يستحقه إن لم يكن أنت، بل إنه لشيءٌ قليلٌ من أجلك، هذا آخر عهدي بك، أردت أن أخبرك بهذا، وخشيت أن لا أراك مرة أخرى .
: أطال الله عمرك يا معلمي لا تقل مثل هذا الكلام سترى أبنائي بإذن الله .

: تمنيت من الله أن أظل حاضراً حتى فتح القسطنطينية، ولكني لا أرى ذلك حاضراً في هذا الزمان الملىء بالفتن والخيانات والمؤامرات، لا أرى ذلك الزمن حاضراً والمسلمون ينهون خلافاتهم بالسلاح .
: ستكون شاهداً وحاضراً في هذا اليوم .

فليكن هذا اليوم يومكم، وهذا العيد عيدكم، سأعود إلى المنزل، أراك في الأجازة القادمة بإذن الله، وانطلق المعلم وذهبت إلى حيث أجلس أنا وحسن، ذهبت إلى البقعة المباركة كي أعيد ذكرياتي مع صديقي الغائب، وجلست متكئاً انظر ناحية البحر والخريطة في يدي محدثاً نفسي، أه يا حسن ذهبت تبحث عن الأموال، وها هي الأموال تحت قدمي، لو أنك بقيت معي لرأيت هذا اليوم بنفسك، لا شيء يدوم، وانسدل ستار الليل وعدت إلى بيتي لاستعد للرحيل مبكراً.

كانت تلك آخر الليالي في الأجازة وانطلقت إلى قونيا العاصمة.
وأغلق كتابه.

(قونيا)

وما أن وصل إلى القصر، كان الوزير منتظراً قدومه ورحب به واحتضنه كمن احتضن غائباً لم يعد منذ سنين.

:حمداً لله على سلامتك يا أمان قلوبنا، كيف حال صحتك وكيف كانت رحلتك.

:سلمت يا سيدي، بخيرٍ والحمد لله؛ الحال جيد، والنفس مطمئنة ومستعدة لاستقبال أي أمرٍ جديد.

:كيف حال المعلم خبيب.

:يرسل إليك السلام.

:أدامه الله فوق رؤسنا؛ نعم المعلم.

:سلمت يا سيدي.

:الآن جاءتك المهمة الجديدة.

:في خدمتك وطوع أمرك.

:الأميرة أطميارة، سوف تذهب إلى حلب الأسبوع القادم لشراء

ملابس الزفاف.

:الأميرة ستتزوج، أم أنها مهمة بداخل المهمة.

: ضحك الأمير وأردف قائلاً، هي مهمة واحدة يا حمزة، الأميرة ستزوج ابن الوزير ظهير الدين أبيلي، الأمير منشوكتين.

: زواج سعيد يا سيدي، أدام الله الفرح والسرور لقلوبكم، ومتى سيكون الحفل.

: عند عودتكم من حلب إن شاء الله، ستكون على رأس المحاربين يا حمزة، أنت تعرف مهمتك جيداً.

: لا تقلق سيدي الأمير، الأميرة ستكون في أمانٍ وستعود أمنة.

: هيا اذهب لتستريح من عناء الطريق، السيدة تركة تون غاضبة عليّ بسبب أجازتك، وتبسم وغادر .

مر الأسبوع، وأرسل حمزة إلى الوزير مراد الدين يخبره في رسالة، وقد تجهزنا للمهمة وسيرنا الفرسان لكشف الطرق وتأمين المسيرة من قطاع الطريق ومن حملة الصليبيين، وبعثنا الرسل إلى حلب ليخبروا أميرها بقدوم موكب الأميرة إلى ديارهم حتى يتجهزوا باستقبال الأميرة، وسنسير على بركة الله بعد شروق الشمس، ومعنا الأميرة عاليةً المقام جالسةً على الهوداج، ومعنا من الفرسان خمسون فارساً كما أخبرنا مولانا الأمير، نرجو من الله الستر وتمام الأمر.

وانطلق موكب الأميرة خالي الوفاض، محملاً بالهدايا من السلطان عز الدين صاحب البلاد؛ ومن الوزير مراد الدين إلى صاحب ديار حلب؛ الأمير "تقي الدين" ومن حضر- معهم من الأعيان والأشراف وأحاط الفرسان بالموكب من كل اتجاه، وكان مع الأميرة من بنات الأمراء عدداً لا بأس به، مما زاد المهمة صعوبة، وزاد المسير بالركبان من عامة الناس ومن التجار الراحلين إلى حلب جالين معهم دعاء السلطان بالسلامة وراحة البال .

ولما اقترب موكب الأميرة من حلب، خرج أعيان البلد وعلى رأسهم الأمير تقي الدين صاحب حلب وحماه، " ووزير الناصر صلاح الدين وعينه في البلاد"، واستقبل الموكب بحفاوة بالغة، ونزل حمزة من على الحصان، ورسول السلطان، وسلموا جميعاً على الأمير وأنزلهم بدار الإمارة وأجلسهم بجواره، وتكلم الإمام فأحسن وأوجز في الكلام، ونزلت الأميرات بدار الأمير الخاصة، وظل الأمر على هذا الحال عشرة أيام تخرج الأميرة مصحبةً للأميرات، ينزلن الأسواق بحلب وخلفهم الجند والحراس، يشاهدن أجدد الملابس المجلوبة من مصر- والشام وبلاد خراسان، وأحدث المنسوجات، يشتري كل ما هو جديد وغريب عن

العيان، حتى امتلأت الحقائق بالملابس، وكانت رسالة الوزير قد وصلت إلى ضرورة العودة فقد طال الغياب، فلما دخل على الأميرة وأخبرها بما حدث، وبما ينوي، رحبت بالقرار وتعجلت في الاستعداد، وكانت الأميرات المصاحبات لها ضد هذا القرار، فكانوا يريدون البقاء لفترة أطول، فجمال حلب لا يضاهاها جمال، حلب بلد العلماء؛ ومهد الإسلام ومقر الأمراء، ومبعث الجيوش واستقرار الأمان، حلب الشام؛ تحمل بين طياتها عصور ما قبل الإسلام، ومستقر الرومان، وتحمل بداخلها دلائل وشهود على حضور بني أمية بها ومبعث الاستقرار، شاهدة على تخريج دفعات من العلماء الأبرار إلى مستقر الأوطان، لقد كانت حلب وستظل دائماً وأبداً مستقر أهل الإسلام وحامية الشام.

ونزل الأمير تقي الدين بنفسه ليودع الموكب محملاً معهم الكثير من الهدايا إلى السلطان، وباعثاً معهم ابن أخيه ليحضر حفل الزفاف نائباً عنه وحاضراً بين يدي السلطان، فلما استقر الجمع وبدأ الرحيل تحدثوا عن سلوك طريق البحر وأصررت الأميرات على ذلك، وهمة يحدث نفسه، مما يعنى أنهم قد خالفوا الأمر بإصرارهم، فالطريق عند البحر غير مأمون، ولكن ماذا تقول لفتاة هددتك بسلطة ونفوذ أبيها إن لم تجبها إلى ما تريده

وترضاه، وسار الجمع ناحية البحر لتتمتع الأميرات بالمنظر الخلاب، وبالطبيعة المهداة من قبل السماء، لينظروا إلى الطير في جو السماء، وإلى الشجر متساوي الصفوف والأركان، كأن بلادنا قد حل بها الوباء ودمر الخريف كل ما هو جميل ومباح.

تشتت عقله ولم يدرى ماذا يصنع لقد تغيرت الخطة وتحدث إلى عبدالعزيز خذ معك عبدالرحمن واسبقوا الجيش واكتشفوا الطريق.
: حاضر سيدي، انطلق عبدالعزيز وأخذ معه عبدالرحمن وخمسة جنود وسبقوا الموكب يكتشفون المواقع ويؤمنون الطريق.

ولما حل الغروب وقف الموكب وعسكروا بين الأشجار وأعد حمزة الجنود ووضعهم موضع الحراس، وراح الموكب في النوم، ظل الأمر على هذا الحال ثلاث أيام يسرون في الغابات، ويقطعون الطرق بحثاً عن الأمان، وأخذ حمزة دفعة الحديث إلى صديقه، لم تدرى الأميرات الوضع المشؤم الذي وضعونا فيه، نمر بين إمارات الصليبيين؛ ونعبر المخاطر من حولنا؛ نخاف أن يخرج علينا قطاع الطريق، هذا الطريق ليس له حبيب ولا صديق يطاع، فلتمر هذه الرحلة على خير وليكن الله معنا وفي عوننا، واستراح الموكب قليلاً حتى يستطيع إكمال المسير، وأرسل حمزة عبدالعزيز

وعبدالرحمن إلى الأمام وأعطى لكل فارسٍ مهمته المحدودة في هذا المعسكر المؤقت، آه يا بهاء الدين لقد وضعتنا الأميرات في موضعٍ خطرٍ ملئٍ بالمحافل والأخطار .

: لا تقلق يا حمزة سنعود إلى الديار إن شاء الله .

: إن شاء الله، ركز معي يا بهاء الدين وأخرج حمزة من جعبته سهمٌ، وقام برسم خريطة على الأرض، ثم أكمل حديثه هنا ديار بكر؛ أقرب البلاد من موقعنا، هذا إن حدث شيء لا قدر الله؛ ستسرع بالأميرات إلى هناك، وأشار إلى موضعٍ آخر، وهذا طريقٌ سريٌّ بين الغابات، أكثر أمنًا، وأسهل الطرق وصولاً إلى الديار، معك هذا الطريقان أختار أيهما تشاء، على العموم نحن سنسلك هذا الطريق المختصر، سنصل منه إلى أزيق ومنها إلى قونيا، لا تنسى يا بهاء هذا الكلام .

: حاضر يا سيدي، إن شاء الله لن يحدث شيء، كن مطمئن .

: ليريح الله قلوبنا من هذا العناء، ثم حدث حمزة نفسه قائلاً آه يا حمزة آه، كيف تنزل علي قرار فتياتٍ طائشات، تعرض نفسك وتعرضهم للخطر، كان يجب علي أن أمنع هذا التهريج أن يحدث، وكيف لم أضع في

حساباتي أنه من المحتمل المسير في هذا الطريق، لقد وضعت جِلَّ أهتمامي
في الطريق الآخر، فليكن الله معنا.

واستيقظ الفرسان وأستكمل الموكب المسير، وخرجوا من بلاد
الشام سالمين، وأصبحوا على مقربةٍ من بلاد الأناضول،

حينها؛

خرج سهمٌ من بين الشُّجيرات ليستقر في قلب أحد الفرسان؛
وتبعته بعض السهام ليسقط الفرسان من على أحصنتهم "وصاح أحد
الجنود هناك هجوم" وأخرج الفرسان سيوفهم من غمدها، وأشار حمزة إلى
بهاء الدين بالاستمرار في المسير بالأميرات، واستقر مكانه ومعه خمسة عشر
فارساً، واحتموا خلف الدروع ليحجزوا عنهم السهام، وليمنعوا تقدم
العدو نحو الموكب، وخرجت مجموعةٌ بزيٍ غير معروف، وظنوا بأنهم،
قطاع طريق وكان عددهم كبير يتخطى الخمسين، وأخرج حمزة ومن معه
السهام وبدوا برميها ناحيتهم، فيسقط الواحد منهم تلو الآخر، وشنوا
هجومهم الأخير، حينها كانت خيول الأميرات مُنطلقةً مُسرعةً خلف بهاء
الدين، والفرسان يحيطون بهم من كل اتجاه، وفضل بهاء الدين سلوك
الطريق المختصر داخل الغابات، وهروا الجميع، "وتقابل الجمعان؛

والتحمت السيوف؛ وتدفت قطعان الخرفان علي كل شكلٍ يرسمون؛
ومن كل حدبٍ ينسلون؛ واتخذ السلاجقة مكانهم، وانتقلوا مسرعين نحو
العدو يقذفون في قلوبهم الرعب، ويقتلونهم بلا رحمةٍ أو شفقة، وخرجت
كلمات الله من شفاه الأبطال بالتكبير يا الله يا الله، بصيحةٍ تهز الجبال هزاً،
ويخر منها الأبناء صرعى، وتلاحم الجمعان وطُيرت الرقاب، وذاق قطاع
الطرق معنى الموت والآلام، وانطلق حمزة بسيفه يميناً ويسار يقاتل ببسالةٍ
وشجاعةٍ، يدافع ويحمى ويدود عن الأعراض، وبجواره البواسل
الشجعان، يسرون على نهج قائدهم، كأنهم تبايعوا على الموت قبل رؤياه،
أخذ حمزة يقاتل عن حصانه وجموع البغال تزيد وتخرج من كل اتجاه،
وتساقط الأبطال واحداً تلو الأخر، من يسقط عن حصانه ميتاً، ومن
يسقط ثم يكمل القتال، سهام الغدر قد ارتوت بقلوب الأخيار، وفي قلب
المعركة، وسط صمود الشجعان، وإحداثٍ أعظمٍ مقتلةٍ في صفوف قطاع
الطرق، يخرج من بين الأشجار جنود بزي الصلبان، وسيوفهم وسهامهم
موجهةٌ نحو السلاجقة، هنا تذكر حمزة وهو على فرسه قرب أنطاليا من هذا
الموقع، يا الله، ونزل حمزة من على حصانه، وغدا يقاتل من يقابله لا يخشى
أحداً منهم ولا يخاف، وجنوده صرعى من حوله، لم يتبق معه سوى خمسة

فرسان محتميين ببعضهم، وأحاط بهم جند الصليبيين من كل مكان، وكان جمعهم غفير، وعددهم كبير، تخطى كل الأعداد، وكان على رأسهم قائدهم ينظر إلى المعركة من بعيد، وهنا واجه الأبطال وصاحوا الله أكبر، وهرولوا باتجاه الأعداء ي ضربون الأعناق، ويسقطونهم على الأرض كالذباب، حتى أطمئن بال حمزة لما خفي الموكب عن الأنظار، فليكن الله في عونته، وأكمل قتاله قتال المستميت، وسقط آخر جنوده على الأرض وهو مازال واقفاً شاخحاً يقاتل بقوة و ضراوة، وأحاط به الصليبيين من كل مكان، وأسقطه سهمٌ من بعيد استقر ب صدره، فسقط على ركبته ي صارع البقاء ثم قام واقفاً كالطود العظيم، ثائراً هائجاً على جموعهم مستنداً على سيفه وأمسك أحد الجنود ودار به، ونحره كما تنحر البعير، وتلقي سهمٌ آخر فتاكٌ، استقر به في ظهره، وتلقي الثالث في فخذه وسقط على ركبته يقاوم السقوط محاولاً القيام، وتلقي الضربات من سيوفهم تستقر في ظهره وفوق سرته كل من استطاع أن يضربه بسيفه لم يتردد لحظة واحدة حتى سقط الليث على الأرض ولم يتحمل أكثر من هذه الضربات والطعنات ونظر إليه نظرتة الأخيرة وأغلقت عيناه .

كان بهاء الدين يسابق الزمان، ويصارع الأسود بين الأشجار، ويهرول مسرعاً بحصانه، وقد سبقه أحد الجنود إلى أقرب المواقع لطلب المدد، ومن خلفه الأميرات بكل قوة وسرعة يلحقن به، يا الله، لا ندري ماذا يحدث بالخلف كان بهاء الدين يحدث نفسه، ماذا حدث للرفقاء، ماذا حدث لحمزة ومن معه، ظل هكذا بهاء طول الوقت، حتى عبر الغابة ووصلوا إلى أضنة وبها ابن السلطان، وقابلهم مدد السلاجقة بالطريق قبل الوصول، وأرسل ابن السلطان الخبر إلى أبيه يطمئنه بالأحوال، ويعلمه المستجدات ووصول الأميرات سالمات، ولما استقر المقام ببهاء الدين، لحق به أحد الفرسان ينهج من طول المشوار سيدي، سيدي .

: ما بك أيها الجندي .

لا يستطيع الفارس أخذ أنفاسه، استشهد الجنود يا سيدي .

وضع بهاء الدين يده على رأسه يا الله، وماذا حدث للأمير حمزة .

نظر الجندي إلى الأرض ولم يستطع التحدث، فصاح فيه الأمير بهاء

الدين ماذا حدث للأمير حمزة .

لقد قُتِلَ يا سيدي رأيتَه والسهام تخترق جسده، رأيتَه وقد
وتكالب عليه الصليبيين وقتلوه، رأيتَه وهو يسقط على الأرض بعد أن لفظ
أنفاسه الأخيرة.

: تقول صليبيين .

: نعم يا سيدي كانوا يرتدون لباسهم، خرجوا بعد أن قضى-

الأبطال على قطاع الطرق.

يا الله، كنا معنا في مصيبتنا، ماذا سيصنع الوزير إن علم بهذا
الخبر، وظل يبكى في مكانه واضعاً يده على رأسه، آه يا حمزة فديتنا ولم نرد
حق البقاء، يا قوافل الحزن ما أردناك، ولكن جبرٌ علينا شوءُ اللقاء،
ووصل الخبر إلى قونيا العاصمة، وعلم السلطان بمقتل الجنود ونجاة
الأميرات، وعادت الأميرات إلى القصر سالمات، وتمثل الفارس بهاء الدين
بين يدي الوزير يحكى له ما حدث، ففجع الأمير مما سمع وصاح قائلاً لله ما
أخذ وله ما أعطى وكل شيءٍ عنده بمقدار، إن لله وإن إليه راجعون، على
مثلك تبكى البواكي يا حمزة، وتباكى عليه أهل الديار، ولما التقى بالسيدة
تركة تون؛ التقت به جفون ترتقبُ النبأ اليقين، فقالت: أصحيحٌ ما يذاع في
الأرجاء عن حمزة يا مراد؟.

تماسكت عيناه قليلاً، لم يستطع البوح، لم يقدر علي النطق حتى
خانتته دموعه فلم يبقي له حال، فأنشدها بالله أن تتركه لحاله، فأبت عليه
إلا الكلام. فقال لها لقد طلب مني ذات يوم راحةً من مشقة الطريق، لقد
نال قسطاً كبيراً من الراحة الأبدية، لقد غَدَّ القدرُ يسبقني إليه قبل أن
أتأمل قسماً وجهه الحزين.

لم يرى مثل هذا اليوم منذ أن مات السلطان مسعود، لم يبكي
السلطان قليج مثل هذا اليوم على فقدان بطلٍ مثل هذا البطل الشجاع،
وصل الخبر إلى مدينة خونيا، وعلم الجميع بالفاجعة التي حلت بالديار،
لقد كانت هذه الفاجعة مقتل حمزة أعظم من احتلال نيقية من جيش
الأعداء.

في كل زمانٍ أعتدنا أن يذهب الأبطال ويبقي الأندال...

بعد مرور عام على حادثة الأناضول .

(بلاد الخوارزم)

جيش "خوارزم شاه" (نسبةً لمؤسس الدولة الخوارزمية والمعروف بخوارزم) الذي يترأسه علاء الدين خوارزم بعد وفاة أبيه، والذي أكثر من المماليك داخل فرقته.

كان علاء الدين في قصره يزور مملوكه الذي أهده له الأمير مندوكان الذي اشتراه من تجار الشام، والذي عرف بضياء الدين، وقد جعله مع ابنه جلال الدين ليقوم على خدمته، خصوصاً بعد ما رآه من قوته وصلابته وشجاعته في قتال الأعداء.

: كيف حالك أيها الشجاع، وما حال جروحك.

: الحمد لله يا سيدي أتحسنُ كثيراً عما مضى.

: لقد استغرق علاجك فترةً طويلة، خصوصاً بعد فترة الإغماء

التي تخطت شهر.

: الحمد لله يا سيدي قدر الله وله المشيئة، لولا رعايتك بي لكنت

الآن في عداد الموتى.

: فليحفظ الله الشجعان مثلك، فعلى أكتافهم تقوم دولتنا وتقوى

بأيديهم.

: نحن في خدمتك يا سيدي، فليعنى الله على رد معروفك.

: استغفر الله يا رجل، نحن في انتظار عودتك مرة أخرى إلى

الميدان.

: بأمر الله يا سيدي لن يطول هذا المرض، وسنشفي بإذن الله.

غادر الأمير علاء الدين وظل ضياء الدين يتذكر تلك الليلة

المشؤمة التي أصيب فيها، لما خرج عليه قطاع الطريق من كل اتجاه لولا

رعاية الله له لأصبح الآن في عداد الموتى، لقد أخرجه الله من بين الموتى

وأعاد إليه الروح من جديد، فليعطني الله الصحة حتى أنتقم من هؤلاء

الأوغاد وراح في نوم عميق.

(القسطنطينية)

السوق العظيم

أكبر أسواق الدولة، يحضره التجار من شتى بقاع الدنيا، سوق قام ولم ينفذ، لا يخلو من البضائع المجلوبة من أنحاء العالم الواسع، يتسوق فيه الناس، يبيع التجار بضاعتهم ويشترون ما يلزمهم في بلادهم، إلى أعماق السوق، يباع العبيد والغلمان والجواري، أمام تاجر غليظ الوجه، كثيف الشعر، كث اللحية، ضخم الجثة، ذو بطنٍ عظيمة، عندما تراه تشعر وكأنها خزانة طعام وخزنة أموال، يتحدث بصوتٍ غليظٍ يصيب من حوله بالصنج والطرش وكأنه وحده في السوق، خلفه يوجد أربعة من العبيد من مختلف الأنحاء، بدء التاجر يُعرض بضاعته علي الحاضرين، الأول أسود الوجه والجسد، حليق الشعر واللحية، متوسط الطول والبنيان جلاب من بلاد إفريقيا سعره عشرين دينار من الذهب كسعر أول للمزاد، يتميز بالفروسية والقتال وحماية سيده من الأخطار، ويتحمل المشقة والمتاعب، ويسير على الأشواك، عمره ما بين العشرين والخمسة والعشرين، الثاني جميل الوجه أبيض يميل إلى الاحمرار، أشعث أغبر وبالرغم من شعته الذي

أصاب جسده إلا أنك تستطيع أن تري جمال الفتى، شعره طويل متساوي وله لحية، عظيم المنكبين متوسط الطول والبيان وعليه أثرُ النحافة كأنه قد عذب لسنينٍ طويلة، فبالرغم من كل هذه المساوئ التي تظهر على هذا العبد إلا أنه بينهم كالبدر المضاء، كالقمر المستنير، سعره ثلاثين دينار من الذهب كعرض أول، به كل الصفات التي لا تخلو من المحاسن، الثالث كان أصلع الشعر، كبير السن تخطى حاجز الأربعين، كبير الجسد، وذا بطنٍ عظيمة، كثير الأكل وليس به منفعة، سعره خمس دنانير من الذهب، أما الرابع فمن بلاد الفرنج نحيف الجسد، كثير شعر الرأس، ليس له لحية، ووجه يميل إلى الاحمرار، من مميزات خدمته في المنازل وجلسه مع الحرير ولا خوف عليهم منه لأنه قد خصي، ويتحمل المشقة وما يرهق الأبدان، سعره سبعين دينار من الذهب كعرض أول، عمره لا يتخطى العشرين، ولما بدأ المزاد، بيع العجوز أولاً، ثم بيع المخصي، وجاء فارس عظيم الهيئة وحوله جنود يتبعونه أينما راح وعليهم ملابس الفرسان الرومان، ملابس بيضاء فضفاضة وعليها عباءة مربوطة بحبلٍ صغير من عند العنق، ويتوسط الملابس صليب بطول الجندي، وقد جاء من روما بصحبة التجار لجلب البضائع للإمبراطور والأمراء، ودخل السوق على حين غفلة من

الجميع، وكان المزاد قدرسي على بيع العبد الأسود بخمسة وعشرين ديناراً فتوقف الجميع عند ذلك ودخل هذا الفارس المزاد وصاح قائلاً سأشترى العبد الأسود بثلاثين ديناراً من الذهب.

فتحدث التاجر قائلاً؛ ولكن يا سيدي لقد بعت هذا العبد. سأشترى هذا العبد الأسود بثلاثين ديناراً وأشترى معه هذا المملوك الأبيض بأربعين ديناراً من الذهب.

توقف التاجر قليلاً ثم أردف قائلاً هنيئاً لك البيع يا سيدي وقهقهه. نظر الفارس إلى العبد الأسود وتحدث إليه قائلاً ما اسمك أيها العبد. سامور يا سيدي .

:وأنت أيها الأبيض، ما اسمك؟ .

فأجاب التاجر اسمه سراج العربي يا سيدي.

: أليس له لسانٌ يُجيبُ به.

: عذوبه فرسان المعبد حتى اذهبوا بعقله ولم يعد يتحدث، يعمل

فقط .

: وكيف علمت إذاً باسمه.

: أنا من أختار له الاسم يا سيدي، ألا ترى النور الذي ينبعث من

وجهه .

هدأ الفارس وأمر جنوده بسحب المماليك وساقهم إلى روما

مربوطي الأيادي مُساقون كالأغنام .

كانت تلك هي أول رحلة للعربي مع سامور العبد الأسود نحو

روما .

على أعتاب مدينة روما العظيمة، "عاصمة الإمبراطورية

القديمية"، الأمير بطليوس يسير على مقدمة القافلة أمام الفرسان القادمين

من أسواق القسطنطينية، والمحمّلين بالكثير والكثير من البضائع مع تجار

روما، وفي مؤخرة القافلة جنديان على أحصنتهم، كُلاً واحداً ممسك بحبلٍ

في يده؛ مربوطاً به أحد العبيد يجره جراً بالحصان من القسطنطينية حتى

روما، العربي والأسود قد وصل بهم الحال إلى أن تورمت أقدامهم،

وحرقت الشمس أجسادهم، ونُحلت أيديهم من أثر الحبل، وظهرت

علامات التعذيب على ظهورهم من قسوة الكرباج، في هذه اللحظة تقدم

أحد الفرسان بجوار الأمير بطليوس وتحدث إليه قائلاً: ماذا سنفعل بهذان

يا سيدي؛ وأشار ناحية العبيد .

: نظر إليهم الأمير ثم أكمل قائلاً هذان هديتان الإمبراطور،
فليختار منهم ما يشاء لخدمته.

: فهمتك يا سيدي، أظن بأننا سنتمتع كثيراً بها سيحدث في الأيام
القادمة.

فهقها الأمير أنت تعلم أنني لا أجلب أي عبيد، أنا أجلب
الأكفاء، سأضع عليهم رهانات كبيرة، أريدك أن تهتم لأمرهم جيداً حتى
موعد حفل الإمبراطور.
: أمرك سيدي.

واستمروا في التقدم حتى دخلوا روما، وانطلق الأمير بطليوس إلى
قصر الإمبراطور، وأخذ الفارس ميجونس العبد الأسود والمملوك العربي
إلى غرفة تابعة للأمير، ووضع لهم الطعام وتركهم ورحل.

حكاية رقيق غريب في بلاد غريبة، يتشارك الطعام والغرفة،
ويتقاسمها سوياً الحياة، ظل ينظر ذاك الغريب إلى هذا الغريب؛ تتحرك شفاته
ولكن تتوقف في الحال، لا يستطيع أن يخرج الكلمة من فمه، ياترى ما
الذي يمنعها من الخروج، مازال سامور الأسود ينظر إلى ذلك العربي بعين
الترقب والحذر، يتحدث بداخله، كيف لمثله بالحياة، لم ينطق بكلمة حتى،

ولم تتحرك شفثاه، منذ أن وقفنا في السوق لم ترمش عيناه، صلبٌ لم تؤثر به الرياح، عندما تحدث الأميرُ الروماني لم يحرك ساكناً، ولم يخشى مُراقباً، هل يا ترى لم يرى قدمه والدم ينزف منها؟.. غريبٌ حقاً هذا العربي، كُـلَّ هذا الوقت الذي مضيناه سوياً ولم يلتفت إليّ، أظنُّ بأنه لم يشعر بوجودي من الأساس، أشعر وكأني جالس مع جنّي ليس من طينة البشر، عندما كنت في بلادِي؛ سمعت الكثير والكثير عن العرب وتقدمهم، وتمنيتُ لو أني ذهبتُ إلى بلادهم كي أرى ذلك بعيني، سمعت بأنهم في بلادهم بالأندلس أصبحوا كالنسور العملاقة تطير بالجو!!.. وسمعت بأنهم يستطيعون علاج الوباء وقد اخترعوا لذلك الكثير من الأعشاب!!.. سمعت بأنهم يخترقون الجبال!!.. ويعبرون الأنهار مشياً على الأقدام!!.. والآن أرى واحداً منهم شاردأً بخياله، ذاهباً عن عالمنا، هل يا ترى يشفق إلى حينٍ بلاده، أنا لم أرى بلاده بعد ولكني اشتاق إليها.

قام سامور من مكانه وذهب ناحية العربي أنت يا هذا.

نظر العربي ناحية سامور مُلتفتاً إليه بوجهه ثم أدار وجهه مرةً

أخرى حيث كان.

: أيها الرجل ألا تتحدث أبداً، ألا ترى ما حل بنا من المصائب.

مازال سامور ينتظر العربي أن يجيبه ولكن دون فائدة، راح جهده
وتعبه عبثاً، ثم صاح فيه قائلاً، إذا أنت لا تريدُ الحديث، معك حق،
هيئتُك ومظهرك ووجهك لا يريدان ذلك، بالرغم من الضيق الذي تمر به،
إلا أنني أشعر بك، اعلم أنك كنت ذا شأنٍ في قومك، ولكن هذا هو حال
الدنيا يا صديقي، بالأمس كنت سيداً حراً تفعل ما تشاء وقت ما تشاء، أما
الآن فأنت أصبحت عبداً لا تفعل إلا ما يأمرُك به سيدك، ألا تعلم إلى أين
يأخذوننا، لقد سمعت من الجنود أننا ذاهبون إلى الإمبراطور، أظن بأن
المتعة تقترب منا، آه وأسند سامور ظهره إلى الحائط، وأخذ يتطلع إلى
السقف الذي لا يري منه غير السواد وسكت، فأتاه صوتٌ عذبٌ من رفيقه
العربي، إنهم يأخذوننا إلى الموت.

طار سامور من الفرحة لتحدث رفيقه بتلك الكلمة، حتى أنه لم
يشعر بها، ولكن كانت سعادته لتحدث هذا الجهاد.

: ماذا تقول يا هذا، كيف يأخذوننا إلى الموت، لم أفهم بعد.

: ولن تفهم أبداً، أنا لا أريد التحدث الآن، دعني وستعلم بكل

شي في ميعاده، واستلق العربي على الأرض وأغلق عينيه حتى لا يشعر بما
حوله.

(خوارزم)

بدأ الفارس ضياء يخرج من مسكنه الذي لازمه منذ فترةٍ طويلةٍ بسبب ذلك اليوم المشؤم الذي عُذِرَ به فيه، وقتل فيه رفاقه، ولولا عناية الله لكان الآن من القتلى، كان يسير مُتحدثاً مع نفسه مُتذكراً تلك الليلة وما حدث فيها من أهوالٍ وأحوالٍ تشيب لها الولدان، كلما تذكرها كلما زاد صرعه وهيجانه، لقد ظل فترةً طويلةً يعاني بسبب هذا اليوم الذي مر عليه شهوراً وأيام، حتى سقط جريحاً في إحدى المعارك مع الخطأ.

اطمئن الفارس منشوكان ثم رحل وترك ضياء الدين جالساً وحده كما كان، حينها مر الزمان بين عينيه.. وخرج الماضي بين جنبيه.. وظهر بريقُ شعاعٍ أملٍ قادمٍ من مضيقٍ في قلب المحيط، وفي غفوته استيقظ من نومه وتنبه من غفلته فإذا بسحابةٍ عظيمةٍ تسقطُ أمطاراً غزيرةً، فارتوت الأشجار، وابتهجت النباتات، وتزينت البساتين والحدائق، وامتلت الآبار بالمياه العذبة، وسُقيت المزارع من خيرات السماء، ولما هداً الجو واستقرت الأحوال، خرج الناس إلى الطرقات، وكان من بينهم الأميرُ الخوارزمي مندوكان؛ "قريبُ السلطان" ومعه تسير في الطرقات ابنته الأميرة صفية؛ ذات الدلال والجلال والجمال، ومن حولهم موكب الفرسان

يحيطون بهم من كل اتجاه، وما أن رآه ضياء حتى قام من مقامه.. وأسرع في اتجاهه.. وسلم عليه الأمير وسيره بجواره يطمئن على حاله، وما زال ضياء يغتلس النظرات نحو عيون الأميرة منتظراً الفرج من الله، ضياء الدين الفارسُ الشجاع.. التاجرُ الهمام.. العاقلُ المقدم، كانت هذه هي كلمات الأمير مندوكان في مدح الفارس الذي استطاع أن يصنع ثروة هائلةً من الأموال في وقتٍ محدود، واستطاع بفضل ذكائه وقوته أن يصبح من أفضل فرسان الخوارزميين الذين يعتمد عليهم السلطان، أنت مثلاً حيٌّ للشباب الذي يقتدي به يا ضياء الدين.

: العفو يا سيدي؛ بل إننا نقتدي بمثلك في أمور الحياة.

: تمنيت من الله كثيراً أن يصبح ولدي مثلك، أريدك أن تهتم بأمره

وأن تعلمه ما عجزت عن تعليمه إياه.

: أمرك يا سيدي، وودعهم وهم بالرحيل حتى نظرت إليه الحسنة

بطرف عينيها خيفة أهلها.

(روما)

مر يومان ولم تتحدث بعد معي، نأكل ونشرب وتصلي أنت كما أرى ولا ندرى ما ينتظرنا في الخارج، حينها فُتِحَ الباب.. ودخل أحد الفرسان وصاح في العربي وسامور هائجاً فيهم بالقيام، وربط أيديهم معاً، وانطلق بهم نحو الأمير بطليوس، في ملعبٍ كبيرٍ من ملاعب الرومان.. في أرضٍ فلاة، تزينها الرمال من كل اتجاه.. وتحيط بها الأسوار من كل الأنحاء، خاويةٌ على عروشها؛ بها مدرجاتٍ فوق درجاتٍ فوق درجات، وفي أعلى قممتها يجلس الأمير بطليوس، كان جالساً تحت خيمةٍ بُنيت له على هضبةٍ عاليةٍ لتحميه من حرارة الشمس، ومن حوله جمعٌ غفيرٌ من الفرسان أصحاب الملابس الحمراء؛ والتي يتوسطها الصليب باللون الأبيض، وزينت خوداتهم برمز عرف الديك حتى تميزوا بها عن غيرهم، كان الأمير بطليوس جالساً بجواره أحد قاداته وحراسه الشجعان ينظر إلى طابورٍ عريضٍ من العبيد الأقوياء مختلفي الأعمار والجنسيات، تخطى العدد الخمسين مقاتل مفتولي العضلات، أصحاب الجسد المتين، والبنيان الحكيم، كان بطليوس يميل إلى الفارس الذي بجواره متحدثاً ويضحك بصوتٍ عالي لا يخشى أن يسمعه أحد، الآن ستبدأ المتعة يا جرولاس.

: عندك حق يا سيدي؛ سنرى الآن من يستحق البقاء على قيد الحياة، وضحك جرولاس وضحك بطليوس، وفي تلك الأثناء خرج أحد الفرسان بين هؤلاء العبيد وصاح فيهم قائلاً: هذا السيد "بطليوس" لقد اختاركم بعناية شديدة، أريد منكم أن ترفعوا رأس سيدكم عاليةً أمام الإمبراطور، سيتم اختيار أفضل عشر-مقاتلين منكم لحضور حفل الإمبراطور، اليوم ستخوضون المعارك بينكم؛ ومن ينتصر- سوف يبقى، والمهزوم سوف يباع أو يذق العبودية للأبد، هيا فليتهجهز الجميع، وخرج كثيرٌ من الجنود معهم سيوفهم ورماحهم، وأعلى الرماة الأبراج حتى لا يهرب أحد، كان هذا العربي ينظر إلى من حوله من العبيد والفرسان، كل واحدٍ ذا هيئةٍ مختلفة، تحدث العربي بصوتٍ باهت، الآن ينظرون إلينا ونحن نتقاتل ويضربُ بعضنا بعضاً من أجل الحياة، سيتلذذون بذلك الأمر كثيراً، جلبونا من كل مكان حتى يستمتعوا بموتنا، كان سامور مُندهشاً مما يراه ومما سمعه، وتحدث إليه في أذنه: هذا ما كنت انتظره، سأريك اليوم صنيع الأبطال، كانت أيديهم مربوطةٌ عندما تدخل الجنود وقاموا بضربهم بالرماح، من أصابه رمحٌ في قدمه.. أو يديه.. أو فخذة.. أو بطنه.. كُلُّ على حساب مصابه، ومنهم من لحق نفسه وتفادى الضربات،

استطاع سامور أن يتفادي الضربة مع رفيقه العربي؛ وقام كل واحدٍ منهم بالالتفات في حركةٍ دائريةٍ كأنهم قد تتدربوا عليها وركلوا الجنود بأقدامهم وأسقط كل واحدٍ الجندي برمحه، وأخذوا السكين وقطعوا الحبال، وأخذ كل واحدٍ من ظهر صاحبه حصنٌ له وأمان، وقام آخر بتفادي الضربة ومسك الجندي وأدخل يديه مربوطَةً بالحبل بين رقبته وقام بضربه بالرأس، وبدا الجمع يستيقظ من تلك الغفلة التي سقطوا فيها، وانسحب الجنود وفرغ الميدان وبدأت المعركة الحقيقية، معركة البقاء على قيد الحياة، وعندما فرغ الميدان من الجنود؛ بدأ يهرول الجميع نحو الأسلحة، منهم من أخذ سيف.. ومن أخذ رمح.. ومن أخذ درع.. ومن أخذ سكين.. ومن أخذ عصا.. ومن أخذ مطرقة.. ومن استولى على فأسٍ.. وغيره وغيره من المعدات والأسلحة التي ألقيت على الأرض، ومنهم من لم يأخذ شيئاً ليحتمي به، واحتفى العربي برفيقه سامور الأسود مُعطيًا كل واحدٍ منهم ظهره للآخر، ومع كل واحدٍ خنجرٌ صغيرٌ في يده، وبدأت المعركة الحقيقية في الاندلاع، وتتدفق العبيد الكل يبحث عن مخرجٍ أو مهربٍ من الطوفان الذي حل بالجميع، كانت نظرات الخوف تمتلك الجميع، ولحظات الرعب تحيط بالحاضرين، لا أحد يعرف ما الذي يجبئه الآخر له، غير أن الموت

أصبح وشيك، أصبح أقرب الحلول إلى الجميع، بات القتل سيئاً لم النجاة، نحيفٌ حمل سيفاً لم يقدر علي حمله فهاج عليه ثورٌ قوى فاردده قتيلاً وأخذ سيفه، وعملاقٌ قُتِلَ بخنجر، كانت هناك مفاجأة لم يتخيلوها، خمسة مجتمعين سوياً يتقاتلون معاً، أسقطوا عدداً لا بأس به من العبيد، عرفنا حينئذٍ أن القوة في الجماعة، هجم عليهم ثلاثة من العملاقة محملين بالجنازير والأسلحة الثقيلة كي تتلائم مع أحجامهم، أحدهم يحمل فأساً وكان أغلظهم وأشدهم، وآخر يحمل رمحاً وسيفاً في يده، والأخير يحمل جنزيرٌ طويلٌ يقاتل به، هجم صاحب الجنزير على العربي فقام بضرب الجنزير ناحيته ولكن العربي تنحى يساراً بجسده فضرب الجنزير على الأرض، وظل يفعلها العملاق مرة والثانية والثالثة ويدعمه صاحب الرمح والسيف بالهجوم تارة والتراجع تارة، أما الرفيق الأسود فهجم عليه صاحب الفأس ودعمه أحد الصعاليك في هجومه بخنجر، فكان سامور يقاتل ببسالة يصد بيده وبخنجره ويرد الضربات لكنه يتراجع إلى الخلف من شدة اللقاء، في تلك الأثناء هجم صاحب الرمح والسيف بقوة؛ فركله العربي بقدمه فسقط على الأرض وأخذ سيفه، حينها قام صاحب الجنزير بضرب الجنزير ناحيته فما أن أبصره حتى قفز برقبتة ويده قفزة

الضفدع أو القرد، قفزةً شبيهةً بالكعورة نجاةً من الضرب، والتفت إليه وهو يحضر الضربة فتفادها وهجم عليه ولم يشعر به إلا والخنجر في قدمه والسيف بين سرتة، لقد أسقطه أرضاً وأصابه حتى سقط مغمياً عليه، هلل الأمير بطليوس حينها مما رآه وأبدى إعجابه ببسالة العربي الذي ما إن التفت إلى رفيقه الأسود حتى وجدته في مأزقٍ يزود عن نفسه، وهَمَّ بالذهاب إليه ولكن أتاه أتي من خلفه يريد طعنة ولكنه تفادى الضربة وجعل الرجل يمر من أمامه فقبض على رقبته وقام بتشريجها بالخنجر حتى سقط، حينها استطاع سامور أن يقتل صاحب الخنجر ويتفرغ لصاحب الفأس الذي قهقه وهرول ناحيته يريد إصابته ولكن كان خنجر العربي قد استقر في ظهره فسقط في الحال على الأرض، ذهب العربي إلى سامور فأسنده وأمسك بيده وقام من على الأرض، في تلك اللحظة أتى رجلٌ من الخلف يريد طعن سامور، ولكن هناك من ألقى بالخنجر فقتل الرجل، لقد كان العربي في تمام الاستعداد، في تلك الأثناء كان هناك الرجل الذي ركله العربي منذ قليل ولم يقتله، اقترب منه أحدُ الثائرين لقتله؛ فأنتبه لذلك الرجل، وشخص بصره كأن روحه قد همت على الرحيل، وهرول العربي باتجاه الرجل الملقى على الأرض، هذا يأتي من ناحية وهذا يأتي من ناحية،

والرجل على الأرض ينتظر مصيره، فلما اقترب الجمعان كان العربي قد سبق الضخم إلى الرجل الملقى على الأرض، فلما اقترب الضخم وكان سيفه ينطلق نحو الملقى على الأرض، ركله العربي فسقط، وأمسك بالسيف ووضع على عنقه في ذهولٍ عاشه الحاضرين، في لحظة ظن الجميع أنه قد زُهِقت روح الرجل، ولكن العربي وضع السيف في قدمه وتركه وقام، بعد أن سقط الكثيرُ على الأرض ما بين مصابٍ وقتيل، لم يتبقي غير عشرين فقط صامدون على أقدامهم، تلك هي آخر فرصةٍ للنجاة من الموت، ما أن اقترب أحدهم من العربي حتى ضربه ضربةً واحدةً بالسيف عند عنقه، ولما اقترب الآخر؛ وكان أعظم في الهيئة والجسمان وقد جاء إليه هائجاً يريد قطع رقبتة، حينها نزل العربي على قدميه فمر السيف من فوق رأسه، فقام العربي بقطع شرايين الحياة بضرب سن السيف تحت سرتة وفوق صدره، ولما بدا بالسقوط قام بضربه في ظهره حتى سقط علي الأرض، كان سامور وصاحب الرمح ينظرون إلى العربي في استغرابٍ، أنَّ له بهذا، وجدت الدهشة ملاحظها لدى الأمير بطليوس الذي تعجب من صنيع ذلك المملوك العربي، وقف صاحب الرمح خلف العربي وهاتفه قائلاً: سيدي أنا لن أنسى لك هذا المعروف أبداً، دينٌ علي أن أقضيه في يومٍ من الأيام، نظر إليه

العربي وهز برأسه إلى أسفل وتركه، كانت الأرض تنبت بالدماء التي سالت منذ قليل، فقد سقط حتى الآن أربعون شخصاً ما بين مصابٍ وقتيل، ولم يتبقي غير عشرٍ فقط، حينها أعلن الأمير النهاية، وأحاط الجند بالمكان من كل جانب، والرماة قد تجهزوا للرمي، وصاح الفارس جرو لاس في الجميع وأمرهم بإلقاء الأسلحة من أيديهم ومن يخالف الأمر يقتل، ألقى الأسلحة على الأرض وحاصر الجنود الميدان، وقام آخريين بأخذ السلاح، ونزل الأمير بطليوس وتحدث إليهم، عليكم الاستعداد لحضور حفل الإمبراطور، سيشهده خلقٌ عظيم، أريد منكم أن ترفعوا رأسي عاليةً أمام الإمبراطور، أنتم النخبة وأفضلُ الرجال، ستخوضون أهم معركةٍ في حياتكم، فتجهزوا لها، اذهبوا للاستحمام الآن، وكلوا جيداً أمامكم يومٌ طويل، تجمعوا في طابورٍ طويل، وساروا مجتمعين خلف بعضهم البعض، وقام الجنود بحمل المصابين من على الأرض.

في غرفةٍ كبيرة الحجم، في الوسط مائدةٌ كبيرةٌ جهزت لعشرة محاربين، كل فردٍ أمامه آخر، جلس سامور بجوار العربي، وجلس أمامهم هاتشوريا "الرجل الذي سئلت روحه وأعيدت إليه مرة أخرى من

العربي"، سامور كثير الكلام لم ينقطع حديثه عما حدث في تلك الحلبة وما فعله سراج العربي بالمقاتلين كأنه هو من صنع ذلك.

ولما أسدل الليل ستاره، توجه كل محاربٍ إلى فراشه، لكن سراج العربي كعادته ذهب إلى محرابه يصلي ويتعبد ويدعوا الله أن يريجه من هذا الهم، ويخرجه من هذا الحزن، وينقذه من هذا الأسر، ولما فرغ من صلاته وعاد إلى فراشه، أغتلس سامور الفرصة التي أُتيحت له وتحدث مع سراج العربي وقال له: أخبرني ما الذي ردك عن قتله .
نظر إليه سراج العربي ولم يعيره أي انتباه .

فاعتدل سامور في جلسته وتحدث غاضباً؛ أتحدث إليك ولا تتحدث إليّ ولا تعيراني أي اهتمام، حزينٌ دائماً ولا تخرج ما بداخلك، لا تلتفت لسؤالٍ، أتقرب إليك ولا تراني، أخبرني لماذا؟؟ هل كنت أنا السبب في ما حدث لك؟،

كل ما أريد فعله أن أكون معك وبجوارك، أن أكون صديقك، لقد أحببتك كثيراً، أتراني علي دينهم ويقتلونني!!، وأنت عدوى تنقذني من بين أيديهم، ألا ترى أن الأمر غريب!! .

: يا هذا ديني لا يفرق بين أبيضٍ وأسود، لا يفرق بين عربي
وأعجمي، ديني جاء رحمةً للناس كلها، لقد جاء صاحب هذه الرسالة
لينقذ البشرية من الطوفان إلى بر النجاة، ديني يأمرني بالاعتدال والمحبة،
وإذا ما وضعت الحربُ أوزارها تبادلنا المنافع بينا.

: جميلٌ دعوتك إذا ما تساوي فيها الناس، والأجملُ سماعُ صوتك
حينما ينامُ الناس، لم تجربني بعد لماذا لم تقتل هذا المدعوها تشوريا ووهبته
الحياة من جديد.

: لم تسمع ما قاله؛ أنه مدينٌ لي بحياته، من لم تبلغك حاجته اليوم؛
ستبلغك حاجته غداً، ووجب عليه سداد الدين.

تبسم سامور من كلام سراج العربي صدقت، إنك لأمكرُ
الشجعان.

في صباح اليوم الجديد، وقرب شروق الشمس، وفي وسط الميدان، عشرة مقاتلين مصطفين يتدربون على أشق الأمور القتالية، عشرة أيام تدريباً على تجاوز المصاعب والأخطار، حتى جاءت اللحظة المعهودة، وقف الأمير بطليوس أمام المحاربين وتحدث إليهم: غداً ستقاتلون أمام الإمبراطور، سيشهد الحفل الكثير من الأمراء، إياكم أن تظهروا الرحمة، أو تألفوا الرأفة، من ينتصر؛ يجد له مكاناً بين جنود الأمراء، أو ينال حرته، لا رحمة في القتال، البقاء للأقوى، أريدكم أن ترفعوا رأسي أمام الإمبراطور. عاد المحاربين إلى غرفهم، وفي تلك الأثناء جلس سامور وهاتشوريا بجوار سراج العربي؛ وتحدث هاتشوريا قائلاً أخبرني يا سراج ما رأيك في ما قاله الأمير بطليوس .

نظر سراج إلى كلٍ من سامور وهاتشوريا، لقد جئت ههنا في الصغر مع أبي، أتذكر أننا حضرنا مثل هذا الحفل الذي يحضره الإمبراطور الروماني، فوجود الإمبراطور يكون القتال أشد عنفاً، وأكثر ضراوة، قتال المستميت على الحياة، كل العبيد الذين اشتراهم الأمراء في الفترة الأخيرة يشاركون في هذا الحفل، عبيدٌ من طرازٍ خاص، يتم تدريبهم على أعلى مستوى كما حدث معنا، لا يعرفون معنى الرحمة ولا الشفقة، يقاتلون من

أجل البقاء، المنتصر أخيراً قد يشتريه بعض الأمراء، أو الإقطاعيين لخدمته الخاصة بأعلى الأسعار، ويكتسب من وراءه سيده الكثير من المال من خلال الحفل ومن خلال بيعه .

تحدث سامور " كيف من خلال الحفل يا سراج العرب .

: يضع الأمراء والأثرياء الرهانات على المقاتلين، وكلما فاز مقاتل

أخذ سيده الرهان، لذلك الأمير بطليوس يعقد الآمال الكثيرة علينا من أجل تحقيق ثروة طائلة من وراء هذا الحفل، نسيت أن أخبركم سترون العجب العجاب في الحفل، إياكم أن تظهروا أي شفقة أو رحمة بعدوكم، لأنه لن يرحمكم أحد، تجهزوا للغد، وتركهم وذهب إلى محرابه يتعبد .

رد سامور في بهجة وسرور إذاً الحرية تنتظرنا .

نظر إليه سراج وأردف قائلاً: وربما عبودية أذل من تلك التي أنت

فيها الآن .

: لا يهمني كثيراً، المهم بأني سعيد، سأذهب بعيداً عن وجه ذاك

القائد.

: وهل هذا هو مفهومك عن السعادة .

: نعم ، ولكن أعندك تفسيرٌ غير ذلك .

إن كنت تبحثُ عن السعادة، فهي تفسيرٌ لغبارٍ أجمع علي ملامح
وجهك فغَبَّرَ من شعث السنين.

قبل شروق الشمس اصطف عددٌ كبيرٌ من الجنود الرومان، وفي
أيديهم الأسلحة والرماح العملاقة، والسيوف الطويلة، وخرج المحاربين
مكبلي الأيدي في صفين متراصين خلف بعضهم البعض نحو المعبد الكبير
بروما، الذي تحول إلى ملعبٍ بعد دخول النصرانية إلى الدولة، تحدث
الأمير بطليوس علينا الوصول قبل شروق الشمس من أجل الاستعداد،
وانطلق يسبق الجميع بحراسه .

وصول الإمبراطور إلى أرض الميدان، إلى الملعب العظيم، الآن في
أعلى قمةٍ في الملعب، حيث نُصِبَت خيمةٌ عظيمةٌ للإمبراطور تظله من حر
الشمس، ومن حوله العبيد يحملون المراوح ليرسلوا الريح الباردة باتجاه
الإمبراطور، وبجوار الإمبراطور أعدت المجالس وجهزت للأمرء
الرومانيين والأثرياء على حد نفوذهم وسلطانهم، وفي الصف الذي تحته
الأثرياء، الصفوف الأخيرة للعامة، وفي قلب الملعب أعمدةٌ طويلة تحيط
بالملاعب من كل اتجاه، تدور على جوانبه في هيئةٍ دائرية، وفي الوسط أعظم
عمودٍ نصب في روما من حيث الحجم والطول، فقد تخطي طوله الأذرع

الكثيرة، وحجمه صعب أن يعرف مقاسه لقلّة الأدوات، يوجد مداخل كثيرة في جوانب الملعب، قد أعد مجلس الأمير بطليوس بجوار الإمبراطور الروماني وبجواره الأمير بيتروس وقهقهها الإمبراطور ماذا أعدتتم لنا اليوم : لقد جلبت يا سيدي عبيدٌ من كل أنحاء الدنيا، من أجل هذا

اليوم، ستري اليوم العجائب يا سيدي، ستري قتالاً حقيقي .

تحدث الأمير بيتروس لقد سمعت بأنك وضعت ألف قطعة ذهبية

في الرهانات في الجولة الأولى فقط .

: نعم ألفٌ من أجل الجولة الأولى فقط، أراهن على جميع محاربي

بألف قطعة ذهبية، وعلى المحارب العربي بالأخص بألفٍ مثلها.

نظر بيتروس بتعجب ناحية بطليوس لهذه الدرجة تراهن بكل هذه

الرهانات .

: ستري بأمر عينك الآن .

كانت الجولة الأولى بين مائتي مقاتل، قتالٌ فردي، مقاتل لمقاتل،

ينزل الساحة في كل مرةٍ عشرون على خمس مرات، جعل بطليوس في كل

مرة اثنين من المقاتلين يشتركون، انتهى أول عشرون، وعاد المقاتلان إلى

الغرف بسلام، والثانية والثالثة والرابعة، واستطاع هاتشوريا النجاة سالمًا

وكانت تلك آخر فقرة من فقرات المرحلة الأولى، ونزل سامور وخلفه سراج العربي وهم آخر الصف، اصطف الجميع، ووقف كل واحد في مكانه، وكان كل مقاتلٍ قد حمل على صدره رقم يرتديه، وكان رقم سراج ١٧٠٩ وكانت الحلبة غريبةً جداً، كان معظم المحاربين بما فيهم سراج لا يرتدون أي ملابس غير قطعة مثل الجيب تحمى النصف الأسفل من أجسادهم، ووقف كل مقاتلٍ مسافةً بعيدةً عن منافسه، وألقيت الأسلحة في الوسط، واطلق صاحب البوق ونفخ فيه فأخرج صوتٌ عظيمٌ كأن البعث قد حان، علم من خلاله أغلب الحاضرين عن ابتداء المنافسة، هرول كل واحدٍ نحو السلاح ولكن كان سراج أسرع إلى السلاح من خصمه، ولما اقترب عند السلاح قفز مثل النمر في قفزته على غنيمته، قفز على يده مُتثقلًا على رأسه مُمسكاً بخنجرٍ وسط ذهول الجميع ووضع في قلب خصمه الذي سقط فوراً على الأرض، وقام حينها سراج من على الأرض، واقفاً كالطود، شاخماً متوجهاً ببصره ناحية الإمبراطور الذي قام بالتصفيق له على الفور، في حين أن بقية المحاربين لم يبدأوا المنافسة بعد، مال الإمبراطور ناحية بطليوس، من أجل ذلك رهنت عليه بألف قطعةٍ وحده!.

: نعم يا سيدي هذا هديةً لك إن قبلته .

: بكل سرور يا بطليوس قد قبلت هديتك الجميلة .

انتهت الجولة الأولى بانتصار مائة مقاتل، وعلى أثرها سينتقلون لخوض المرحلة الثانية من صراع الحلبة، في هذه المرحلة البقاء للأقوى من حيث التلاحم والتقاتل وكثرة الأعداد المشاركة، لا بد وأن يبقى خمسة فقط من كل مجموعة، مما يزيد المتعة لدى الجمهور، خمسٌ وعشرون مقاتل يبحثون عن فرصةٍ للنجاة، مال جرولاس ناحية بطليوس وهمس في أذنه، الرهانات على محاربينا ازدادت يا سيدي، وخزنتنا أيضاً زادات من أول جولة، لقد دخل إلى الخزنة حتى الآن عشرون ألف قطعة ذهبية، خصوصاً ذلك العربي، الناس والأمراء يراهنون بكثرةٍ على جنودنا، وهناك من يعرض شراء بعض المحاربين عند انتهاء الحفل بأسعارٍ خيالية لن تصدقها.

تبسم بطليوس عظيم عظيم .

أول مجموعةٍ بالمرحلة الثانية، طالت المبارزة كثيراً، وزاد القتل والإصابات بالمحاربين، وتبقى خمسٌ فقط صامدون، والباقي ما بين جريحٍ وقتيل، حدث ما حدث أيضاً بالمجموعة الثانية والثالثة.. الإمبراطور يشير إلى بعض حراسه وهمس له في أذنه، وعلى الفور نزل الحارس من على

المدرج ناحية إحدى الأبواب يتهامس مع أحد الجنود الذي أشار برأسه بنعم، واقترب الرجل من خمسة محاربين وهمس في أذنه، وأشار إلى الإمبراطور ثم تركهم، وأثناء ذلك مال بطليوس ناحية الإمبراطور وهمس نحوه بصوتٍ خافت هل حدث شيء يا سيدي؟ .

: لا يا بطليوس أردت فقط أن أتقن من صلابة الهدية التي جلبتها

من أجلي.

: أتمنى أن تعجبك يا مولاي وأن يثبت لك ذلك.

: سنرى ذلك الآن يا بطليوس، سنراه .

اقترب العصر - ونزلت المجموعة الرابعة إلى أرض الملعب، وتلاحم سامور بهاتشوريا ومعهم سراج العربي، وأمر الإمبراطور بضرب الطبول والنفخ في الأبواق، وبدأت المعركة، وهروا الجميع نحو السلاح، الكل يسعى قبل خصمه، ولكن كان سراج أسرهم وأقواهم كالعادة، وكعادته قفز نحو السيف وأخذه وضرب به أحد الأخصام تحت سرتة كمن رسم خطأً طويلاً على الحائط، واعتدل بجسده، وكان كل واحدٍ قد أخذ ما استطاع من الأسلحة، وانتبه الجميع، ووقف كل محاربٍ ينظر إلى خصمه، كان هناك الخمسة محاربين الذين تحدث إليهم جند الإمبراطور قد

اعتدلوا في وقتهم ونظروا باتجاه سراج، وما أن لمحهم سراج حتى دارت المعركة، واقترب بعض المحاربين، بل كل المحاربين ناحية سامور وهاتشوريا وسراج، ودارت معركةً عنيفةً أسقطَ فيها سراج بعض المحاربين، وما أن أسند ظهره إلى الخلف قليلاً حتى ظهر له هؤلاء الخمس.. وأحاطوا به.. وظل كل واحدٍ منهم ينظر إليه بطرف العين وهو محاطٌ بهم.. يدور بجسده.. رافعاً سيفه ينظر إلى أعينهم.. والمعركةُ تدور في الجانب الآخر بين خمسة عشر مقاتل يبحثون عن فرصةٍ للنجاة، في تلك اللحظة وقف سراج وقام بتدوير السيف بيده كالمرواحة، وبدأ الهجوم واستل أحد المحاربين سيفه وهاجم على سراج الذي عبر من تحته ضارباً سيفه تحت سرتة ليسقط على الأرض فوراً، ويتبعه الآخر؛ فيمرر السيف من فوق رأس سراج الذي عبر من تحت السيف ليمسك بالرجل من الخلف ويقوم بركل المقبل بقدمه ليسقط على الأرض، ولما هجم الرابع القي عليه زميله فسقطوا على الأرض، فهاجم الخامس، فصدَّ سراج سيفه الذي تنقل يميناً ويساراً، وسراج يتراجع إلى الخلف، وما أن انتبه إلى قيام الآخرين، حتى دار بجسده كقطر الدائرة قطع فيها رقبة المحارب، واقترب الثلاثة الباقين، كل واحدٍ منهم يبحث عن مجده، والإمبراطور شاخصٌ

ببصره نحو العربي ومن يقاتله، حينها مال بطليوس نحو الإمبراطور وقال له ألا تخبرني ماذا قلت للحارس يا مولاي .

: لقد وكلت إليه مهمةً يا بطليوس، أترى هؤلاء الخمس، أرسلت إليهم من يقتل هذا العربي سيعمل في خدمة الإمبراطور وفي حراسته، ألا ترى استبسالهم في القتال .

: لكنهم حتى الآن فشلوا يا مولاي .

: أردت أن أرى مدى صلابته، وقوة تحمله، ونجح حتى الآن .
وهجم الثلاثة مرةً واحدة، وهجم نحوهم سراج صائحاً يا الله، وقام الأول بضربه بالسيف ولكن تصد له سراج بمرونةٍ، في حين أن الثاني قام بضربه أيضاً، ولكنه مال بظهره قرب كعبه فمر السيف من فوق رأسه، ثم تصد له حتى أنه أصبح مُحاطاً بثلاثةٍ من العملاقة يتقاتلون في وقتٍ واحد، يصد ضرباتهم المتتالية عن يمينه وعن يساره ومن خلفه، لا يستطيع أحدهم التغلبُ عليه، وأثناء هجوم أحدهم، مرر السيف فقفز سراج على الأرض ليقوم واقفاً وسيفه في بطن الثاني، نزعه سراج من أحشاء الرجل وقام بإلقاء الرجل المقتول على أحد المحاربين الذي تبرجل مع المقتول ولم يدرى ماذا يصنع، في تلك الغفلة هجم سراج على المحارب الآخر الذي بدأ

بصد الضربات ولم يجد مفر من هجوم سراج عليه، غير أنه وجد نفسه وسراج قد عبر من جواره وأمسك به من الخلف وأسقط السيف من يده وأسقطه على الأرض، ووضع سراج قدمه على رقبة الرجل من القفا، وضربه بالسيف فطير رأسه، كان الأخير ينظر بدهشة ناحية العربي الذي أخرج خنجر من أسفل ظهره وألقاه ناحية المحارب فاستقر بين نحره ورقبته، ثم نظر سراج ناحية الإمبراطور، وهوول إلى مكان التقاتل حيث سامور وهاتشوريا ولم يتبقي غير ثنائي مقاتلين، حينها أشار الإمبراطور ناحية أحد الجنود الذي أمر بفتح بعض البوابات والتي خرج منها بعض الجنود على الفور بالرماح والسيوف، وقد اشتد الأمر وزادات متعته بدخول العساكر إلى أرض القتال، التف المحاربين التسع بجوار بعضهم ظناً منهم أن الأمر قد انتهى على ذلك، غير أن سراج كان يعلم أن في الأمر خدعة، فهرولة الجنود نحوهم بتلك السرعة قد أحدثت في قلبه ريبة، فأمرهم بالاستعداد للقتال، وازدادت الرهانات إلى الضعف والأضعاف، وابتهج الأمير بطليموس، واستجاب المحاربين لأمر سراج العربي وتأهبوا للقتال كأنه أميرهم، رمى الجنود رماحهم ناحية المحاربين فسقط اثنين، وتفادى الباقي الرماح، إلا سراج الذي كسر الرمح بسيفه أثناء مروره

ناحيته، "كان الرمح من الخشب"، أخرج الجنود سيوفهم منطلقين نحو المحاربين الذين اصطفوا لمواجهةهم، وما أن بدأت المعركة حتى زادت الضربات بالسيوف، وأحيط بالمحاربين من كل جانب، وظنوا أنها النهاية، ولكن أثناء تلك المعركة صاح فيهم سراج قائلاً: موتوا اليوم بشرف، اقتلوا هؤلاء الخنازير الذين استعبدونا، حتى في هذه اللحظة لم ينسب العربي هوايته الحقيقية، لم ينسب أصله وطبعه، وكأنها كانت صحيحة النجاة التي أشعلت النفوس، واهاجت الصدور، وأهبت القلوب، وتلاحم الطرفان وتصدوا للهجوم الذي أتى من ناحية عساكر الإمبراطور، مما زاد الفزع ناحيتهم، وزاد الرعب في قلوبهم من تلك الكلمات ومن تلك الضربات، وانقلب السحر على الساحر، وبدأت أعداد العساكر تقل وتسقط في أرض المعركة، ولم ينج منهم أحد، بل سقطوا جميعاً ما بين قتيلٍ ومصاب، وكانوا خمسة عشر جندي، ونجا من المحاربين سبعة فقط صمدوا في أرض الميدان، وقام الإمبراطور لتحية المقاتلين مصفقاً لهم، وعلى الفور فعل مثله الأمراء والأثرياء والعوام، في تلك اللحظة دخل كثيرٌ من الجنود أرض الميدان، وقاموا بحمل الجنود والمحاربين الذين سقطوا على الأرض، ولم يبق غير السبعة من المحاربين الذين بقوا على قيد الحياة، وأشار الإمبراطور إلى أحد

الأمراء الذي نزل إلى الميدان، وأمر خمسةً من المحاربين بالدخول إلى غرفهم، وظل سراج وسامور في أرض المعركة، ينظر كل واحدٍ منهما إلى الآخر مستغرباً مستعجباً مما يحدث حوله، وهمس سراج في أذن سامور قائلاً له استعد على كل حال وسنرى ماذا سيحدث، وسحب الحارس السلاح من أيديهم، وقام الجنود بأخذ السلاح الموجود بالميدان، وارتحل الجميع إلى الخارج، وأغلقت جميع منافذ الخروج، وفتحت بوابةً واحدةً خرج منها فارسان على أحصنتهم، لا يظهر منهم أي شيء، مجنزرين بالحديد والدروع التي تغطي أجسادهم، وفي أيديهم رماحٌ حديديةٌ طويلة، وهرولوا بقوةٍ على أحصنتهم نحو سراج وسامور، اللذين هرولوا بطبيعة الحال بعيداً عنهم، وأنفصل كل واحدٍ منهم باتجاهه، أما سراج العربي فهرول ناحية العمود الضخم في وسط الميدان، وما أن اقترب الفارس حتى اقترب سراج من العمود، وأثناء تحريك الفارس الرمح باتجاه سراج لقتله، كان سراج يمشي على الحائط بأسلوبٍ غريبٍ تفاجئ منه الإمبراطور، لقد قام بالجري على الحائط والدوران في السماء، مما جعله يستطيع العبور من فوق الفارس دون أي مشكلةٍ هابطاً على الأرض وقد كان متهيئاً لذلك، حتى أنه تنى ركبته أثناء الهبوط، وما أن قام حتى نحر الحصان بخنجرٍ

أخرجه من أسفل ظهره، ليسقط الحصان، ويسقط الفارس على الأرض، قام الفارس متشنجاً متعصباً وقد سقط الرمح على الأرض، وأخرج سيفه من غمده بغضبٍ وذهب يجر أذيال الخيبة بعد سقوطه، يبحث عن انتصارٍ مزيفٍ بعد أن سلبه منه العربي، ومضي - بخطواتٍ ثقيلةٍ من أثر الحديد المحمل على جسده، وظل سراج يتراجع أمامه ويدور حوله مُمسكاً بالخنجر في يده، يبدله بين يديه اليميني واليسرى، والفارس مُمسكاً بالسيف الطويل في يده، وبدأ يلوح به في اتجاه سراج، الذي بدأ يتراجع من أمام الفارس الثقيل، وأنفاسه أصبحت معدودة والرعب يسيطر على بعض أجزاء جسده، وأصبح من الصعب أن يبلع ريقه، وتشتت عقله من التفكير، وأصبح في حيرةٍ من أمره، كيف أسقط هذا الفارس على الأرض، كيف أُرديه قتيلاً، يتواري عن عيونه، العقل أصبح في طي الفقدان، وما أن اقترب الفارس حتى لوح بسيفه ناحية سراج الذي تراجع، وما أن اقترب أكثر يريد رقبتَه حتى مرر السيف فعبر بسلامٍ بعد أن أخفض سراج رأسه، وفي سرعةٍ أثناء رجوع السيف قام سراج بركل الفارس الذي لم يتأثر بتلك الركلة والذي راح ضحيتها سراج، فسقط على الأرض من دفعة الضربة، قفز الفارس بسيفه على الأرض للتخلص من العربي الذي نجا من محاولة

القتل لما دار بجسده ناحية اليمين، وقام بخفة وسرعة من علي الأرض
وهرول من أمام الفارس الذي اعتدل بجسده ينظر ناحية العربي، في تلك
اللحظة كان الفارس الآخر يطارد سامور بحصانه وسامور يهرب منه
محاولاً تقليد سراج العربي في بعض حركاته، وما أن اعتدل الفارس بوجهه
تلقاء سراج، حتى هرول إليه وسراج واقفاً مكانه مُمسكاً بخنجره، فلما
اقترب الفارس وضرب سيفه في اتجاه سراج الذي تخطاها بقفزة النمر
معتدلاً قائماً هارباً نحو الحصان المسفوح، وما أن اقترب الفارس من سراج
حتى همس جرولاس في أذن بطليوس: سيدي لقد تضاعفت الرهانات
كثيراً بعد قتل الحصان، إذا انتصر العربي اليوم، سيدخل في الخزنة الخاصة
بك أموالاً كثيرة، لا تعد ولا تحصى، قهقهها بطليوس وظل ناظراً نحو سراج
العربي الذي أحاط به الفارس مُتوحشاً بسيفه يريد الانقضاض عليه، وما
أن اقترب أكثر فأكثر حتى تمايل سراج أمامه، وظل ينتقل يميناً ويساراً
بتيمايل على الأرض، حتى اقترب الفارس صائحاً هاهاها، وضرب بسيفه
وتدحرج سراج على الأرض حتى قام معتدلاً، وقام بإلقاء حفنة ترابٍ على
وجه الفارس، فسقط السيف من يده وأمسك وجهه وخلع الخوذة من على
رأسه، فقام سراج ووضع الرمح موضع النحر حتى سقط الفارس صريعاً

على الأرض، وأمسك سراج السيف وانطلق نحو الفارس الآخر، ما زال سامور يهرب منه وما أن اقترب سامور من سراج حتى نزل سراج متكئاً على إحدى قدميه وتانياً ركبته، واقفاً أمامه سامور ليخدع بذلك الفارس الذي جاء مهرولاً نحو سامور الذي اختفي مرة واحدة ليجد الفارس نفسه مُلقياً على الأرض، وقد نُحِرَ حصانه وسال الدم منه، قام الفارس متوحشاً سيفه ينظر نحو سامور وسراج وقام بضرب سيفه بغضب ناحية سراج، الذي صده وهو ممسك السيف بكلتا يديه ومتكئاً على قدمه، وقام الفارس بتوجيه السيف من الخلف ناحية سامور الذي تني ظهره فمر السيف من فوق صدره، فهجم سراج على الفارس الذي صد ضرباته، في ذلك الوقت مسك سامور بالرمح وقام بالتوجه ناحية الفارس لتشتيت انتباهه، حتى يستطيع سراج القضاء عليه، وتقاتل الجميع والفارس في وضعية الدفاع يصد ضربات السيف من ناحية سراج، ويرد ضربة الرمح من ناحية سامور، والتفت سراج ناحية سامور ألقي الرمح في عينيه .

: ماذا تقول .

: ألقي الرمح في عينه .

لاحظ الفارس ما قاله سراج لسامور فانتبه ناحية سامور، واستغل سراج الفرصة فقام بضرب السيف ناحية الفارس الذي نظر بفرع ناحيته وصد ضربته، ولكن سراج التفت حول الفارس وأمسك به من الخلف ودار به يجره وأسقط سيفه وخلع خوذة الفارس وقام بقطع عنقه وفصلها عن جسده، ومسك حبلٌ وربط به الجندي الملقى علي الأرض، وقام بجره أمام الحاضرين حتى التف به حول العمود، وقام بتعليقه وصلبه علي العمود الضخم، وانتبه الإمبراطور لما حدث حتى استشاط غضبه، ولكن الجمهور قد أزداد تشجيعهم للعربي، أكثر الناس سعادة في هذا اليوم الأمير بطليوس، الرجل الذي سيحققك أرباحاً طائلةً من هذا اليوم وبسبب العربي، أشار الإمبراطور إلى أحد حراسه متحدثاً إليه: اقتلوه الآن، والغضب يتطاير من عينيه وكأن الشيطان قد سكن في قلبه يحرك أوصاله، أسوء لحظات حياتك عندما تصبح خطراً يرعب مزاج أحدهم، في تلك اللحظة تنبه الأمير بطليوس لتلك الكارثة التي ستحدث إن قُتِلَ العربي، ومن ضياع الأموال التي ستدخل إلى الخزانة، وهمس في أذن الإمبراطور سيدي أوقف هذا الأمر، لا ينبغي قتل العربي، ستهيج الناس علينا، إنهم يستمتعون من أفعاله، لا تقتله ارجوك .

نظر الإمبراطور إلى الأمير بطليوس؛ وقال له: أنت محق، أيها الحارس انتظر، هنا انتفض أحد الأمراء الجالسين مخاطباً الإمبراطور يمكنك أن تبيعه لي يا سيدي ولا تقتله، نستطيع أن نستخدمه في كثير من الأعمال.

سكت الإمبراطور قليلاً ثم قال: نعم أنت محق، أنا سأخذ هذا الأسود، وأنت ستشتري هذا العربي من بطليوس، وتبسم له الإمبراطور وتركه ورحل، وما أن رحل الإمبراطور حتى جلس بطليوس وأسند ظهره، وطلب شربة ماء يروى بها جسده الذي ذبل من كلمات الإمبراطور، وباع سراج العربي إلى الأمير كاكويتس بخمسمائة ليرة ذهبية، وكان سراج العربي أغلى مملوك بيع في روما، وانتقل للحياة مع الأمير كاكويتس.

بلاد خوارزم بداية عام (٥٨٨هـ) مدينة خوارزم التي تقع على نهر جيحون، والتي تعتبر من أكبر تجمعات المسلمين والخوارزميين على وجه الخصوص، المدينة التي انطلقت منها بداية الدولة، لذلك لها أهمية كبيرة عند الخوارزميين، في شاطئ نهر جيحون تستقر الأرض أمنة مطمئة، وتهدأ الرياح، وتزدهر الأشجار، وبين الشجيرات الصغيرة تجلس الأميرة صفية محاطة بجمع غفير من الحراس، وما أن أبصر ضياء هذا الجمع حتى أقبل إليهم يتحدث معهم: ماذا تصنعون في هذا المكان.

الأميرة صفية هنا يا سيدي، خرجت للتنزه قليلاً ونحن نحرس

المكان.

: الأميرة صفية آه، ونزل ضياء من على حصانه وسلمه للحارس،

وغدّ إلى مكان الأميرة صفية، ولما اقترب منها ألقى السلام.

أدارت صفية بوجهها اتجاه الصوت، وكانت جالسة ناحية البحر تسند يدها على ركبتيها ووجهها شاخصاً نحو السماء، وما أن لامست صوته وأدارت وجهها تسمر مكانه، وأغمض عينيه، وذهلت الأميرة من هذا الموقف، وهمت واقفة تتحدث إليه وتعيد الكلام، وعيناه في غيابات

الضياع، فلما أفاق من غفلته وتنبه لما بدر منه تحدث قائلاً: أيتها الأميرة وجودك هنا خطرٌ عليك، ينبغي عليك الآن العودة إلى القصر .

: ولكني أريد البقاء هنا قليلاً .

: لو علم الأمير مندوكان بهذا الأمر سيغضب عليّ كثيراً، أترضين

بذلك؟ .

: لا أرضى بذلك، ثم سكتت قليلاً، وأردفت قائلةً ألا يمكنني

البقاء هنا قليلاً، وأنت تبقى مع الجنود لحمايتي حتى يطمئن أبي؟ .

سكت ضياء من كلام الأميرة؛ وانشغل بعينيها التي اذهبت

بعقله.. يمكنك ذلك سيدي.. وظل بجوار الحراس يختلس النظرات إليها،

وهي تتصنع أنها لا تراه، وتتمايل يميناً ويساراً في جلستها، فترسم على

وجهها البسمة ثم تخفيها بآثار من الحزن، وتعود لهيئتها الطبيعية، وعينُ

ضياء لم تذهب بعيداً عنها، وما أن عزم الرحيل حتى أحضروا

الأحصنة، وانطلقت تسير بجوار ضياء تتحدث معه حتى أخجلته: لم تنزل

عينك .

نظر ضياء متعجباً من كلامها .

: ها؛ وسكت قليلاً، ثم أكمل قائلاً: مهمتي أن أحملك يا سيدي .

: سيفرح أبي كثيراً عندما أخبره بذلك .

: أنا في خدمتك وخدمة الأمير، كان الأمر صعباً عليه، خصوصاً
كلما رأى الأميرة صافية لم يرفع عينه من على الأرض حتى وصل إلى القصر،
فما أن وصلت إلى الباب حتى أدارت بوجهها نحو ضياء، لم يستطع أن ينزل
عينه عنها، فتبسمت له ودخلت إلى القصر، فوضع يده اليمنى ضارباً بها
وجهه من مفلق الرأس ونزل علي عينيه حتى أمسك بلحيته؛ وحدث نفسه
قائلاً ما هذا الذي صنعتة، يا الله كن معي في هذا الأمر، ومر الشهر على هذا
الأمر.. تخرج الأميرة للتنزه.. فيخرج في حراستها.. ويتحدثا سوياً في
الذهاب وفي الإياب.. وكانت هذه النظرة تختلف كثيراً عن باقي
النظرات.. وما أن وصلت إلى القصر- حتى هرول ضياء نحو الأمير
مندوكان وسلم سلاحه ودخل المجلس وألقى السلام فرد الحاضرين،
وهمس في أذن الأمير، ثم شاور له الأمير بغرفةٍ ينتظره بها حتى يفرغ من
العلماء ويقضي حاجة الناس، أه يا ضياء الدين ما أرى على وجهك إلا أمرٌ
عاجلٌ قد حضرت به.

: نعم يا سيدي هناك أمرٌ أريد أن أتحدثُ به معك .

: تفضل كلى أذانٌ صاغيةً، فلتقل ما تشاء وما تحب .

: في حقيقة الأمر سيدي.. الأمر يخص الأميرة صفية .
اعتدل الأمير مندوكان في جلسته وانتبه أكثر لكلام ضياء الدين،
هل حدث للأميرة شي، .

: الأميرة بخير يا سيدي لا تقلق .
لقد زادت حيرتي من كلامك، تحدث يا ضياء ماذا تريد أن تقول

: أبتلع ريقه بصعوبة، ثم أردف قائلاً: أنت تعلم يا سيدي بأني
أعتبرك في مقام أبي، فأنت الذي احتويتني وقت ضياعي، وقمت برعايتي
وقت إصابتي، وما أنا فيه الآن يعود إليك، والأموال التي اكتسبتها تعود
بفضل تعليمك لي .

:الله يشهد يا بني أني ما بخلت عنك بشي، وأنى اهتممت بك مثل
ابني، ولكن لماذا كل هذه المقدمة التي لا تحتاجها، قل ما تريد على الفور.
: في حقيقة الأمر، جئت إليك لأطلب السيدة صفية أن تكون
زوجة لي .

: آه؛ إذا الأمر هكذا، وتبسم الأمير مندوكان، ولكن أنت تعلم أن
هذا الأمر لا يخصني، إنما يخص الأميرة، ولا ينبغي لي أن اتخذ قرار دون
الرجوع إليها .

: لك ما تشاء يا سيدي .

: إذا فأنت تريد الزواج بالأميرة صافية .

: أحم وجه ضياء .. ونظر بوجهه إلى الأرض يزداد خجلاً .. نعم

. سيدي .

: إذا تنتظر حتى اسأل الأميرة وأرد عليك .

واستأذن ضياء الدين بالرحيل، وكأن السماء قد انطبقت عليه .

(روما)

أمام قصر الأمير كاكويتس، قافلة كبيرة محملة بالركبان، ومعها
عدد كبير من الفرسان والجنود، منطلقة إلى البندقية للتسوق والتبضع
وشراء اللوازم .

السيدة ماريا تتجهز للمغادرة مع القافلة، تحدث إليها الأمير
كاكويتس قائلاً: أتمنى عودتك في أسرع وقت، لولا إنشغالي مع الإمبراطور
لذهبت معك .

: أنت دائماً موجود بجواري يا سيدي، دعواتك وظيفك لا يفارقونني أبداً .

: فليكن الرب معكم وليحفظكم .

: آمين، أردت أن أخذ معي هذا المملوك يا سيدي.

: خذي ما تشاء معك من العبيد والمالِك إلا ذاك العربي.

: لماذا .

: أخاف عليك يا زوجتي الحبيبة من هذا المملوك أن يقتلك، أو يقوم بخطفك، أو قد يهرب منك .

: لا تقلق يا كاكويتس، هذا المملوك قوى وشجاع والجنود معنا

كثيرون، إن فكر بالهرب سيقبضون عليه، أردت فقط أن أخذه معي لأنه يستطيع أن يميز ما بين الجميل والقبيح، والملابس الأصلية والتقليد المجلوبة من بلاد الشرق .

: خذيته معك ولكن كوني حذرة منه، اربطوا يديه جيدا حتى لا

يهرب، فلقد حاول تكراراً فعلتها .

: شكراً يا كاكويتس وابتسمت له ماريا وقبلته في وجهه وغادرت

إلى غرفة سراج العربي، هيا أيها العربي ستذهب معي .

نظر إليها سراج نظرة اشتمزاز، وأشار إليها برأسه وانطلق خلفها، ولما وصلت إلى الهوداج الكبير قام أحد الجنود بالسجود على الأرض، فصعدت على ظهره بقدمها وأعتلت الهوداج (جملٌ كبير، وعليه خيمة مغلقة تحمي من بداخله من أشعة الشمس، ولا يرى من الخارج، ولكن من بداخله يستطيع رؤية كل شيء في الخارج)، أنت أيها العربي أمسك بالجمل حتى لا يفر وأنا عليه .

أومَّ برأسه إلى أسفل مُعرباً عن موافقته، وانطلق الموكب، وغادرت الحافلة روما مُتجهةً إلى البندقية، مازال العربي يقود جمل السيدة ماريما وهو مربوط اليدين، وفي الطريق، وقد زالت الشمس في المغرب واقترب الليل، وبعد فترة طويلة من المسير توقفت القافلة للاستراحة، وعسكر الجنود، وأقاموا المخيمات، وأحاطوا بالمكان، ونزل الجميع وسكنت السيدة ماريما بخيمة كبيرة في منتصف المكان، وأحاطت بها الخيم، والجند في كل مكان يتناوبون، وقام أحد الجنود ببناءً أعلى أمر السيدة ماريما بجلب سراج العربي مربوط اليدين، وربطه أمام خيمتها، جلبه مجرور حتى سقط منه أمام الخيمة، واشتد غضبه، وأحمرت عيناه وكاد أن يفتك بالجندي، لولا خروج السيدة ماريما من خيمتها في الوقت المناسب لتغيرت

الأوضاع ولربما سالت الدماء، صاحت في الجندي غاضبةً: هل أمرتك بهذا أيها الغبي .

:اعتذر إليك يا مولاتي، خفت عليك من هذا المملوك .

: فك رابطه الآن وأرحل .

:أمرك يا مولاتي .

: تعال يا سراج أدخل، أدخل لا تخف .

: العفو أيها الأميرة، أنا لا أخاف إلا الله، ولكني لا يجوز لي أن

أدخل خيمتك، إن علم السيد كاكويتس بذلك لن يرحمي .

: أتخاف من كاكويتس، لا تخف، أدخل سأعالج جرحك، دخل

سراج خلف السيدة ماريا .

:أنت مسكينة مثله، تظنون أي أخشاكم، أو أي أخاف من عذابه،

لقد أتيتُ عزيمةً تخر لها الجبال، أنا لا أخافه، هو من يخاف ويحتمي في

جنده، وأنا مربوط، سيحين وقته عاجلاً .

: نام هنا .

: ولكن يا سيدي .

: لقد أمرتك هل ستخالف الأمر .

أراح جسده على السرير كما أمرته، وكانت السيدة تحضر-
الأعشاب لعلاجها، وأتت بها وبدأت تضعها في مكان الجرح، وجلبت له
الطعام، وجلست بجواره حتى أغمى عليه من شدة التعب والإرهاق،
وتركته نائماً وظلت جالسةً بجواره كأنه الزوج وكأنها الزوجة.
لم يمر وقتٌ طويل حتى قام سراج من نومه مفزوعاً، والتفت إلى
الأميرة فوجدها نائمة على الأرض.

:أيها السيدة ماريا استيقظي.

: ما الذي حدث أيها العربي.

: استيقظي لقد أخذ منك النوم مأخذه.

: نعم لم أشعر بروحي، لقد غفلت عيني وأنا بجوارك.

: استريح في مكانك، سانتظر في الخارج حتى الصباح.

: أنت محق، يا حراس، اربطوه في الخيمة حتى الصباح.

: لماذا، لا تخافي، لن أهرب.

نظرت إليه مبتسمة، ودخلت الخيمة، وربطوه بجوار الخيمة
ملتصقاً بها، وفي الليل الدامس والعين شاخصةً في جو السماء تنظر بحسرةٍ
وبكاء، والقلب يدعوا ويرجوا الله أن يخلصه من هذا البلاء، سمع الله دعاء

عبده المكروب من فوق سبع سموات، (إن الله سميع مجيب الدعاء)،
وراحت عيناه في غفوة، ورأى شيخاً جليلاً في المنام وعليه حلة بيضاء
مرصعة بالذهب والفضة واللؤلؤة، مابك يا بني .

: ألا ترى حالي يا سيدي، أسيرٌ بأيدي الكفار، لا أستطيع الحركة،
ولا أستطيع الإقبال، حتى أنفاسي محصورة، وقلبي منكسرٌ من ذل الأسر .
اصبر يا ولدي واستعن بالله ولا تعجز، واعلم أن الله مطلعٌ على
حالك .

: ولماذا لا يجيب دعائي ولا يُنهي تلك المحن والإبتلايات .
: النبي صلى الله عليه وسلم قال، أشدُّ الناس بلاءاً الأنبياء، ثم
الصالحين، ثم الذين يلونهم، ويبتلى المرء على قدر دينه وإيمانه؛
أنت الآن في درجة عظيمة يا بني .. وشأنٌ كبيرٌ عند الله .. فالله
عز وجل لا يختبر أي إنسان ولا يضعه في تلك المحن إلا من أجل رفعة
الشأن .. وعلو الدرجة .. فاصبر والأجر من الله .. ولا تجزع .. ولا تيأس ..
وانتظر الفرج .. فأن العسر مقرون بيسرين .. لا تدري لعل الله يحدث بعد
ذلك
أمراً .

: صدقت يا سيدي، ولكن البلاء شديدٌ وعظيم .

: يقول النبي صلى الله عليه وسلم (إذا أحب الله عبداً ابتلاه) ،

فلقد قدم الله محبته لعبده قبل وقوع البلاء، أرأيت يا بني، إن من محبة الله لعبده أن يبتليه حتى يطهره من الذنوب، وينقيه من الشوائب، ويرفع الدرجات، ألا ترضيك محبة الله لك .

: بلى، والله أَرْضَى بِمَحَبَةِ اللَّهِ.

وأفاق من الغفوة التي راحت به إلى أرضٍ غير الأرض، ودارٍ غير

الديار، ليجد صريحاً في المكان باللغة الاتينية **IMPETUS IMPETUS**

IMPETUS وهروا الجنود من أمام الخيمة نحو الصوت، وتركوا الخيمة

بلا حراسة وبدخلها الأميرة ماريبا، وأصوات صرخٍ تعلو المكان، واعتلى

صوت صليل السيوف بين المهاجمين والجنود، وتساقط الجنود من الهجمة

عليهم، وما يرى أحداً أحداً من شدة العتمة، وكأن الله قد استجاب

للدعاء، واقترب اثنين نحو الخيمة، فلاحظوا وجود العربي، فاقترب

أحدهم منه، ودخل الآخر الخيمة، وكأنهم على علمٍ بمن داخل الخيمة، وما

أن رفع السيف يريد قتله حتى ركع كركوعه في الصلاة، ومر السيف من

فوق رأسه فقطع الحبل المربوط بالخيمة، فركله سراج بقدمه فسقط على

الأرض مُغشياً عليه، فلف الحبل حول عنقه حتى اختنق ومات في وقتها، حاول فك الرباط ولكنه كان محكوماً على يديه، همس في نفسه، السيدة مارياء.. ماذا اصنع يا الهي، خرج المهاجم يحمل السيدة مارياء على ظهره، وما أن رآه واقفاً مكانه وصحبه ملقى على الأرض حتى ترك السيدة وألقاها على الأرض، وأقبل ناحيته ويد سراج مربوطة، فانزعج لذلك، وأراد إنهاء أمره على وجه السرعة، كان الخوف في عين سراج عندما اقترب منه، ولكن ما أن رفع السيف حتى وضع الخنجر في بطنه فسقط أيضاً على الأرض، وقطع الحبل، وأخذ السيف وغرسه في بطنه، وهروا ناحية السيدة مارياء يحاول إيقاظها، لقد قام بضربها على رأسها حتى اغشي عليها، ولما أفأقت لم تستوعب ما حدث حولها غير أنها صرخت لما رأت الجثث مُلقيةً على الأرض، فأخذها من يداها، وهمس في أذنها أن تسير بحذرٍ شديد، كان الجنود حينها قد فرغوا من أمر المهاجمين، وقتلوا منهم من قُتل وهرب الباقي، لقد اتضح الأمر له، إنهم جاءوا لأمرٍ معين، قام البعض بتشتيت انتباه الحرس حتى يقوم الآخرين بمهمتهم، وهي خطف السيدة مارياء، ثم رحل الباقيين ظناً منهم أن الأمر قد انتهى، وهروا الجنود نحو الأميرة

ماريا، وكان واضحاً على الجميع القلق، إلا ذلك القائد الذي كان يكرهه من أول لحظة رآه فيها، هل أنت بخير سيدي .

: نعم، أنا بخير، لا تقلقوا، طالما هذا الشجاع بجواري لن يستطيع أحد أن يقترب مني، ونظرت إليه بعينيها تُخالطُ عيناه، حتى أنه أدار وجهه عنها، وقالت فليحفظك الرب،

وذهبت إلى خيمتها وتركت السيف معه، بالرغم من اعتراض القائد سانتوس، إلا أنها أصرت، نظر سراج ناحية ذاك القائد قائلاً لنفسه: لست مرتاحاً لنظراتِ عينيه، توحى بأمورٍ غريبة .

وانطلقت القافلة من جديد، ولكن هذه المرة كانت السيدة ماريا على فرسٍ تسيّرُ بجوار سراج العربي، فتحدث إليها قائلاً: وكانت تنظر إليه بشغف: سيدة ماريا عندي سؤال .

: ها، ماذا تريد، وقد عادت من شرودها .

: عندي سؤال أريد جوابه .

: قل ما عندك .

: لماذا أراد قطاع الطرق هؤلاء خطفك .

: هؤلاء ليسوا بقطاع طرق .

: ماذا تقولين، وكيف عرفتى ذلك .

: هؤلاء جنود القائد سيساوس من آل سالية يريد استرداد ملك

أجداده الذي سلبه منهم آل هشافوننتية .

: لم افهم شي سيدتي .

: آل هوهنشتاوفنية، والذي منهم الإمبراطور فريدك كونكرد

الثالث، كانوا قد أخذوا الإمبراطورية من آل السالية، وشردوهم في البلاد،

واستولوا على أملاكهم، فآل سالية يحاولون استرداد ملكهم، لأجل ذلك

أرادوا خطفي .

: آه فهمت يا سيدتي، إذاً هذه حرب ملوك، وما دخلك أنتِ بها .

: نعم حرب ملوك، أنا زوجة أمير من بيت آل هوهنشتاوفنية،

فخطفي بالتأكد سيؤثر .

: ولكن يا سيدتي كيف وصلوا إلى خيمتك بتلك السهولة .

: ما قصدك يا سراج .

: لا شي يا سيدتي، خذي حذرِك أكثر من ذلك، فالخونة بيننا كثير .

مدينة خوارزم

(قصر الأمير مندوكان).

في مجلس العائلة، يجلس الأمير وحوله الأسرة، مجتمعين على مائدة الطعام، ودار الحديث بينهم، كيف حالك يا صفية.

: بخير يا أبي والحمد لله، أدامك الله في حياتنا يا أبي .

: سلمت يا بنيتي، اليوم جاء ضياء الدين إلى وتحدث معي في أمر

يخصك .

انتفضت صفية من مكانها فزعة وكأن قلبها قد أخذ عنوة، في ماذا

يا أبي تحدثتم .

: مالك يا بنيتي مفزوعة، الأمر بسيط، إنه يريدك زوجة، أخبرته

أن ينتظر حتى تدلي بدلوك، ما رأيك يا صفية .

: نظرت صفية بوجهها إلى الأرض ولم تنطق بشيء، غير أن الخجل

قد حل، والوجه قد ازداد بهاءً واحمراراً من أثر الكلام، وأردفت قائلةً:

الأمر ما تراه يا أبي .

: ضياء الدين شابٌ شجاع، مكافحٌ مجتهد، ولم يصل إلى تلك

المكانة من فراغ، بل قاتل من أجلها، وحارب كثيراً ليصل إليها، وشارك

معي في الكثير من المعارك، لا أظن بأن مثله يرفض، على بركة الله، إن شاء الله يكون عقد النكاح في اقرب وقت .

ولما كان الصباح وضياء الدين في مكانه لم يتحرك له ساكناً، أرسل في طلبه الأمير مندوكان في قصره، وعلى الفور استجاب ضياء وكله شوقاً وحين لسماع خبر جميلٍ يزيلُ عنه الهموم، ويريح قلبه المفطور، وما أن دخل على الأمير حتى ألقى السلام، وجلس بين يديه، ابشر- يا ضياء، واستعد، وتجهز لحفل الزفاف، سيكون في اقرب وقتٍ أن شاء الله .

:أنا لا اعلم ماذا أقول سيدي، ولكن أشعر وكأني أطير من

الفرحة، وقبل يده وانطلق إلى منزله .

.....

حفل زفاف ضياء وصفية، في منزل الأمير مندوكان حضر الأمراء، وقبلوا دعوة الأمير مندوكان لحضور حفل الزفاف، وبعد إتمام العقد.. انصرف الزوجان إلى الديار، وما أن دخلت البيت وتمثلت صفية بين يدي ضياء، أمسك بأناملها وكانت في أبهى صورتها، بزى أبيض منير، برقعٌ طويلٌ جَلِبَ لها خصيصاً من الشام، متزيّنةٌ بجملها، ولما خلعت البرقع، برز

من الجمال ما أضاء عيناه، فقد كشفت عن ساقها، وبرز من الكتف ما بان،
فقال صاحبها سبحان من أضاءك بنور السماء .

: أنا سعيدة يا ضياء أن استجاب الله لدعائي وجمعني بك .

: الحمد لله يا صافية، منذ أن وطئت قدمي هذه الأرض ورأيتك،

وأنا ادعوا الله أن يجمعني بك .

: أتذكرُ كيف كنتَ تنظر لي وأنا مع أبي، ونظراتك لي وأنا في

الحديقة، وتبسمت .

: أتذكر، لقد سلبتي منى عقلي وقلبي .

: وأنت سلبت منى روحي يا ضياء، لا أعرف ما الذي كان

سيحدث لي إن لم أتزوجك .

: رفعت يدي بالدعاء إلى الله ألا يخيب فيه رجائي، وأن لا أخسرِكِ

أبدًا .

: الحمد لله .

(روما)

صفر سنة ٥٨٩ هـ

وعلى أرض غزنة لم تنتهى الأفراح، وعلت سائها بالتكبيرات،
وصدعت المساجد بذكر الله، لما وصلت الأخبار؛

بانتصار السلطان العظيم شهاب الدين الغوري على ملك الهند
وأسره، وغنم أكثر من سبعة عشر فيل ضخمة من أعظم فيلة الهند، وكان
أعظمهم ذلك الفيل الأبيض الكبير، وإذلال ملك الهند، وتوغل السلطان
بالبلا، وسيطرته على الكثير من بلاد الهند، وتركه بها مملوكة قطب الدين
أيك، تلك الأنباء قد وصلت إلى روما أسرع من الرياح، مما أصاب
الإمبراطور بالحزن لأنصار المسلمين وتفوقهم وسيطرتهم على البلا، كان
حامل تلك الأخبار إلى سراج العربي سامور خادم الإمبراطور، ورفيق
سراج في تلك المرحلة، وكانا يتقابلا خفيةً بين الأشجار عند الأنهار، وكان
سامور ينقل كل الأخبار من قصر الإمبراطور إلى سراج العربي .
: ماذا صنعت في الأمر الذي طلبته منك .

: لا تقلق يا سراج قريباً جداً ستعود إلى بلادك، أنا أجمع المعلومات من أجلك .

: جميل يا سامور، لا بد وأن أرحل حتى لا يلاحظ ذلك الأمير كاكويتس .

: تمام، سأقابلك قريباً .

وفي الطرقات، قامت الاحتفلات، وابتهج الناس، وسعد الأمراء، واصدر الإمبراطور أمره بتوزيع الأموال على الفقراء، وإقامة الحفلات الليلية، ظن في بداية الأمر أنه انتصارٌ للرومان على أعدائهم، أو أن الإمبراطور قد أنجب ولداً لأجل ذلك يحتفلون، ولكن هرول مسرعاً إلى المنزل، فوجد السيدة ماريا جالسة والماشطة تحت قدميها تقلم أظافرها، وكانت واضعة قدماً على قدم، وكانت في صورة لا تضاهيها جمالاً وبهاء، وكأنه ليس بالدار، وكأنها تفعل ذلك بقصد الإغراء، فوقف مكانه ينظر إليها وهي في غاية السعادة، كأنها انتصرت أخيراً في معركتها .

: ما بك يا سراج، لماذا تهرول هكذا، أهنالك طائرٌ يملقُ فوق

رأسك، أما هناك من يريد قتلك .

: لا ذلك ولا ذاك، رأيت الأفراح اليوم، وابتهاج الناس وقد جئت
لأعرف الأسباب منك.

: ألم يخبرك أحدٌ بعد يا سراج .

: لا، لم يخبرني أحدٌ بشيء .

: لقد مات صلاح الدين، الجميع سعداء بذلك الخبر الجميل،

والأفراح عادت من جديد إلى روما وابتهاج الإمبراطور بذلك الخبر.

كانت قطرات الدموع قد وقفت في عينه ولم يستطع إيقافها،

وتهددت نفسه، وتشنجت روحه وكادت تخرج من حلقه، لم يتصور ما

حدث وما وقع، ولماذا دائما يموت الأبطال ويبقى الأندال!

لماذا لا يريحنا الله من الأشرار؟،

ما بقي على الأرض من الصالحين فقد قبضهم الله، إلى متى سننتظر

صلاحٌ جديد يجمع الناس حوله.

: ماذا حل بك يا سراج إلى أين ذهب عقلك، إنك تبكى، إلى هذا

الحد تحب هذا الرجل.

: لا شيء، ومن لا يحب صلاح الدين.

وقامت من مكانها وجاءت إليه، ومسحت الدموع بيديها عن عينه وتلك أول مرة تصنعها، واحتضنته، ولما استطع أن يعي بنفسه أو يسيطر على أعصابه وقد غرق بدموعه مع روحه يبكي، ولم يستطع التوقف، أنا اعلم انك حزينٌ لهذا الخبر، وأنا أيضاً حزينة، لقد كان نعم الرجل ونعم العدو، لا تبكي؛ فليرحمه الرب وليرحم شوقي وحببي .

بعد ذلك الموقف زادت تلك المرأة جرأة، وأصبحت تموم حول سراج ليل نهار، لا يهدأ لها بال ولا يستقر لها قرار، تحاول ولا تيأس من أجل هدفها، حتى أنها وضعت هذا الأمر وكأنه مقدسٌ لديها، تدعوا سراج إلى غرفتها، وتمثل البكاء وتقوم باحتضانه، مرات متكررة على هذا الحال، وثيابٌ ترتديها في غير موضعها وكأنه الزوج، حتى أنها ذات ليلة جاءت إلى غرفته وأيقظته من نومه وأخذت تتحدث في أمور كثيرة تدخل الحوار في الحوار لا يدري ماذا تريد من هذا الكلام، غير أنها أصبحت بالنسبة لها عادة، تأتي في غسق الليل مشمراً عن ساقها وكتفها والحرير على جسدها كأنها والثياب خلقاً معاً، لم يعد مجرد حديث فبدأت تظهر عن نياتها، وفي تلك الليلة جاءت وكأنها بدر والكواكب زينتها، وأعتلت روضةً وجلال، وأصابها الغرور، وارتدت أجمل الثياب، من يراها يظنها بدون ثياب كل

شيء أصبح مباح، ودخلت الغرفة وأغلقت الباب خلفها، وراحت على سرير سراج وأسرجت أناملها تجري في جسده كأن النمل يسير على جسده، فاستيقظ من النوم وأجمل ما رأت عيناه من الناس كانت جالسةً فوق رأسه : سيدة ماريا ماذا تصنعي .

: لا استطيع الانتظار، لقد سلبت قلبي وأحرقتني بنار الأشواق.

: واعتدل جالساً ماذا تقولين .

: الليلة أنت لي وأنا لك، ولن يستطيع أحد أن يمنعني من ذلك.

: وقام مهرولاً نحو محرابه يعتصم به، ماذا تقصدي سيدة ماريا أنا

لا افهم شيء؟.

واقتربت منه ووضعت يدها على صدره وغفلت عيناه وخفق قلبه

وضعفت نفسه، ماريا لا ينبغي أن يحدث ذلك .

: لقد انتظرت هذه اللحظة كثيرة، ولن أدعك الليل حتى أحصل

على مرادي .

وظلت تراوده وتحاول إقناعه، ولكن لا يعلم ما الذي غاب عنه

في هذه اللحظة، كأنه أسيرٌ في طاعتها .

: ولكنى عبدك وهذا محرم للأسياد .

: صحيح أنت عبدي يعنى ملكي، يعنى يحق لي أنا أفعل معك ما
أشاء، واقتربت بوجهها من وجهه، ومالت بصدرها على صدره، وسقط
على الأرض وسقطت فوقه، ولكن كأن الله لم يدعه وحده، فجأة صوت في
أذنه يناديه استيقظ فقد حان وقت القيام، وكأن هذا الصوت قد تلي قوله
تعالى (وَرَاوَدْتُهُ النَّبِيُّ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ
لَكَ ۖ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۗ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ
(٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۗ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ۗ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ
عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۗ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤))، يا الله، في هذه
اللحظة تذكر يوسف الصديق وامرأة العزيز وما حل بيوسف، فانتفض من
مكانه وقام من عليها، وهرول نحو الباب يهرب منها، فقامت خلفه
فجذبتة من يده، فلما يدري ما حدث، غير أنه لطمها بظهر يده على وجهها،
فتغيير وجهها واشتعلت عينيها بنارٍ ولهب، وفتحت الباب تجر خلفها
أذيال الهزيمة والإنكسار، وتوضئ وذهب إلى المحراب يصلي ويدعو، إلهي
أنت اعلم مني بنفسي، خلقتني وتعلم ذنبي، رباه قد ضلت بي الطرق ولم
يعد لي إلا سواك ملهأً، فأثر طريقي بالهي رحمةً كي لا التقي بعداي، إن لم
تكن أنت المعين فكيف أُلجئُ إلى العبيد وأنت المستغاث به في كل وادي،

ادعوك أرجو المحجة بنقائها، قد بت خسر-انا إن لم تكن الراضي، الهى لا
تواخذني في غفلي، ولا تعذبني بشهوتي، وأخرجني من عينيها، وأنر
طريقي بنورك الذي لا ينقطع، الهى بحق ما بعثت محمداً للعالمين اغفر لي .
وما أن أصبح الصباح، حتى أقبل ناحيته الأمير كاكويتس غاضباً،
والنار تشتعل في عينيه لهيباً وخلفه عشرة من العساكر أحاطوا به من كل
اتجاه، فأمرهم قائلاً أمسكوه، إياكم أن يفلت منكم، احذروا منه، اربطوه
في هذا العمود، وقاموا بجلده حتى تورم ظهره من الجلد، هل ترفض طلب
السيدة ماريان، هل نسيت نفسك أيها العبد وتجرات على أسياذك، أنا من
صنع ذلك بك، إن كنت أدبتك من زمن ما حدث ذلك، إياك بعد هذا اليوم
أن ترفض أي مطالب السيدة، أو تقطع لها أمراً، وظل الجلاد يضربه بقسوة
كأنهم ينتقمون منه لأنه رفض إغرائها، اللهم فك الأسر عنى واعدني إلى
الديار .

: لا أحد يعطيه الطعام أو الشراب بدون إذن، ومن يفعل ذلك

سأريه كيف يكون العذاب، هيا إلى أعمالكم .

وما أن أسدل الليل ستاره حتى خرجت السيدة ماريان متكرة

بملايس طويلة تغطي جميع جسدها، وعليها غطاء رأس تتخفي بداخله،

وما أن وصلت وانصرف الحراس وجاءت بجواره وأخرجت الماء والطعام، تطعمه وتسقيه، صدق من وصف الجوع بأنه كافر، رأيت يا سراج ما وصلت إليه، لو أنك اطعنتى ما حدث لك كل هذا، قلبي لم يطاوعنى أن أتركك وحدك هنا بدون طعام ولا شراب، اطعني يا سراج تفز بكل شيء ويخضع لك كل شيء، لا تترك قلبي يحترق بناره .

: رضيت بما قسمه الله لي أيتها السيدة، لن أعصيه ولن أغضبه،

ولتعلمي أنه المنجي من كل بلاء.

لم تتحمل السيدة ماريما ما يحدث لسراج العربي حتى شفعت له عند الأمير كاكويتس فأفرج عنه وحبسه في غرفته وجعله يخدم في المزارع طول اليوم..

روما ٥٩٠هـ

أصبح الأمر روتين يقضيه، في الصباح الباكر ينطلق مع العبيد إلى المزارع يقودهم العساكر ضرباً بالكرباج، ولكنهم كانوا يخشون منه خوفاً من قتلهم، فيستقون على الضعيف، وفي آخر اليوم تأتي السيدة ماريا إلى غرفته تحدّثه عن ضياع الفرصة من بين يديه وعن قبوله الذل وترك العزة، كان بإمكانك الآن أن تكون خير الفرسان في روما إن أطعت أمري، لا اعلم ما الذي يعجبك في هذا الذل.

تمر الأيام إلى أن أقبل ذلك اليوم، عندما خرجوا في الصباح، كان القصر يتهياً لاستقبال شخصٍ عظيم، ظنّ في بادئ الأمر أنه الإمبراطور، ولكن عرفَ بعد ذلك من حديث العساكر أن الأميرة إرين ابنة الأمير كاكويتس في الطريق إلى القصر، تفاجئ كثيراً من وجود ابنة للأمير، على الأرجح أنها طفلة صغيرة، فالسيدة ماريا فأواخر العشرينات من عمرها، في حديث نفسه: لا يشغلني الأمر .

وأمسك القلم وتذكر صديقه ثم كتب ما حضر في ذهنه، إلى الرفيق قبل الطريق، إلى الصديق قبل عنوان الرواية، إلى الصاحب قبل البداية، إلى الذي سار معي على الأشواك فدُمي ودُميت وتقطعت بنا السبل وتفرقت

بنا الأهواء وسيرنا في مفترق الطرقات نبحث عن النور في الظلمات، إلى الذي سكن القلوب قبل العقول، وتعلقتُ بحبله فأشدتُ الحبل واستقيت به فما خارت قواي، إلى الذي سألته وأجاب، وألهمني النور في الظلمات، إلى من كان طيفه يسكن أعماقي، إلى رفيق الدرب، إلى الذي ظل حاضراً في الغياب، إليك إهدائي ومعك أدفن الأسرار، إلى من جد جده وعظم أمره وقدر له الابتلاء بالأسر في سن الشباب، إلى أصحاب المحن والشدائد، إلى الصابرين في البأساء والضراء، ثم أردف كاتباً

أريد الصمت كي أحيأ ولكنَّ الذي ألقاه ينطقني، ولا ألقى سوى حزنٍ على حزنٍ على حزن، أأكتب "أنني حيٌّ" على كفني؟، وألقي القلم على الأرض، وما أن تذكر ما حدث في تلك الليلة المشؤمة وخيانة اقرب الناس إليه، شرع مرة أخرى في الكتابة ودون، إلى ناكثين العهد والأيمان، إلى الخائنين في كل مكانٍ وزمان، إلى الباذلين نفوسهم رخيصةً من أجل المال، إلى الساقطين في مستنقع القاذورات، إلى الحاقدين على الآخرين، إلى أصحاب العقول المريضة، لقد حلت عليكم اللعان أينما ذهبت، وأوجبت علي دياركم الخراب أينما رحلتم وتواجدتم، وحل بكم العذاب إن شاء

الله، لا سأمحكم الله على ما فعلتموه من خياناتٍ من أجل رقعة أرض أو قطعة مال .

أسبوعٍ وأكثر على عودة إرين إلى قصر أبيها، لم يراها حتى الآن، ولم يشغله وجودها أو وجود أبيها، كل ما يفكر فيه هو الهروب من هذا المكان والعودة إلى الديار، يلتقي بسامور سرّاً، يتابع معه إلى أين وصل من جمع المعلومات، انه يقدم له الكثير، لقد علم بأنه مدين له ووجب عليه رد الدين في وقت من الأوقات، واخبره هاتشوريا يرسل لك السلام ويرغب في لقاءك، سأجلبه معي المرة القادمة، وانطلقوا؛

وعاد مُتحصناً في غرفته يصلي لله ما استطاع

:هل هذا هو العربي الذي تحدثتي عنه يا زوجة أبي وأشارت إليه؛

كانت المتحدثة إرين

:نعم هذا هو، على هذا الحال دائماً، إما في أرض أبيك في الصباح

يعمل، وبالليل يتهدد كما ترى.

:لقد رأيت الكثير مثله في الأندلس، لا يختلفون كثيراً كونه عربي

وهم أندلسيون، اختلاف الأعراق والأعراف والعادات، إلا أنهم

متشابهون كثيراً في عبادتهم وأخلاقهم وتعاملهم، هذه الصلاة أمرٌ لا بد منه

عند كل المسلمين، حتى ملوكهم وأمراءهم الكل يصلي، المساجد ممتلئة^١
ومرعبة^٢ جداً .

: الأندلس جميلة يا إرين .

:إنها الفردوس يا ماريا، إنها الحلم الأبدي للمسلمين، ما كنت
أتمنى في يوم أن أرحل عنها، ولكن أبي أراد رؤيتي .
:لقد اشتقت إليها .

: الشوق يشواق إليها يا زوجة أبي.. إنها فردوس المسلمين.. أرض
الأحلام.. يأتي إليها من جميع البلاد.. أن اردتى تصنيفها فهي من الأراضي
المقدسة للمسلمين.. في المرة القادمة سأخذك معي لتري بنفسك الجنة .
: أتمنى ذلك، أتمنى رؤيتها والإبتعاد عن روما قليلاً، ماذا سنصنع
الآن معه .

: سأريك ماذا سأصنع به، وابتسمت لها وارتحالا .

مر يومان، سراج العربي ساجد، وإذ بالقنديل ينطفئ، والقمر في ليلته مكتمل، الشباك يدخل ضوء خافت، وما أن فرغ سراج من الصلاة حتى ذهب إلى السراج وأشعله وعاد إلى مكانه وأكمل صلاته، وما أن أقبل من الفراغ من صلاته حتى قامت بإطفاء القنديل مرة أخرى، وما أن انهى سراج صلاته حتى ذهب وأشعل النار مرة أخرى، ولكن هذه المرة وهو يلتفت رأى إنسانة تقف تحت الشباك، وكانت في صورة بهية، ترتدي من الأبيض فستاناً طويلاً، له ذيل مجرورٌ في الأرض، ليس له أكمام، وعقدٌ من اللؤلؤ، تفاجئ سراج مما رأى وأنفزع سبحان الله من تكوني .

: أنا عفريتٌ من الجن .

: عفريتٌ من الجن وتحدث العربية .

: نعم أتحدث العربية والكثير من اللغات .

لم يعي سراج ما يحدث حوله غير أن ضربات قلبه ازدادت بقوة ووجد صعوبة في التنفس وكأن عيناه تدور حوله من الدهول، وماذا تصنع هنا يا جنية، هذا المكان ليس مكانك، أرحلِ عنا .

: لماذا تريد مني الرحيل، لقد جئت إليك حتى أراك وتراني .

: وأنا لا أريد رؤيتك .

: هل تخاف منى .

: أنا لا أخاف من أحد، أنا لا أحدث أجنبية.

: أنا مسلمة مثلك ولست أجنبية .

: سبحان الله مسلمة وبهذا السفور، كيف يكون ذلك، لم نرى

السفور من قبل في النساء .

: أنا جنية ولا يراني أحد على هذا الحال غيرك.

: لم نختلف كثيراً ما زالت أجنبية عني، حتى وإن كنت جنية فهذا

لا يعطيك الحق في التبرج، هيا أرحل عن غرفتي وتركها، وما أن هم إلى

صلاته حتى قالت ألا تخاف منى .

: مسكينة كيف أخاف منك، والله مولاي، الجن أضعف من أن

يواجهني، لقد استخدمهم سيدنا سليمان للسخرة ولخدمته، فما استطاعوا

أن يخرجوا عن أمره، وما استطاعوا الهرب، لقد قال الله تعالى في كتابه وما

هم بضارين به من احدٍ إلا بإذن الله) وتركها وانطلق إلى صلاته، وأطفأت

السراج ورحلت تنفث في الهواء، وأخذ يتلوه قوله تعالى (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ

الْمُوتَ مَا دَهَّمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ

الْجَنُّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ)

: إنه عنيدٌ أليس كذلك .

: إنه عاقل، في الأندلس كان الطلاب يتوافدون سنوياً حتى ينالوا من علم العلماء، لقد جلست مع إحدى الفتيات التي جاءت مع أبيها وأخاها لتلقي العلم، تخيلي يا ماريًا تقول لي بأنها ذهبت إلى بغداد ودمشق والقاهرة وبخارى ونيسابور وخوارزم وغزنة وقونيا وطرابلس والقيروان ومرآكش مع أبيها وأخاه لتلقي العلم، لقد طافوا العالم بأكمله، وغادرت إلى غرفتها .

قالت ماريًا في نفسها فتاةٌ تطوف العالم مع أبيها وأخاها وأنا لا أستطيع الخروج من غرفتي إلا بأذن كاكويتس، إنه لأمرٌ عجيب .

اليوم التالي

انطفأت النار من المصباح، واشتعلت نار سراج العربي وهو ساجد في آخر ركعة، ولكنه أكمل صلاته ولم يلتفت ولم يشعل المصباح، وصلّى في عتمتِ الغرفة يصلي الصلاة خلف الصلاة، يحدث نفسه، هي تظن بأنني أخاف منها وأخشأها سأثبت لها عكس ذلك، لا يتحرك ساكن في الغرفة

حتى ظن بأن من أطفئ المصباح هذه المرة الهواء وليس هي، فقام وأشعل الفتيل والتفت ناحية الشباك فلم يجدها فاخذ تنهيدة عميقة والتفت بوجهه ناحية مصلاه، فإذا بها تجلس جلسة التشهد مرتدية الحجاب وعليها ثيابها الفضفاض، وكان لون الجلباب أحمر غامق .

: ما الذي أتى بكِ إلى هنا .

: جئت لكي أراك، ما رأيك الآن في وقد أرتديت الحجاب

والفضفاض .

: جميل ثبتك الله على الإيمان، استمرى في هذا، فهذا خلقٌ حميد .

: نعم أنت محق في كلامك، لقد رأيت الفارق كثيراً بين بلاد

المسلمين وبلاد الروم، الفارق واضح .

: هذا الثياب جميل، يشبه ثياب الأندلسيين .

: نعم أنه ثياب أندلسي، وأنا جنية من بلاد الأندلس .

: جنية من بلاد الأندلس، ولماذا جئتِ إلى هنا يا جنية .

: جئت كي أراك، ألا تحب أن تراني .

: لا أحب أن أراك .

: ولكنى أحب أن أراك، لقد ذُبتُ فيك عشقاً، ألا ترحم قلبي
وترحم روح العشاق .

: أعوذ بالله من شيطانة تهوى من بني البشر، هذا مخالف للعقيدة
ومخالف للأجناس، هذا لا يجوز .

: أنا أراك منذ زمن وأحببتك كثيراً وتمنيت لقيأك، وقد أتى هذا
الوقت وحل هذا الزمان، وهمت بلمسه فابتعد عنها، الآن سيرت تخاف
منى وتبسمت .

: لقد خفتُ على وضوئي من الزوال، ولم أخف منك أيتها الفتاة،
أقول لك لأخر مرة لا تؤذى فؤادك مرة أخرى، إذ أراك صاحب الدار
سوف يعذبك عذاباً شديداً، غادرِ غرفتي ولا تعودى .

" لماذا تصنع معي كل هذا، أنا أحبك كثيراً وأرغب فيك، أفتلك
يسكنه أحد، هل هناك من تشغل فؤادك .

: نعم صدقتي فقلبي مليءٌ بحب الله، أهنأك فتاةً تستطيع أن تسكن
هذا القلب، أظنه مستحيل .

" لماذا تعاملني بهذه القسوة .

: لقد أخبرتك أن رالك الأمير كاكويتس سيعذبك عذاباً سيئاً، حينها ستتمني لو أن روحك لم تلقاني، وقال في نفسه لعلها إحدي جواري الأمير.

أصبح الأمرُ اعتيادياً، تأتي الفتاة كل ليلة تسكن قليلاً تسمع آيات القران بصوته العذب كأنه ماء الفرات قد أنساب من أعالي الجبال حتى سكن على حوافي الشاطيء، كأنه يتغنى فيبهر من حضر، ويسكن فؤاد من جلس، تتحدث معه قليلاً ثم ترحل، حتى جاء هذا اليوم، عندما تجهزت الأميرة إرين والأميرة ماريا لمغادرة القصر ذاهبين نحو قصر- الإمبراطور، بعد إلحاحاً تام، أقنعت ماريا زوجها بأن يأذن لها في أخذ المملوك العربي معها في هذه الرحلة حتى يكون في خدمتهم وحراستهم، وانطلق الموكب نحو قصر الإمبراطور، وما أن وصل حتى نزلت السيدة ماريا ومن خلفها إرين، في هذه اللحظة تسمر سراج العربي في مكانه من الذهول هولاً مما رآه، أهي حقاً، أم أنها شببتها، سبحان الخالق إذا أبدع، ولكنها من غير حجاب على هيئتها الأولى التي ظهرت لي فيها، من تكون هذه، والتفت بوجهها نحوه وابتسمت، ودخلت القصر والسيدة ماريا تنظر إليه بلهفة واشتياق، وهرول خلفهم فهذا أمر من السيد كاكويتس أن يبقي بجوارهم

فهو مملوكه، واستقبلتهم زوجة الإمبراطور وسلمت على ماريانم
احتضنت إرين كثيراً، حمداً للرب على سلامتك يا إرين لقد أخذتك منا
بلاد العرب .

"سلمتِ يا سيدتي، التعلم والتعايش مع الأميرات ينسي- المرء
أيامه .

تفضلوا إلى هنا، وأشارت إليه اذهب مع العبيد هناك، كان في غاية
السعادة، فالآن يستطيع أن يرى سامور وهاتشوريا، ولما أسدل الليل ستاره
تحفي وخرج إلى الحديقة والتقى بالرفقاء، وجلسوا يتسامرون سوياً
ويضحكون على الأيام الخوالي، ثم خرج من فم سامور كلام؛
يا ليتك ركعت للإمبراطور يا سراج لتغير حالك هذا، أنا أحزن كلما أراك
في هذه المكانة وأنت مكانتك أعظم من ذلك .

: نحن قومٌ لا نركع إلا لله يا سامور، هذه محنة وابتلاء من الله ليري
مدى صبري وإيماني .

: تعجبني قوتك يا سيدي، سأعمل ما بوسعي حتى أنهي لك هذا
الأمر وحتى نلتقي وأنت حر .
: إن شاء الله .

أمين، ثم تحدث هاتشوريا: سيدي سراج أردت أن أخبرك بأني
يمكنني أن أساعدك وأدلك على طريق، عندما يأتي سامور بالخريطة التي
ستساعدك على العودة إلى ديارك، يمكنك أن تسلك طريقاً مُتغيّراً تُلهي به
من يتبعك حتى تستطيع إضلالهم، هناك طريق الأندلس ستسكن بها بعض
الأيام إن أردت، ثم تكمل مسيرك كما تريد .

: ليرضى الله عنك يا هاتشوريا .

وانتهت الحفلة وارتحلا إلى القصر .

وأثناء العمل في الحديقة، ظهرت الفتاة مرة أخرى في ثيابٍ أكثر
تحشماً، ولكنها بدون حجاب، وغدت عند موضع قدمه، ونظرت إليه
متبسمة .

: لم أكن اعلم بأن الجن يستطيعون الظهور بالنهار .

: ألم أخبرك بأني املك الكثير من المعجزات .

: لقد راحت عن بالي تلك المعجزة، لماذا تصنعني وفعلتني هذه

الأفعال .

: أردت أن أراك خائفاً مرعوباً، لكنني وجدت غير الذي أهواه .

: نحن عباد الله لا نخاف من مكر البشر، ولكننا نخاف من مكر الله، فما أقصى ما سيفعله البشر.

: سيضيقون عليك الدنيا حتى تختنق.

: سنجد حينها ثغرة يدخل منها الهواء.

وجلست بجواره تستمع إلى كلامه، كأن روحها لا تسكن ولا ترتاح إلا بذكر تلك الآيات، وتمر الأيام على هذا الحال، تأتي في الصباح يتسامرون ويحكى لها حكايات الأبطال من الأجداد، وفي ذات يوم والأميرة إرين بجواره يتلذذون بحكايات الأندلس، وتحكى وتبتسم وتغرد كأنها العصفور وتتمنى عودة تلك الأيام، إذا بامرأة تصرخ وكأنها فقدت ابنائها، وتصيح بصوت عالي من الصراخ، هرولت الأميرة إرين نحو الصوت وكان خلفها حتى وصلوا عند موضع الصوت، فإذا برجل يمسك بيده سوط يضرب به امرأة عجوز ملقاة على الأرض، والناس يشاهدون ولا يستطيع أحد أن يتحرك وينقذ المرأة، وما أن نظر في عين إرين شعر بالآسى لحزنها، وبالآسى على حاله، نظر إلى نفسه لم يكن هذا حالي في يومٍ من الأيام، هل أخشى من عذاب العجوز، أم أنى أصبحت لا أبالي بمن حولي من الناس، ولكنه اتخذ قراره السريع، واتجه نحو الرجل

الغليظ، وأمسك السوط وهو يحاول أن يضرب العجوز، فهاج شخصان نحوه وكانوا يمسكون بالسيوف، وضعت إرين يدها على وجهها خوفاً من حدوث المصيبة، وما أن اقترب الرجلان نحوه حتى ضرب الرجل، وألقاه على الأرض، واستقبل الأول فمر من تحت إبطه وقام بركل الثاني بقدمه وهو مندفعٌ نحوه فسقط على الأرض، ثم التفت بجسده نحو الآخر وإذا بالرجل الغليظ يصيح اقتلوه، اقتلوه، فقام الرجل برفع السيف وضربه في اتجاهه، فصرخت إرين وكان صوتها عالي فركع منحنيًا بظهره فمر السيف من فوقه، ثم أمسك بيد الرجل التي بها السيف وقام بضربه بيده اليمنى ثم برأسه في أنفه حتى أن إرين ابتسمت وقامت بالتصفيق من أجل سراج، وهرول نحو الرجل الغليظ ووضع السيف على رقبته في وسط دهشة من الجميع، تتدخلت الأميرة إرين حتى تنهى هذا الصراع، وذهبت نحو السيدة العجوز وأقامتها من على الأرض وتحدثت إلى الرجل، أيها الرجل لماذا تضرب هذه السيدة .

: لقد أخذت منى صوف يا سيدتي ولم تدفع ثمنه حتى الآن.

: لماذا لم تدفعي له أمواله .

: أنا أخذ منه الصوف يا سيدي وأقوم ببيعه من أجل أطعام ابنائي،
تراكمت على الديون ولا استطيع السداد .

: كم دينها يا رجل .

: عشرة قطع ذهبية يا سيدي .

وأخرج العشرة قطع من جيبه وأعطاهم للرجل الغليظ، وأعطى
قطعتان للمرأة العجوز ثم تحدثت إرين إلى السيدة العجوز إذا أحتجتِ أي
شيء تعالي عندي وسأعطيكي إياها .

: ليرضى عنك الرب يا سيدي، ليرضى عنك الرب يا سيدي.

: أخبرني كيف فعلت هذا!!؛ كيف ضربت الفرسان بهذه

السرعة!!.

: أنا محارب يا سيدي، وكنت من أفضل المحاربين في قومي، لولا

ما حدث لي .

: إذا أنت لست بمملوك .

: لا يا سيدي لست بمملوك، أنا سيد من ساداتي قومي، وفارس

من أفضل فرسانهم وقادتهم، وكان يوكل إليّ أصعب المهام لأخوضها .

" أحكي لي قصتك يا سراج، أريد أن أعرف كل شيء عنك .

(مدينة الري؛ عاصمة سلاجقة العراق عام ٥٩٠هـ)

جيوش خوارزم شاه مستقرة بالمدينة بعد السيطرة عليها والانتصار علي السلطان طغرل بك وقتله في الري، ودارت معركة من أشرس المعارك قدم فيها ضياء الدين بطولات عظيمة وقتالٍ مريّر، أثبت فيها جدارته القتالية، وأظهر فيه فنون القتال العتيدة، كان كرهه الشديد للسلاجقة جعله يقاتل ببسالة وضراوة، وأيقن أنه من الضروري الانتصار في هذه المعركة، حتى يطمئن فؤاده ويهدأ باله، ويستقر حاله، ظناً منه بأنه بذلك ثأر لإنتقامه .

وانتقل ضياء الدين للعيش في تبريز في إقطاعه الذي أقطعه له السلطان خوارزم شاه .

(تبريز)

تبريز تقع بين كل من ديار بكر والموصل، فديار بكر في شمالها.. والموصل في جنوبها.. والبحر يحدها من شرقها.. في قصر- الأمير ضياء الدين يسكن هو وزوجته..

عندما انظر إلى عينيك يا ضياء أشعر بالأمان.. أجد الاطمئنان..
كأننا خلقنا لنكون معاً.

: الأرواح جنود مجنّدة يا صافية، ما تعارف منها التقى.

: أنا أحبك يا ضياء.

: الحب ليس كلمات تقال، ولا أعينٌ تلاقت فتعارفت، الحب هو

اتحاد القلوب واجتماعها يا صافية .

: تبسّمت صافية، عندما جاء بك أبي إلينا أول مرة كنت غريقاً في

دمائك، جريجاً في فؤادك، ليس في جسدك من موضع إلا وبه رمية سهم أو
ضربة سيف، في هذا اليوم ظل الطبيب يعالج فيك طيلة الليل، فقدنا
الأمل، حتى الطبيب لم يكن متأكداً من نسبة شفائك، عندما سألت أبي
عنك أخبرني بأنه وجدك في الطريق وحولك الجثث الكثيرة، أخبرني بأنك
سقطت مقاتلاً بعد أن فقدت جميع من معك، لم يتركوا فيك مكان إلا
وطعنوك فيه، أنا لا اعلم الكثير عنك يا ضياء .

: كلما أتذكر ذلك اليوم المشؤم وما حل بي وبفرساني أشعر برغبة

شديدة في الإنتقام، أشعر وكأنه قد حدث بالأمس، رغبةً الثأر تحوم
بداخلي، لا أستطيع أن أطفئها .

: ماذا حدث في هذه الليلة .

: كنت في حلب، في مهمة سرية مكلف بها من قبل الوزير، كنت أرسل إليهم المعلومات أول بأول عن الإمارات الصليبية في الشام، حتى جاءت تلك اللحظة التي خانني فيها أحد فرساني، لقد باعني بثمان بخس للصليبيين، هو الآن ينعم بالحياة، لقد غدروا بي خارج حلب، اعدوا لي كميناً وقتلوا فرساني أمام عيني، لقد كنت اسقط على الأرض من الطعنات وعيني مبتسمة لان الله قد رزقني مثل هؤلاء الشجعان .

: ليكن الله معك يا ضياء، ولكنني أشعر بالخوف من هذا الأمر .

: لا تقلقي يا زوجتي، عندما يأتي هذا اليوم لن ادع رأس فوق جسد، ولن ادع حجرٌ بجوار حجر .

: لتكن روعي فداءً لك في طريقك يا ضياء، ليأخذ الله من عمري ويزيدك في عمرك .

: سلمت يا صافية، ليجمعنا الله في الدارين .

: آمين .

(روما)

: كل هذا حدث لك يا سراج، لكنك لم تخبرني ماذا كنت تصنع في حماه.

: كل المصائب نزلت فوق ياقتي فاحتملتها قهراً يا سيدي، كنت في حماه بسبب مهمة سرية وكلت إليّ من السلطان، وأتممتها على خير ووصلت المعلومات إلى السلطان كما أردت، ولكن ما يجزني حقاً ذلك الخائن الذي بعني إلى رجالكم فغدروا بي بالقرب من إمارتهم الصليبية في الشام، لقد اعدوا لي كمين وانقضوا عليّ يريدون قتلي، ولكن قدر الله كان لهم بالمرصاد، أرادوا قتلي، ولكن الله أراد لي الحياة فخابت مساعيهم .

: ألا تشاق إلى الوطن يا سراج .

: الوطن، وصمت هنيئاً، اشتاق إلى روعي، وروحي هي السكن والوطن، اشتاق إلى أيام كنت فيها ونفسي قرناء .
ولما أردت إرين تغيير دفة الحوار قالت " أخبرني هل ما سمعته حقيقي يا سراج .

: عن أي شيء يا سيدي .

: دعك من قول سيدتي، كل شي كل ما حدث يا سراج من يوم أن
جئت إلى تلك الأراضي، إلى ذلك اليوم الذي رأيتك فيه تضر-ب الرجل
وفرسانه الذين أذوا المرأة .

: نعم وأكثر من ذلك، ما سمعته هو قليل بالنسبة لما حدث يا
إرين .

: قتلت فرسان الإمبراطور يا سراج.

: فقعت أعينهم، صلبتهم أمام إمبراطورهم .

: الم تخشى الموت .

: الموت بالنسبة لنا حياة يا إرين .

: كيف يكون ذلك .

: الموت هو حياة الخالدين يا إرين، الشهادة هي حياتنا الباقية، هي

الشراب ذو المذاق المر لكنه مفيدٌ للروح، نحاول جاهدين لنيل تلك
الدرجة فهي أعلى درجة في الجنان بعد درجات الأنبياء .

: كلامك جميل رأيتك بعيني في الأندلس، الجموع تتوافد من كل

أنحاء الدنيا من أجل الموت، من أجل الدفاع عن الأندلس من القشتاليين،

ما يحير بالي حقيقةً، لماذا يأتي الناس من المغرب وافريقيا والشام ومصر- إلى

الأندلس من أجل الدفاع عنها، وما كانت الأرض بأرضهم، ولا العرق كعرقهم، ولا تربطهم أي صلة قرابة .

: عندك حق لماذا يأتي كل هؤلاء من أجل الدفاع عن أرضٍ وقومٍ لا تربطهم بهم أي صلة، لا صلة القرابة ولا حتى نوعاً من أنواع الصداقة، ولكن تربطهم أعظم صلة، صلة الدين، إنها الأخوة الصادقة التي تحرك المرابطين علي الثغور ثغراً ثغراً، إنها قربان الخالدين .

"لم اعلم أن حب الأخوة يحرك أقواماً لنصرة آخرين، دينكم جميل يا سراج دعوته قائمة علي الوحدة والترابط والمحبة، أريدك أن تعلمني القتال .

: كما تريدني، لنبدأ من الغد .

: هيا.. هيا، وأمسكت يده وقامت به تهوول نحو الشجرة، ها

علمني هيا .

: أول درس تعلم الصبر، لا بد أن تكوني ذا بالٍ هادئ، ونفسٌ

مطمئنة، ليكن صدرك واسع وقلبك خافق يُرعب ولا يخاف، يُجزن ولا يُجزن .

: وكيف يكون ذلك .

: بالصبر، الصبر هو علاج كل داء، أولاً لا بد أن يكون عقلك
حاضراً، وقلبك خافضاً قبل أن يخرج السيف من غمده، اعتدل في قامتك
ولا يظهر عليك علامات الانكسار، ولا يبلغ منك الخوف مبلغه ولا القلق
غايته، دوري حول خصمك وهو بالطبع سيدور معك، انظر في عينيه،
فالعيون تتحدث بالخير والشر، هل فهمت .

:نعم، هيا علمني .

التفت سراج إلى الأنحاء فوجد عصا فأخذها وألقاها إلى إرين،
:هيا قومي بضربي الآن .

" كيف وأنت بدون سلاح .

: هيا لنرى مدى قوتك .

وأخذت خطواتها الأولى ثم صاحت هاجمة على سراج العربي
وقامت بضرب العصا ناحية وجهه ولكن سراج انخفض بجسده قليلا
فمرت العصا من فوقه ثم أمسكها بيده اليمني ويد إرين معلقة مع يده،
ودار بإرين وجعل ظهرها ناحية وجهه ووضع يده على رقبتها عند موضع
النحر، ليس هكذا يا امرأة، هذه الحركة تعرضك للخطر .

" دارت بوجهه قليلاً تنظر في عينيه وعلي جبينها إشراقة أضواء
وجهها، فارتفع الحاجب إلى أعلى بقليلٍ وتنهدت بعمق فأخرجت زفيراً
يكتوي ناراً، لاحظ سراج الخطأ الجسيم، عندما تتلاقى عيون المحبين،
فأفلت يده عنها وأبعدها إلى الأمام قليلاً، فأردفت تقول علمني إذاً حتى
استطيع الدفاع عن نفسي .

: أخذ يتلجلج في إخراج الحروف إلى أن استقرت ضربات قلبه،
فقال لها، ستتعلمين ولكن خطوة خطوة، بالتدريج، والآن يجب أن تعودني
إلى البيت .

أيُّ بلاءٍ حل بذاك القلبُ الحزين، أترسُّني عيون ظبية قد أرتقت
بقلبها، أم أن الأسد قد وقع في شراكها، لعلها غفوة محارب أرتمى بقلبه في
وادي الذئاب .

تمر الأيام وسراج يقوم بتعليم السيدة إرين

: تحسنت كثيراً في المبارزة .

: الفضل يعود إليك .

: الحياة كلها تمارين، في كل حركة لك، في أي مكان هي تمارين .

: لقد أتعبتك معي .

: لا يوجد تعب يا إرين أنا في خدمتك، اليوم سأعلمك رمي

السهم .

: هذا أفضل بكثير من حمل السيف .

: حمل السيف والخنجر ضروري، لا تدري ما قد يحدث معك في

الغد .

: جميل، لنبدأ إذاً .

: أعددت قوس وسهام من أجل ذلك، القوس يُمسك بهذه

الطريقة، يعتمد على ضبط زراعك اليسري واليمنى وطريقة اطلاق السهم

هكذا، إذا خرج السهم من القوس فلن تستطيعي إرجاعه، مثل الكلمة إذا

خرجت لا تعود .

ومر الشهر علي هذا بين الحقول والأودية يعلمها القتال .

: الآن، أنتِ تستطيعين حمل السيف والمبارزة، وحمل القوس، لا

خوفٌ عليكِ بعد الآن .

: أنا ممتنةٌ لك كثيراً يا سراج .

: فليكن لكِ ما تريدين، ولى ما أريد، وليفعل الله ما يشاء بنا،

استأذنيك يا إرين لدي ضيف، هل يمكنني الحديث معه قليلاً .

: بالتأكيد، تفضل يا سراج، ولكن لا تتأخر أرجوك حتى لا

يلاحظ الجنود ذلك.

: لن أتأخر .

وانطلق مُتخفياً بين أزهار الحديقة يبحث عن بغيته، حتى وجدها
بين الأشجار مُتخفياً، وعلى جذورها مستنداً، وما أن وصل لم يجد الذي
يبحث عنه، فهمم بالعودة ولكن هذا الرجل لاحظ وجوده فنادى قائلاً
: أيها الحائر عن ماذا تبحث .

فالتفت ناحية الصوت وأردف، أبحث عن مجد ضائع، ورفيق
غائب .. وقلنسوة سقطت في بئر الظلمات العميق .
: وماذا وجدت في طريقك .

: أشواكٌ يعلوها أشواك، وحشائش تجبئ في باطنها الأفاعي
والحيات، وقلوبٌ تكاد تقتلنا غلاً وحقداً علي هبات الرحمن .
: و إلى أين المنتهى .

: إلى مصافي الدنيا السبع .

خرج الرجل واحتضنا، معي رسالة من سيدي سامور، يقول لك
لا تقلق فقريباً سيجتمع الأحبة وتنزاح الغمة، وتعود الزهور إلى مكانها
وتشرق الشمس من أرضها .

: الحمد لله، أبلغه سلامي وأنى لن أنسى أبداً هذا المعروف .

: أأذن لي يا سيدي حتى لا يلاحظ أحد تغيبى .

: إذنك معك .

وانطلق إلى مكانه حيث إرين .

ومرت الشهور على هذا الحال، حتى عبرت خمسة أشهر كاملةً،

حتى وصلت إلى أواخر ربيع الأول في سنة ٥٩١ هـ .

وفي حديقة الأمير كاكويتس كان سراج العربي يعمل كعادته حتى سمع صوت يشبه أصوات الذئاب، لقد كانت تلك علامة الإلتقاء، فتخفى عن الأنظار، وأختبئ عن العيون، وسار نحو بغيته طالباً حق الجوار، وما أن وصل حتى انتفض الجالسين، وكان سامور وهاتشوريا، وسلم عليهم وقاموا باحتضانه.

: اليوم سعدك وفرحك يا سراج، لقد أكتملت الخريطة، واتضح الطريق من روما إلى حلب، ستعبر إلى بلادك من بيزنطة، قد جلبت لكل كل المعلومات التي تريدها، وكل الطرق التي ستسلكها في رحلتك، أمنها وأيسرها، كل هذا سوف تجده في تلك الخريطة، فليكن الرب معك .

: ثم تحدث هاتشوريا وهذه خطة الإلهاء، سوف تنطلق ناحية الطريق المؤدى إلى الأندلس، ستجد غابة كثيفة، وبعدها يوجد كهف عظيم بين الجبال، ستجده عند تلك العلامات في الخريطة الصغيرة .

: لا اعلم ماذا أقول لكم، ولكنى ممتن لكم كثيراً، لا أعرف كيف أرد لكم هذا الصنيع، ولكنه سيظل ديناً في رقبتي .

: لا تقل هذا يا سيدي، فنحن مهما صنعنا لن نوفي حقك، لولاك ما بقينا على قيد الحياة حتى الآن، حياتي فداءً لحياتك .

: فليرضى عنكم الله .

: ولكن كيف سنلتقي .

: إن شاء الله عما قريب .

: سيدي أردت أن أخبرك بأمرٍ قبل رحيلك، الإمبراطور والبابا

يجتمعان سوياً هذه الأيام، إنهم يخططون لحملة جديدة على بلادكم بالشام ومصر والأناضول، يريدون أخذ تلك البلاد منكم، سيستغلون الخلافات التي تحدث بين الأخوة ويزيدو الفتنة بينهم حتى يتقاتلوا أكثر فأكثر ويأخذوا البلاد بدون عناء، أحببت أن أخبرك حتى لا تضيع بلادكم .

: ما شاء الله، إن شاء الله عند وصولي إلى بلادي سأفعل اللازم،

وسأرسل إليكم أطمئنكم واستزيد منكم الأخبار .

: فلتكن روحي فداءً لك يا سيدي سراج في رعاية الله، وانطلق

كل واحدٍ منهم في طريقه .

وحدث سراج نفسه بانتظر قليلاً، وأخرج بالليل متخفياً، الليل

هو دواء المستغاثين، وانطلق نحو مرادي وليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

: أين كنت يا سراج انتظر منذ فترة .

: كنت أقضي حاجتي يا سيدي، بطني قد أتعبتني كثيراً .

جلست إرين وكأن الهم قد سيطر على حواسها واحتل قلبها
وعقلها .

: مالي أراكِ مهمومة هكذا يا إرين، مال الحزن يسيطر على ملامح
وجحك .

: أبي يريد أن يزوجني يا سراج .

: وأنتِ ماذا تريدين .

: أنا لا أريد أن أتزوج .

: إذًا لا تتزوجي، لا يستطيع أحد أن يرغمك على فعل شيء،
خصوصاً الزواج .

: إنه يريد أن يزوجني بذلك العجوز مانيوس، حتى تزداد تجارته
واقطاعاته ويزداد ماله، إنه أكبر من أبي .

: وما الحل إذًا .

: لا اعلم، جئت إليك من أجل ذلك، عقلي توقف عن التفكير، لا
استطيع أن أعرف ماذا أصنع .

: هل تستطيعين أن تقنعي أباك بتأجيل هذا الأمر قليلاً .

: استطيع، ولكن إلى متى، وبماذا تفكر .

: أفكر في رحيلك إلى الأندلس .

: واترك أبي .

: أباك يريد أن يبيعك إلى عجوز من أجل ثروته، هو لا يعبى بك

من الأساس .

: لكن كيف سيكون هذا .

: دع الأمر لي سأجد حلاً قريباً، ولكن هل تستطيعي فعل أي شيء

: نعم سأفعل كل شيء من أجل ألا أتزوج هذا العجوز .

: فليكن الله معنا في تلك الليلة، ولينقذنا مما نقع فيه .

وما أن حل الظلام واسدل الليل ستاره، حتى وجد الباب يتحرك

فإذا به الأمير كاكويتس يقتحم عليه خلوته، وجلس على سريريه بحذاءه

المتسخ، وفي غلظة منه وكأبة حل بها، أريدك أن تتجهز لحفل الإمبرطور،

ستشارك في الالمبياد القادمة، سأعد لك كل ما تريد، السلاح والتدريبات

والطعام، كل ما يلزمك لأجل أن تستعيد قوتك وعافيتك، أريد أن استرد

المال الذي دفعته من أجلك أيها الأحمق، ولم يدع له لحظة حتى يرد عليه

ورحل عنه، من حينها وقد أعطاه سيفٌ يتدرب به ووفر له طعام به دجاج

ولحوم .

ومر يومان والسيدة إرين على حصانها منطلقة نحو الحديقة،
وكانت قد اقتربت كثيراً، واعترض طريقها بعض فرسان الإمبراطور،
وكان من كبار الحرس، ثم تحدث الفارس إلى إرين بقبيح الكلام .

" هذا ليس يعنك أيها الفارس .

؛ كيف لا يعنيني، أريد حمايتك .

" كلف حمايتك لنفسك لا أحتاج لأحدٍ أن يحميني .

وهمت بالرحيل، فأمسك الفارس يدها ليس بهذه السرعة يا امرأة .

" وبنبرة غضبٍ حادة، دع يدي أيها الفارس وإلا علمتك كيف

تتحدث مع الأميرات، يا عساكر .

ويا للحسرة العساكر وُضِعَ السيف على رقابهم، فنظرت إليهم

إرين وانتابها الموقف، وأحاط بها الفارس وجنده وأخذ يدور حولها

ويقهقه، ؛ أتظنين بأن الأمر يسير، ستذهبين وقت ما تشائين .

حينها أخرجت الأميرة سيفها ورفعته، إن اقتربت سأقتلك أيها

الفارس، ولكنه ضحك بهستيارية، رائع، الأميرة تحمل سيف، وقهقهها، لا

تلعبى به حتى لا تصيبي نفسك .

: إن اقتربت منى أكثر من ذلك فسوف أقتلك .

: لنرى ذلك، وهم بالاقتراب فوجهت السيف تجاهه ولكنه تراجع
خيفة القتل .

: إذا الأمر حقيقي، الأميرة تتواعدني بالقتل .

كان أحد العبيد يهرول إلى الحديقة وقد قطعت أنفاسه من الجري،
سراج، سراج .

ما بك أيها الرجل، والرجل لا يستطيع أخذ أنفاسه التي انقطعت
من الجري .

" الأميرة إرين .

: ماذا حدث لها، تكلم أيها الرجل تكلم، تكلم وإلا قتلتك .

" أعترض طريقها بعض فرسان الإمبراطور، أخاف أن يؤذيها يا
سراج، اذهب وأنقذ الأميرة من يده، أنه فارس ظالم .

وهرول مُسرِعاً نحو المكان الذي به الأميرة، وما أن اقترب حتى
وجد ذلك الفارس يمسك بسيف الأميرة ويضربها بيده على وجهها،
فسقطت من فوق الحصان على الأرض، وأصيبت يدها ونزفت بالدماء على
الأرض، فاستشاط غضبه أكثر وهذا الظالم يقهقه، ونزل من على حصانه
ومد يده على جسدها، ولكن كان سراج له بالمرصاد فركله بقدمه فسقط

على الأرض، وأخرج سيفه من غمده وأقام السيدة إرين من سقوطها وأعطاهما سيفها، وأجلسها بجوار الشجرة، وكان هناك غلمان لأبيها أحاطوا بها يحموها، وهروا جنود الفارس يرفعونه من على الأرض، فقام والغضب يستشاط من بين عينيه ..

:أندرى ماذا صنعت، من تكون أيها الرجل، ألا تعلم من تقاتل،

أنا الأمير بياسيس لسوف أقتلك .

: اللعنة عليك، تعال لنرى من منا سيموت .

:أيها الجنود اقتلوا هذا الكلب واصلبوه حتى يكون عبرة لغيره،

وكانوا أربعة، وأقبلوا يهرولون ناحيته، فأما الأول فمرر سراج من تحت إبطه وضربه بمؤخرة قدمه بالكعب تحت ركبته من الخلف فسقط على الأرض، وما أن أقبل الثاني حتى ركله بباطن قدمه في بطنه فسقط إلى الخلف، وأتى الثالث متوحشاً سيفه فتكعور على الأرض كالكرة ومرر منه ووضع السيف في بطن الرابع وهو قائم على قدمه، وما أن التفت الثالث حتى قام بضرب السيف ناحيته فركع سراج كما يركع في الصلاة، فمر السيف من فوق رأسه، ويده اليسرى مسك بيد الفارس من عند المفصل، وقام بعملية دوران له حتى أصبح خلفه، ووضع يده اليسرى عند رقبته

يخنقه وقام بنحره، وأتى الاثنين الباقيين كل واحد منهم يتوحش سيفه، ويستشاط بغضبه، والنار تأكل في أجسادهم، والأمير بباسيس يصيح فيهم اقتلوه، وكان بجواره أحد حراسه، ألا تعرف من يكون هذا يا سيدي .

:لا أعرفه، ولكنني أظن بأني رأيت من قبل .

:هذا الرجل العربي الذي قتل فرسان الإمبراطور في الأولمبياد .

: تذكرته، هذا العربي الذي قاتل بشراسة، لم أكن اعلم بأنه هو .

:لقد قضي علينا يا سيدي، أنا لا أرغب في الموت .

هيا هيا أيتها البغال أقبلوا، فإن لدمائكم شهوة لا تنطفئ، وأقبل الفارسان معاً يهرولون نحوه بأسلحتهم، فأقام أحدهم بضرب السيف نحوه ولكنه مر من فوقه، ثم صد ضربة الثاني القادمة نحو قلبه، يرد ضربة هذا ويصد ضربة هذا في سرعة، والأمير بباسيس مستعجباً مما يراه، أفضل فرسانه لا يستطيعون القضاء على مملوك عربي، في تلك اللحظة ضرب الجندي سيفه عند مقلق رأسه فتنحى إلى اليسار قليلاً فمر السيف، فضربه بقدمه على يد الفارس فسقط سيفه، ثم ضربه بمقبض السيف فسقط على الأرض، حينها أقبل الآخر بضرب سيفه نحو نحره، فردده خائباً خاسراً لم يحصل على مراده، ويضرب الثانية فيميل بظهره إلى الخلف قليلاً، ثم ركله

بقدمه فهروول إلى الأمام، وكانت المفاجأة التي تنتظره، كانت إرين له بالمرصاد فأوقفته من زحفه السريع، وقامت بوضع السيف في بطنه، وقام سراج بمسك الأخير ونحره، وأقبل يمشي نحو بباسيس وحارسه الذي هروول باتجاهه، فتكعور على الأرض وقام برسم خط مستقيم في بطنه سقط على أثره، وقام يلعب بالسيف ويدوره كمن يرمى حجارة مربوطة بحبل، وتوجه نحو بباسيس الذي اخرج سيفه والذعر والرعب يمتلكانه، قام بضرب السيف تجاهه فقام بحركة دوران ورد ضربته، وضربه في رجله ويده حتى أصابه وعجز عن الحركة وأصبح بين يديه كالعصفور المبلول، ورفع سراج السيف يريد قتله، صاحت إرين لا لا لا تقتله .

: لماذا .

" دعه يرحل، ومسك يده التي بها السيف وقام بباسيس يهروول نحو حصانه، فأمسك به وقام بإصابته في وجهه ورسم له خطٌ صغير، حتى لا تنساني أيها الظالم، وضربه بظهر يده على وجهه، وهروول مجدداً نحو الحصان وركبه وهرب .

: لماذا لم تدعيني أقتله .

:إن قتلته سيغضب عليك الإمبراطور وسيصدر الأمر بقتلك.

: وهل تظني بأنه لن يغضب بما فعلته بأحد حراسه .

: سأحدث أبي وأحكي له ما حدث وسيحميك، أعدك بذلك .

:أباك سيحميني وقهقهه، كان لابد أن أقتله، لن يتركني حياً وقد

قمت بإذلاله، هيا يا سيدتي سنعود إلى البيت، لابد وأن استعد لأبيك من

أجل تعذيبي عندما يعلم ما حدث، هذا هو الوقت المناسب للرحيل،

ولتظل روما تعرفني بما صنعت بها، لقد اشتقت كثيراً لقتل الروميين .

كانت ماريا تراقبه في صمتٍ وأنا أخرج الخرائط والملابس التي

أعطاها إياها سامور وهاتشوريا ويرتبها في حقيبة، فاقترحت الغرفة .

:ماذا تصنع يا سراج .

:اغمض عيناه وأخرج أنفاسه بصعوبة ولم يدري ماذا يقول لها :

أرتب ملابس من أجل حفل الإمبراطور، سأرحل عما قريب .

: هذه ليست طريقة ترتيب ملابس رجل مشارك في الالمبياد،

أتعبث بعقلي .

: ما الذي تقصديه .

في تلك اللحظة اقتحم كلايتارس مملوك سامور قصر- كاكويتس

بأمر من الإمبرطور فوجد إرين في وجهه فأوقفته .

: ما بك أيها الفارس .

: معي رسالة يا سيدتي للأمير كاكويتس من الإمبراطور .

: أعطني إياها .

: إنها رسالة خاصة يا سيدتي .

: قلت لك أعطني إياها .

: أخبريني باسمك يا سيدتي .

: أنا الأميرة إرين ابنة الأمير كاكويتس .

: سيدتي هذه الرسالة من أجل سراج، إنه في خطر، لقد اصدر

الإمبراطور قراراً بقتله، لقد وجهني سيدي لأجل أن أخبرك كي تنقذي

سراج، لقد أخبرنا بأنه يثق بك كثيراً .

: اذهب أنت على الفور، وأنا سأفعل اللازم .

: ماذا يحدث هنا يا سراج، هل هناك شيء يا زوجة أبي .

: كنت أرتب مع سراج حقييته .

: ليس هناك شيء يا سيدتي .

: غادرت ماريا الغرفة واقتربت إرين منه، لقد صدر قرار

الإمبراطور بقتلك، هذه الرسالة لك .

وفتح الرسالة وعلم أنها قادمة من سامور، وقرأ ما فيها وألقاها في النار .
: ما الذي بداخلها يا سراج .

: لا بد وأن أهرب الليلة قبل قدوم فرسان الإمبراطور، إنهم في الطريق .

: سأساعدك في الهروب، وليكن الله معك .

: أنتِ ماذا ستصنعين في أمر العجوز .

: سأتصرف لا تقلق، هل سأراك مرة أخرى .

: نعم سأراكِ بالتأكيد مرة أخرى، خذي هذه أعدتها من أجلك، إنها قلادة
بسيطة جمعتها من الأحجار لأجل الأيام والذكريات .

: إنها أجمل قلادة جاءني في حياتي، سأحتفظ بها طوال عمري، سأذهب
أجهز لك الحصان وأنفق الطريق عندما تنتهي ألحق بي عند الإسطبل،
سأخرجك من القصر من طريق سري .

: سلمتِ يا إرين، ليأتي اليوم الذي أرد فيه هذا المعروف .

ورحل إلى الإسطبل كانت إرين مجهزة لكل شيء، أعدت الحصان
وأعدت الطريق، ولم يبق غير إرشاده، وأخذته نحو مخرج أحد مياه الآبار
الخاصة بالبئر الرئيسي بالقصر، وقامت باحتضانه وبكت للحظة الأخيرة
التي تراه فيها، وعبر المياه الجوفية ووجد الحصان الذي أعدته له إرين،

واخذ الحصان، وكان مرتدياً زي الجنود الرومانيين من أجل التمويه، وانطلق بالحصان يعبر بجوار جنود الإمبراطور المقتحمين لقصر- الأمير كاكويتس، ويعبر الكهائن التي نصبت له، لقد كان سامور محقاً عندما أعطاه تلك الثياب .

" خذ هذه الثياب يا سراج، سوف تساعدك على الهرب، لن يستطيع الجنود ملاحظة ذلك، لن يشك أحد فيك .

: سلمت يا سامور .

وغدا منطلقاً نحو الطريق المؤدى إلى البندقية عكس ما أخبره هاتشوريا، كان يجب عليه أن يسير نحو طريق الأندلس للتمويه، ولكنه في حيرة لا يدري كيف سلك هذا الطريق، الطرق متشابهة بالنسبة له، الغريب أعمى في غير بلاده ولو كان بصير النظر، وعلى بعد ثلاث أميال من روما نوى الاستقرار في هذه المنطقة حتى الصباح، وعسكر داخل الغابة، وذهب يحتطب من أجل إشعال النار، وبحث عن الطعام في الأرجاء حتى من الله عليه بأرنب كبير الحجم قام باصطياده بسهمه، وأمسك الأرنب من فرو رأسه قائلاً هنيئاً لي أول انتصارٍ بعد الأسر، وما لبث أن هدأت أحواله واطمأن باله وغرق في النوم بضع ثواني حتى سمع أصوات كثيرة تحوم

حول الغابة، أصوات أقدام تقترب، أصواتٌ تعلو وتنخفض، أصوات خشخشة لمس الأشجار والزرع، صوتٌ غليظٌ يخرج من فم رجلٍ، ابحثوا عنه في كل مكان، وصوتٌ آخر الآثار تنتهي هنا يا سيدي، لقد أنتابه القلق، إنهم الآن يجومون حوله، يا إلهي ماذا أصنع

سيدي، سيدي لقد كان هنا، هناك آثار حطب كان مشتعل منذ قليل، وأثر أقدام حديثة، أظنه رحل من هذا الطريق.
اذهبوا خلفه بسرعة، بسرعة.

تتدافقت جموع الجنود نحو المكان المشار إليه، وذهبوا يهرلون ويهرلون لعلهم يجدون مرادهم المفقود

أين ذهب، لقد اختفى يا سيدي، ابحثوا في الأرجاء.

: آه لو نظر أحدهم فوق رأسه لأبصرني، فليكثر الله من فروعك أيتها الشجرة الكريمة، لقد أنقذتني، وما أن رحل الجنود إلى الأرجاء حتى نزل من على الشجرة ورحل متخفياً ورفع غطاء الرأس ليخفي به ملامحه، وأنطلق يهرول داخل الغابة يبحث عن مخرج، ولما تعب من الهروب استند إلى جدار إحدى الأشجار وراح في غفلة من النوم غصباً عن إرادته، وكأنها

رسالة من الله قد جاءته في المنام، فرأى كما يرى النائم.. كأنه يسير في تلك الغابة التي يحاول الخروج منها.. حتى رأى دخانةً عظيمة تخرج من بين الشجيرات.. فذهب ناحيتها فوجد شيخ يجلس بعمامة البيضاء.. فأشار إليه بالجلوس.. فجلس أمامه وكان يقرأ من آيات القرآن.. فلما فرغ ونظر إلى عينه.. ما هذا الهُمُّ الذي يجول في عينك يا بني.

: ألا ترى يا سيدي ما أنا فيه، مطارِدٌ مطلوبٌ للموت.

: أتبحث عن الشهادة، أم أنها هي التي تبحث عنك.

: ما الفرق إذًا يا سيدي، إن كنت أبحث عنها أو إن كانت تبحث

عني.

: فرقٌ عظيم يا بني، أن كنت أنت الذي يبحث عنها فهذا معناه

أنك لا بد أن تصمد حتى تحصل عليها، لا بد أن تختار الطريق الذي

يوصلك إليها بصدق وشرف، أما إن كانت هي التي تبحث عنك فمعناه يا

بني أنك قد وصلت إلى نهاية الطريق.

: هذا الذي يفرحني ويصبرني يا سيدي، ولكن جنود الإمبراطور

حول الغابة يبحثون عني يريدون القبض عليّ.

:الصبر يا بني، فطريقك طويل يحتاج إلى بصيرة قوية، وصبرٌ عظيم، الصبر يا بني الصبر، أحسب أن الطريق مليءٌ بالزعران والورود، أو أنه جاء في مخيلتك بأن الطريق نهايته القصور ومجالسة الأمراء .
:لم أرى كل ذلك في طريقي يا سيدي، ولكنني تعبت من الأسر، أريد أن أعود إلى الديار، إلى الوطن، اشتقت إلى أبي إلى أمي، أريد الخلاص، أرغب في مواصلة الطريق .

: إن دعوتنا دعوةً مباركةً يا بني تحتاج رجالاً لحملها، تحتاج عظماء يخلدهم التاريخ يقتدي بهم الأبناء علي مر السنين، دعوتنا تحتاج إلى صبر، إن دعوتنا دعوة خالدة لها مذاقٌ مرٌّ، ولكنها مفيدةٌ للبشرية، هي النجاة والخلاص للأرض، لن يستطيع أي مخلوق على وجه الأرض أن يوقفها، قريباً يا بني ستكمل طريقك، إن لكل طائفةٍ حساب، لا تياس يا بني كلها ساعاتٍ ويحل النهار .

لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً، ووضع يده على رأسه وقرء قوله تعالى (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) واختفى الشيخ من أمامه ونظر حوله يبحث عنه، حتى سمع هاتفاً يقول.. يا وحيد الظل

في دربك.. أنت الأمة الجمعاء ولو كنت وحدك.. أنت علي الحق إن كان الله معك؛

واستيقظ من نومه وكان هناك غمامةٌ على عينيه وقد أنزاحت، وكان بصيرته قد رفع عنها الغطاء وانكشف له الآفاق، وكأنه نام ثلاثة أعوام وليست دقائق معدودة، وانطلق يكمل طريقه وبعد المسير والجنود خلفه يحاولون اللحاق به، ظهر أمامه كوخ فجأة وكأنه نزل من السماء لينقذه: الحمد لله، وطرق الباب طرقات سريعة مُفزعة، وسمع صوت امرأة من خلف الباب تأتي مفزوعة، وخطوات كأنها ثقيلة، وما أن فتحت الباب ورآها دخل البيت وهي شاخصة ببصرها نحوه تنظر إلى ما يحدث منه ووضع يده علي فمها، وكانت امرأة عجوز طاعنة في السن، وهمس في أذنيها: جنود الإمبراطور في الخارج يبحثون عني، لن أفعل لك شيء، لن أتسبب في أذاك، ولكن أرجوك لا تتحدث ولا تخبرهم عني، ورفع يده عنها، وهدأت وسكنت قليلاً، ثم نظر إلى عينيها وتذكرها لقد كانت تلك المرأة التي أنقذها من يد الظالم الذي كان يجلدّها، أيها المرأة ألا تتذكريني، ورفع الغطاء عن رأسه، وخلع الخوذة التي كانت تُخفي وجهه، ورفعها عن رأسه ها، لمست المرأة وجهه بأناملها وتبسمت " نعم، نعم، أتذكرك يا بني،

وهل يمكنني أن أنساك، فليحفظك الرب من هؤلاء الظلمة، ما الذي يريدونه منك .

: يريدون قتلي يا خالة .

: فليذهبوا إلى الجحيم وهل مثلك يقتل، سأحميك، تعال معي سأخفيك عن الأنظار، أدخل هنا في هذا الخون الصغير لن يستطيع أحد أن يراك، وإن سألوا عنك أنا لا اعلم عنك شيء، لا تقلق يا بني، دينك في رقبتي إلى يوم الدين ووجب علي سداذه، لا تقلق يا بني لا تقلق .

: فليحفظك الله يا خالة .

ومر اليوم بسلام وذهب الجنود يبحثون في الغابة وحول المنزل، وأبقى القائد بعض الجنود حول المكان يراقبوه، وتحدث إليهم قائلاً: لن يخرج من هذا المكان، حاصروه جيداً من يراه منكم يقتله، هو موجود في هذه الأنحاء لم يهرب بعد، سأرسل إليكم بالمدد استمروا بالبحث .

: حاضر يا سيدي، وعسكر الجنود حول المكان .

أسدل الليل ستاره.. وأخفى الليل شبابه.. وأراح جيرانه..
وأشدت العودُ بداره.. وأشرفت الأرض بنور رهبها.. واعتدلت في قامتها..
وانتصفت في وسط الأرض.. واقتربت من الزوال.. على هذا الحال يومان؛

كأن اليأس يطلبه ويستقر في جوانبه ويسعي للنيل منه، ولكن لا
يأس لأن الله معنا .

حينها كانت المرأة تتجول في أنحاء منزلها، جاءت ووضعت يداها
على رأسه، ليرضى عنك الرب يا سيدي، ما الذي يجزئك .

: سلمت، همومٌ تراكمت، ألا ترى ما حل بي .

: الصبر يا بني، أن الله لا يترك مثلك وحيداً .

: الصبر، الصبر، لقد نفذ صبري .

: منذ متى لم تحلق شعرك ولحيتك .

: منذ ثلاث سنين .

: اجلب لك السكين من أجل الحلاقة .

: هكذا أبدو أجمل بكثير، لن أحلق .

: أنا ذاهبة إلى السوق، أتريد شي أجلبه لك معي .

وبعد لحظات صمت طال، نعم أريد منك خدمة أن شئتِ

أديتها، وإن شئتِ فلا بأس، وخذي هذه الأموال أجلبني لنا بعض الأطعمة
والفاكهة .

:اطلب ما تشاء فأنا مدينةٌ لك، ولولاك لاستعبدني الباغي، ولكن
هذه الأموال كثيرة يا سيدي .

: سلمتِ، وذهبت العجوز إلى السوق، ولما وصلت تذكرت
كلمات سراج، عندما تمرين من السوق، ستجدين دكان لبيع المنسوجات
والحرير، ستجدين هناك غلام صغير اسئليه عن زانتيكس، "هل السيد
زانتيكس موجود.

: لحظة سيدي سأخبره .

: ماذا تريدان أيتها العجوز، أه تريدي صدقة خذي .

حتى تتأكدي إن كان هو أما لا ستقولين "حرير الشرق أفضل أم
حرير الغرب .

صمت زانتيكس قليلاً ثم أردف : بل حبر الشرق .

ستقولين وهل يأتي إليكم .

:بل نذهب إليه إن شاء الله .

حينها ستقولين له : ما زال الحائر يبحث عن الطريق ولكنه معلقٌ
بين الأشجار والنخيل، والأشواك تحيط به من كل مكان، ويزداد عددهم

وتقل الزهور والثمار، ولم يبق إلا وردةٌ واحدةٌ تفوح بالعبور، وفي أسفل
الجنان يسكن الحائر مع العجائز.

صمت زانتيكس من كلام العجوز وأصبح في حيرةٍ أعظم، وأشار
إلى أحد الأشخاص.. تتبع هذه المرأة.
: أمرك سيدي .

وركب حصانه وانطلق يهرول به نحو القلعة الحصينة، حتى أنه
عبر بين الحراس دون أن يوقفوه، حتى اقترب من إحدى الأبواب ونزل من
على حصانه، وأخذ أحد الحراس منه، وانطلق مسرعاً، وفتحت الأبواب
من أجله وكان في انتظاره هاتشوريا وسامورا وتحديث سامورا: ما هو الأمر
الضروري الذي جمعتنا من أجله .

: سيدي سراج في خطر، الجنود محاطون به من كل اتجاه، لقد أرسل
إليّ برسول يخبرني بهذا.
: من .

: عجوزٌ، وأرسلت خلفها من يتبعها، سيعرف عدد الجنود ومكان
سيدي سراج وبعدها ننظر ماذا نصنع .

:تابعني بالأخبار، أول بأول ولا تتأخر عنى لحظة، تفضل
بالذهاب أنت.

: أمرك سيدي .

: ماذا سنصنع الآن يا هاتشوريا .

: نظمئن علي حال سيدي سراج، بعدها نفكر ماذا نصنع .
آخر النهار

: وصلت الأخبار من زانتيكس يا سيدي .

: ما المستجد يا هاتشوريا .

: سيدي سراج في منزل العجوز، وحول المنزل حوالي عشرون
جندي يحيطون بالمكان وينوبون مع غيرهم طوال اليوم، القائد أيقن بأن
سراج بالغبابة ولم يخرج منها بعد، إنهم محاصرون لكل مكان.
: كيف سنصل إلى سراج .

: سنرسل إليه برسالة مع العجوز، لقد أعددت له حصان خارج
الغبابة في طريق البندقية، سيركب البحر ويعبر إلى البندقية، ومن البندقية
إلى الأندلس ومنها سيكون في أمان يا سيدي .

: كيف سيهرب من الجنود .

: سأخرج لهم من يقوم بإلهائهم وبهجوم مفاجئ من قطاع الطريق

في تلك اللحظة دخلت إرين غير طارقة الباب في لحظة تفاجئ
منها سامور وهاتشوريا، حتى أنهم تبرجلوا في الكلام وتحديث هاتشوريا
تفضلي سيدتي.

: هل قبضوا علي سراج .

: ليس بعد، ولكنهم يقتربون منه .

: هل تعرفون مكانه .

: نعم سيدتي، ولكننا لا نستطيع تخليصه وتهريبه .

: ما خططكم لتهريبه .

نظر سامور إلى هاتشوريا مبتسماً، : اسعى لتهريبه إلى الأندلس،
ولكن قبل ذلك نريد أن تذهبي إليه وتشرحي له الخطة، ستعطيه تلك
الرسالة، سيدتي أنت الوحيدة التي تستطيع الدخول والخروج مع تلك
العجوز.

: كيف سيكون ذلك .

: مُرّ غداً عندي في الدكان سأشرح لك كل شيء .

(السوق الكبير)

دكان زانتيكس، الأميرة إرين بداخل الدكان تشاهد المنسوجات
الجديدة المجلوبة من دمشق، تدخل امرأة عجوز تحيي الحاضرين، آه يا الهي
الأميرة إرين هنا، جميل أن أراكِ سيدتي، ألا تتذكريني .

:اعذريني أنا لا أتذكر .

:ألا تذكرني ذلك اليوم الذي انقذتيني فيه من الرجل الذي كان
يضربني، ودفعتي الأموال من أجل إنقاذي .

: نعم، تذكرتك .

:أنا لا أستطيع رد هذا المعروف لكِ ولكن هل تقبلي بضيافة
بسيطة علي مائدتني في منزلي .

تدخل قائد الحرس ولكن سيدتي ستتأخر .

:أنا موافقة سنذهب معك، هيا جهزوا حصاني سأذهب إلى منزل
تلك العجوز .

:المكان هناك خطر سيدتي، ولن يقبل الحراس بدخولنا، ونخاف
عليك من الأذى .

وما مهمتك أنت أيها القائد، أليس مهمتك هي حمايتي، إن كنت غير قادر على أداء المهمة عد إلى المنزل وأكمل أنا وحدي .

:أيها الجنود تجهزوا للرحيل، تفضلي سيدتي سنعبر الغابة، ولكن أرجوك يجب ألا يعلم بذلك سيدي كاكويتس .

: لا تقلق يارينود .

كان سامور وهاتشوريا خلف الستار ينظرون لما يحدث، نظر سامور إلى هاتشوريا مبتسماً أه لك أيها الماكر خطة ذكية، فليرضى الرب عنك .

:فليرضى الرب عنا وعن سراج وينقذه .

وانطلقت الأميرة إرين بصحبة المرأة العجوز إلى دارها.. ودخلت الدار.. ورحبت بها واستأذن الحرس بتفتيش المنزل قبل دخول الأميرة، الأمر الذي أدى إلى اعتراضها، ولكن تدخل السيدة العجوز انهى الموقف، فليدخلوا يا سيدتي حتى تطمئن قلوبهم، تفضل فتش أيها الحارس، ودخل الحراس وخرجوا خائبين الرجال لم يجدوا شيئاً بالداخل، ودخلت العجوز ومعها الأميرة إرين وظل الحراس بالخارج .

:أين سراج .

وأشارت إليها برأسها، فإذا به يخرج من الخن الصغير خلف
الأميرة إرين وتقوم مسرعةً باحتضانه: قلقت عليك كثيراً .

: لا تقلقي أنا بخير .

: افتقدك كثيراً يا سراج، الحياة كريهة بدونك، أصبحت أكثر كآبة

نظر إليها مبتسماً: لكن القلوب تحيي دائماً بالذكرى .

: ستظل خالدًا في قلبي .

: لن أنسى أبداً ما فعلته من أجلى .

: وهل يرضي الحبيب أن يراً حبيبه مذلولاً .

ارتفعت حرارة سراج إلى أعلى درجاتها وخفق قلبه وزادات

ضرباتهِ : ولكن .

: هس ووضعت يداها على فمه، دعني أطيل التأمل في وجهك،

فهذه آخر لحظةٍ سأراك فيها، وتغيرت لهجتها في هذه اللحظة ونطقت

بالعربية أنا أحبك .

: أو ما سمعته كان حقاً .

: نعم كله حق .

: أتقولينها بالعربية .

: تكون بالعربية أجل حتى تشعر بها .

: أعذك بأني سأجذك، لن أتركك أبداً، ولتبقى معك السلسلة التي

أعطيتها إياك .

: لن أدها أبداً، سأقربها من قلبي سأظل متمسكة بالأمل حتى

تعود، قبل أن أنسي خذ هذه الرسالة وأحفظها جيداً، عندما تصل إلى

الأندلس اسأل عن الأمير طلال في قرطبة، وأخبره أنك من طرفي،

سيحسن استقبالك وتكريمك، في الأندلس ستكون في أمان، أعطه تلك

الورقة وسيعرفك على الفور، الآن يجب أن أرحل، وقامت بتقبيل سراج في

خده وانطلقت بدون توديع والدمع من عينيها يخترق وجهها صانعاً بذلك

طريقاً إلى الأرض .

: شكراً لك أيتها العجوز على ما صنعتيه معي لن أنسى لك هذا

المعروف أبداً .

: لا داعي للشكري يا سيدي فأنت صنعت معي ما هو أعظم من

ذلك .

: هذه الأموال لك، أستعين بها على معيشتك .

: شكرًا لك يا سيدي، فليكن طريقك مفتوحاً وليكن الله
بجوارك، اذهب مثل الريح تجلب الدمار لأعدائك، ومثل المطر تجلب الخير
لأحبائك، وعد إلى أهلك ووطنك مثل الربيع .

: سلمتِ يا امرأة، سأرحل في منتصف الليل أثناء تغيير الدورية في
عتمة الليل حتى لا يراني أحد، ولا أتسبب لكِ بمشاكل لا طاقة لكِ بها .
فليحفظك الرب وليرعاك في طريقك، ولتكن العتمة نورك .

وما أن حل الظلام وعتمته، حتى خرج من خلف دار العجوز
داخل الغابة العظيمة، وبعد أن تغيرت الدورية وجلس الجنود يتسامرون
ويضحكون أحدث جلبة في الأشجار فهول الجنود حولها، وانطلق يهول
في طريقه، ورأه احد الحراس فصاح قائلاً من هنا من هنا، وتغيرت
وجهتهم نحوه، وانطلقوا يهولون خلفه، ويحاول جاهداً الهروب منهم،
"كلها خطوات وأصل إلى بغيتي، تحمل يا بطل تحمل، بقي القليل"، وبين
أوراق الشجر الغليظة، أحتمى بداخلها، وأنقسم الجنود يبحثون عنه،
فسقط على أحدهم فقصم ظهره وكسرت رقبته، وأكمل في طريقه والباقية
تبحث عنه، وبين أوراق الغابة كهوفٌ مظلمة كثيرة مترامية، " ما يقع على
عاتقه اختيار الصواب ومعرفة الطريق الصحيح، لا بد للحائر أن يجد

المعين، ومن أجل النجاة لابد من دخول الكهف المخيف"، فأسرع في
المسير إلى داخل الكهف وبدأت الإضاءة تظهر شيئاً شبيهاً حتى وصل إلى
النهاية، وكان بها سامور وهاتشوريا وزنتيكس ومعهم رابع لا يعلمه، القى
السلام واحتضن الأحباب وتذكر الرسالة التي وصلته مع الأميرة إيرين
من هاتشوريا، سننتظرك بين الرماح العوالي بين أوساط البوادي في الجحيم
الجنة لا تبالي، سننتظرك بالداخل، أعددت لك حصان وسيف وملابس
وزاد، لا تقلق يا أخي نحضر لك مفاجأة، دخل مبتسماً إليهم، فأجلسه
سامور بجواره، سيدي هذه الأشياء التي أعددتها من أجلك، وأما الخبر
الذي تنتظره جعلناه مفاجأة لك، لقد أردنا أن نفارقك مسلمين، نريد
الإسلام يا سيدي، نريد ذلك النور الذي تحمله في قلبك أن يحل مقامه في
قلوبنا، ولكن أنت تعلم أننا نجهل تعاليم الدين ولا نعرف كيف يكون،
وتعلم أننا فعلنا الكثير والكثير من الذنوب، فهل يغفر الله لنا .

:وقهقهه سراج ما شاء الله، هذا أعظم خبر سمعته منذ وقوعي في

الأسر، فليقبل الله منكم، الإسلام يا إخوة يجب ما قبله، الله عز وجل يغفر
بالإسلام ما قبله وهكذا هي التوبة .

: ولكن يا سيدي أيرضى الله عن قومي نكثوا الأيمان واستحلوا
الحرام، وباتوا في سكر يلهون وفي الأودية يعبثون، وبالناس يستهزئون،
كيف يرضى الله عن أناس هاجوا وماجوا وافسدوا في كل وادٍ.
:ويحك؛ يغفر الله لمن رسموه حجارة وزعموا أن له شريك، ألا
يغفر للتأبين والعائدين.

: ولكننا أسرفنا في البغي حتى صار مقرونٌ بأنفاسنا.

:ليتك لا تطيل الكلام، وتسرعوا إلى المقام حتى يحصل المراد.

:من أين نسلك الطريق، إن هممتنا ضيقة.

:اقبلوا إليه بقلوبكم وأرواحكم يُقبلُ إليكم بالمحبة تائباً، أيعجزه

ذاك.

:إذا؛ إن كان الطريق واسعاً، فلما نضيق الخناق على أنفسنا!!؛

فلتسعنا رحمته قبل أن ينألنا غضبه.

: تبسم لهم قائلاً الله يحب المقبلين العائدين وإن قالوا له شريك.

نظر كل من هاتشوريا وسامور وزنتيكس وتبسموا لبعضهم

البعض نعم نعم، هذا ما نتظره من هذا الدين، سيدي أردنا أن تنال هذا

الشرف وأن نعلن هذا الأمر بين يديك حتى تكون شهيداً علينا أمام الله، ما

وجدنا للقلب راحة إلا معك، ماذا نفعل حتى نكون مثلك، لقد تأثرنا بك كثيراً، تأثرنا بأخلاقك وأفعالك وصلاتك، أخبرنا هيا نتعجل هذا الأمر .

: التعجيل إلى الخير هو من سنن الأنبياء، لذلك يقول الله تعالى في قرآنه على لسان نبيه موسى (وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَىٰ أَثْرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى) فلتعي قلوبكم ما أقول ففي القلب يبقي، قولوا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .
أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

: فليرضى الله عنكم يا إخوة، أنتم الآن مسلمين .
: هكذا أصبحنا مسلمين ببضع كلمات، أتهزأ بنا يا سراج .
: نعم بهذه الكلمات فقط أصبحتم مسلمين .
: ألن نحتاج إلى طقوس وإعادة تطهيرٍ للقلوب .
: الأمر بسيط بضع كلماتٍ تخر منها الجبال، أنتم الآن مثلي، لكم ما للمسلمين وعليكم ما علينا .
: معاذ الله يا سيدي أن نكون مثلك .

: بل أنتم خيرٌ مني، يكفيكم أن صفحتكم الآن بيضاء نقية مليئة
بالحسَنَاتِ التي لا تحصى.

: أنت تعلم يا سيدي أننا لا نعلم أي شيء عن هذا الدين، غير أننا
رأيناك وأنت تصلي، أنا أحفظ عددهم، ولا اعلم ما يقولون بها، ولا وقت
لديك لتعلمنا فيهاذا ننصحنا .

: التوحيد هو جوهر الإسلام والله لا يقبل معه شريك .

: هذه علمناها وأسلمنا ونحن علي يقينٍ بها، التي تليها .

: الصلاة، عمود ذلك الدين، إياكم أن يسقط هذا العمود .

: الصلاة هذه رأيناك تفعلها ولكننا ما علمناها ولا نعرفها ولا

نفهمها، الباقي نقدر عليه .

: في منطقة قرب القسطنطينية يوجد هناك مسجد وبه علماء

ومسلمين اذهبوا إليهم وتعلموا منهم كونوا عوناً لإخوانكم .

: كيف سنلقاتك .

: سأجدكم، لا تقلقوا، أصل إلى بلادي على خير وحينها تكون كل

الأمر بسيطة .

إذاً يا سيدي، بعد غد ستخرج قافلة محملة بكل الأشياء، ستخرج إلى البحر متجهة إلى مايوركا، ستكون على متنها ومنها تدخل إلى الأندلس، فليكن الله معكم، خذ حذر يا سيدي إنهم يُحشدون أفضل الفرسان من أجل قتلك، سيدي؛ سيكون برنابو في رفقتك حتى تصل إلى الأندلس، والأمر يعود إليك في تركه أو يكمل طريقه معك، سيسهل التواصل بيننا .
: استودعكم الله، اذهبوا حتى لا يلاحظ أحد تغييركم .

:أمرك سيدي .

وما أن أوضح ضوء الشمس في ظل النهار، وأشرقت على الأرض بعد سجودها تحت ظل عرش الرحمن، كانت السفن تعبى بضاعتها منطلقة نحو ميورقة، خرج رجل سمين البدن، حليق اللحية، عليه عباءة سوداء مفتوحة من الأمام من أولها إلى آخرها، ويرتدي على خصره حزام مرصع بالذهب، كثيف شعر الرأس، تحدث إليه وكان بلباس الفرسان، من تكون أيها الفارس .

: أنا الفارس ألبين من حراس الإمبراطور .

صمت الرجل للحظات و إلى أين تريد الذهاب .

: أنا ذاهب إلى قشتالة، لا تسألني أكثر من ذلك حتى لا تعرض نفسك للهلاك، ونظر إليه بعينٍ حادة أظهرت له الرعب، تراجع للخلف خطوات؛ تفضل يا سيدي بالركوب .

: لقد كانت نظراتك ثاقبة يا سيدي.

: تعلمت الكثير من مخالطة الملوك والأمراء يا برنابو .

: أظن بأني سأتعلم الكثير من رفقتك يا سيدي.

انطلقت السفينة ذات الأشراع الكبيرة القادمة من البندقية من ميناء روما إلى ميناء ميورقة، على متنها التجار البندقيين، وبعد دفع الرسوم والضريبة، خاضت السفينة في عرض المياه، تخوض حربها مع الأمواج العالية، يضرب البحر بشدة مقدمة السفينة، وترتجف بهم الأمواج، ويتأيلون من شدتها، يومٌ كامل في قلب المياه، حتى وصلوا مايوركا وانتهزوا الفرصة وغادروا مسرعين على مركبٍ صغير سيدخل إلى أرض الأحلام، سيعبر إلى أرض الفردوس، ما بين الكفر والإسلام بحرٌ صغير يجب عليها اجتيازه، شعر برائحة النسيم تعبر إلى أنفه، أخيراً يراوده الشعور بالاطمئنان، أن له وقد عاد إلى بلاده .

: أرى السعادة تتطاير من عينيك يا سيدي.

: أشعر بأني في الطريق إلى موطني .

: ولكن هذه البلاد ليست بلادك .

: كل بلاد المسلمين بلادي، وكل أراضي المسلمين أرضي، وكل

رايات المسلمين رايتي، كل المسلمين إخواني وعدوهم عدوى .

: أنت من الشرق وتلك البلاد في الغرب وتحمل لهم كل هذه المحبة

: الإسلام يا برنابو يوحد القلوب ويؤلفها وينشر- المحبة بين

ابنائها، الإسلام دين الترابط .

: فليحفظ الله هذا الدين من الزوال .

: الإسلام باقي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ابتسم إليه وبقي في مكانه متمسراً ينظر إلى المدينة المقدسة التي

اقتربوا كثيراً من أبوابها، قرطاجنة السحر والجمال، جمال قرطاجنة يفوق

الأبصار، ياقوت رصعت بها أعلى التاج، دخلوا إلى الحمامات العمومية،

بدلوا ملابسهم، وارتدوا ملابس الأندلسيين، ومضوا نحو طريقهم، بعد

أسبوعٍ في قرطاجنة، من قرطاجنة إلى مورسيه إلى الميريا ثم قرطبة، شهرٌ في

الطريق، سلكوا المعابر وخاضوا الصعاب، ويمطرون الأعداء وقطاع

الطرق بسهامهم وسيوفهم، وأخيراً حان وقت الراحة والاستقرار النفسي-
بقرطبة .

: ماذا سنصنع يا سيدي .

: سنرتاح قليلاً في إحدى الخانات قبل الانطلاق إلى القلعة .

: سيطول بقائنا هنا .

: هذا في علم الله يا برنابو ولكن لن يطول بإذن الله، ولكن نبقى في

المدينة قليلاً نشاهد جمالها ومعالمها .

قهقه برنابو من كلام سراج عندك حق في كلامك سيدي، لطالما

أحببت أن أزور الأندلس منذ أن ولدتني أمي، سمعت عنها الكثير حتى

أنى كنت أراها في منامي، فليحفظك الله ولا يخيب رجائك أبداً .

: هيا لنصلي ثم لنستريح قليلاً ونمضى نحو خطتنا .

وما أن دخلوا أعتاب المدينة في أواخر جماد الآخر وعليهم غبار

الغرباء نزلوا بساحتها والسوق منصوب، والازدحام موجود، فساروا

يتفقدون أنحائها، ويسألون عن ابنائها، فالتقوا بوسط الطريق بسأل يسأل

عن حاجته، أعطني من مال الله الذي أعطاك، فأخرج الدراهم من أجله،

وأثناء سيره وابتعاده، استوقفه وسأله عن حاجته، أي عمى جئنا من سفرٍ طويل نسأل عن الأمير، نريد الوصول إليه، فهل أخبرتنا كيف الطريق إليه

: أي بني تسأل عن الأمير، إن كل شبر في قرطبة، ليس قرطبة

وحدها، بل إن كل شبر بالأندلس يحكمها أمير، عن أي الأمراء تبحث .

ما كان منه إلا أن نظر إلى برنابو نظرت حزنٍ إلى ما آلت إليه بلاد

الأندلس من الضعف والهوان بعد العزة والجلال ووجه دفته نحو المسكين : الأمير طلال يا عمى .

: ضحك الرجل عن أي طلال تبحث يا بني .

: أيوجد أكثر من طلال .

: الظاهر من كلامك أنك غريب، هناك الأمير طلال بن موردي

الذي يسكن عند نهر الوادي في قصره، وهذا أتمنى ألا تكون زيارتك إليه،

وهناك الأمير طلال بن الحسن وهذا من خير الناس، ويسكن مع جنده

بالقلعة الحصينة قرب الجبال العظيمة، وهذا أحسن من رأينا من أمراء

قرطبة .

: والله يا عمى لا أعرف من المقصود، ولكن ماذا تقصد من هذا
طلال بن مردى .

: لا أراك الله شره يا بني، إنه من أجشع الناس وأخبثهم، يأكل
حقوق اليتامى، ويظلم البراء ولا يخاف ولا يخشى أحد، ما دمت أنت
غريب في هذه البلاد، اسأل عن الشيخ العالم أبوبكر البرقي، واذهب إليه
هو سيدلك على الطريق، ورحل الرجل وتركه في حيرة من أمره .

: ما رأيك يا برنابو في كلام الرجل المسكين .

: فلتتوكل على الله ونذهب إلى هذا العالم أبوبكر .

: فليكن إن شاء الله .

: لماذا لم يخبرنا عن مكانه .

: فلنسأل هذا الرجل، السلام عليكم يا عم .

: وعليكم السلام يا بني عندي جميع أنواع الفاكهة الطازج، أختار

ما شئت .

: أنا غريب عن الديار، عابر سبيل، أبحث عن الفقيه أبوبكر

البرقي .

: آه تبحث عن دار العلماء ملاذ الفقراء .

: نعم عن ذلك أبحث يا عمى .

: خذ يا بني هذا الكيس معك، واذهب في هذا الاتجاه ستجده في

آخر الرواق، أعطى هذا الكيس لمولانا الفقيه: وقل له هذا للفقراء
والمحتاجين .

: بارك الله فيك يا عم فليحفظك الله، كم ثمنه .

: أتريد أن تسرق الثواب مني .

: ما هذا الجمال يا سيدي، الرجل لا يعرفك حتى ويأتمنك على

طعام الفقراء .

: ما زالت الأمانة موجودة يا برنابو، لم تنقطع الثقة بعد بين

المسلمين .

: كل يوم يزداد إعجابي بهذا الدين، فليرضى الله عنك يا سيدي .

: آمين .

وبعد القليل من المسير تحدث برنابو : سيدي ماذا يحدث؟، إننا

ضللنا الطريق .

: سيخرج الله لنا من بين الظلمات نورٌ يجيد لنا الطريق، ويرشدنا

إلى الصراط المستقيم .

:ولكن أظن أننا فقدنا هذا النور .

: لا تقل هذا يا برنابو، إذا كان الله معنا فلن نضل الطريق، سيهياً

الله الأسباب لنا حتى نعود، لن يتركنا في منتصف الطريق، إننا نحمل على عاتقنا أمانة عظيمة، أموال الفقراء في هذا الكيس .

:أليس في الكيس طعام يا سيدي .

: في الكيس طعام وأموال يا برنابو، لقد ائتمنا الرجل علي أموال

اليتامى والفقراء، وسنصل إن شاء الله .

وأثناء ذلك من بين أوراق الحارات .. وبين خبايا الزهور .. خرجت

فتاة لا يظهر من ملامحها شيء .. كأنها كالغراب .. تلبس السواد يغطي

جسدها من منبت الرأس إلى ظفر القدم .. كأنها شبحٌ ظهر أمامهم في

عرض النهار، كأنها النور المضيء لكل ظلام .

:أعوذ بالله، عفاريت بالنهار يا سيدي .

: هذه امرأة يا برنابو .

: لماذا ترتدي هذه الملابس السوداء، لماذا متخفية ومتنكرة هكذا،

أتهرب هذه الفتاة من شيء .

: هذه ملابس النساء في تلك البلاد يا برنابو .

: سبحان الله يا سيدي رأيت نساء وجوههم واضحة كوضوح
الشمس في جو النهار، ونساء متخفيات عن الانظار، ونساء ما بين ذاك
وذاك وملابسهم عادية.

: لذلك كان بعض اختلاف العلماء رحمة لنا.

: إنها مقبلةٌ نحونا.

: لنرى إن كان لها حاجة فعلنا ما في وسعنا لأجلها.

: السلام عليكم.

: وعليكم السلام.

: أثناء وجودي في السوق، سمعت بحدِيثكم مع البائع وأظن
بأنكم ضللتُم الطريق، فإن كان الأمر إلى منزل الفقيه أبوبكر، فهل تأذن لي
أن أدلكم على الطريق.

: إن كنا لن نأخذ من وقتك شيء، فسنكون بإذن الله كنبى الله
موسى بن عمران نسيرُ أمامك وتكوني خلفنا كابنة الصالح شعيب، إن
ضللنا الطريق ترشدنا بتلك الحصوات، هيا بنا يا برنابو.

: ماذا تكون أنت يا سيدي كأنك مطلعنا علي الغيب، قلت لي ننتظر
سيخرج الله لنا من يدلنا على الطريق، خرجت علينا فتاة لا اعلم أم من
الأنس هي أم من الجان .

: فلتعلم يا برنابو أن الله عبادةً ضلوا الطريق فأرشدهم بنوره،
وأعادهم إلى الطريق، وساروا بأعينهم الضعيفة يلتمسون النور، فهداهم
ورزقهم الله هدايته، فأيقنوا أن الأمر من الله، فاستحبوا أمر الله، وانسدلت
لهم الاستار فلا يرون إلا بنور الله، تلك البصيرة لا يعطيها الله إلا لمن
أحب.

ألقت الفتاة بعض الحصوات ناحية اليمين أول شارع في وجهتهم،
دخلوا إليه وساروا به قليلاً حتى ألقت الحصوات أمام باب إحدى المنازل
فوقفوا وتقدمتهم، واقتحمت الدار مسرعة غير ملفتة للانتباه، على الفور
خرج بعدها رجل وقور المظهر، عظيم المنكب، كث اللحية، يرتدى عمامة
بيضاء بها درجات، وملابس من الصوف، جلبابٌ طويلٌ أبيض اللون
وألقي السلام .

: وعليكم السلام يا سيدي الفقيه .

: سمعت بأنكم تبحثون عنى .

: نعم يا سيدي، نبحت عنك، معنا أمانات نريد إعطائها
لأصحابها .

: تفضلوا؛ وأدخلهم إلى منزله وأحسن استقبالهم، وأعد من
أجلهم بعض الطعام، حللتم أهلاً ونزلتم سهلاً.
: أحسن الله إليك يا سيدي .

وأمسك الفقيه بالكيس الميء بالفاكهة ما شاء الله أيها الفارس، لقد
أديت المهمة على أحسن وجه، بارك الله في من ربك، لقد أوصلت الكيس
إلى مستحقه، فليرضي الله عنك وعن البائع، لقد حكمت لي ابنتي عما صنعتها
في الطريق، فليجعلك الله مثل موسى بن عمران، ولكن يا بني من سوء
حظك أن ابنتي الوحيدة ستتزوج قريباً من ابن العالم ابن جابر، لو كان
عندي غيرها لزوجتك إياها وتبسموا.

: فليحفظها الله يا سيدي وليحفظك لنا، يكفيننا فخرأ أن نتشبه
بالأنبياء .

: فلتعلم يا بني أن الحياء خلقٌ رفيع يستسيغه الصالحون، لذلك
عمد نبينا صلى الله عليه وسلم في قوله "ونزل برأسه إجلالاً وتوقيراً لاسم
النبي" والحياء شُعبَةٌ من شُعبِ الإيمان، فارتبط الحياء بالإيمان، فأولئك

الذين يرتدون برقع الحياء يقر لهم السلام النفسي .. والأمان الروحي .. فقد
اعتنقوا عظيم يرفع مقدار العبد، وأما الذين يخلعون ذلك البرقع يرتعون في
مصائب الدنيا، ثم بعدها الهلاك؛ اعذرني يا بني على تظفلي هذا وتحذثي فيما
لا يخلصني، ولكن أرى ملامح وجهك يملؤها الغبار، غبار السنين
الطويلة، كأن وجهك لم يمسه الطيب منذ سنين، والرجل الذي معك
عرفته من لهجته روماني، أما أنت فلا أدري أمن الشرق أنت يا بني، أما من
بلاد ابن عبدالمؤمن، حتى أنى حسبتك من بقايا العبيدين، وجهك في
طياته يحمل الكثير، هل أخبرتني يا بني عن حكايتك .

(فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۗ نَجَّوْتِ مِنَ الْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ)

:فليكن اسمك من اليوم سراج الدين أفضل من سراج العربي،

فليكن الدين نورك، ولتكن أنت حامى الدين .

:رضينا به .

:سيدي صحبتك أكثر من شهرين، لم أرى منك إلا كل خير،

قاتلت بجوارك فكننت نعم الفارس، تخلقت بدينك فانجذبنا إليك

وأحببناك، ودخلنا في هذا الدين إقتداءً بك، وحتى نكون أعزة مثلك حتى في وقت أسرك كنت عزيزاً بيننا .

: ما شاء الله يا برنابو أنت مسلم .

: الحمد لله يا سيدي، لقد صحبت سيدي سراج الدين وأنا مسلم،

لقد شربت من الدنيا حتى ارتويت بهذا الدين، لقد كانت فرصة هياها الله لي، فلم أكن لأرفس تلك النعمة منقلباً علي وجهي .

: ما شاء الله إذا فلتتسمي بأسماء المسلمين يا برنابو.

: سيكون ذلك شرفاً لي يا سيدي أن أكون مثلكم واتسمي

بأسمائكم.

: فليكن اسمك من اليوم صهيب، تيمنا بالصحابي الجليل صهيب

الرومي، لقد سمعت بغزو ابن عبد المؤمن البلاد لقتال الفرنجة، فهلا لحقت بالجيش تكن لهم عوناً، وتخدم الجيش والمسلمين بقوتك وخبرتك .

: عندنا أمانة نؤدُّ أن نلحقها بأصحابها أولاً، سنذهب إن شاء الله

إلى الأمير طلال ثم نلحق بالجيش .

: أي طلال فيهم يا بني .

: سنلحق بالاثنين حتى نعلم من صاحب الأمانة .

:احذر يا بني من صاحب الظلم، ذاك الظالم أن يأكل حقدك .
: لا تقلق يا سيدي عباد الله لم يكتب عليهم الخوف ولا الحزن في
الدنيا، إذن لنا يا سيدي سنخرج للطريق حالاً، فليكن دعائك رفيقاً لنا في
رحلتنا.

:فلتكن معية الله معك، ولكن قبل انطلاقتك أردت أن يكون
تلميذي يحيي رفيقاً لك في طريقك .

: فليرضى الله عنك يا سيدي هذا كثير علينا.

: هذا هدية منا إليك، لقد تحدث إليّ يحيي أراد أن يكون رفيقك .

: فليكن إن شاء الله، سننطلق إلى الطريق الآن هيا أيها الرجال،

بسم الله، وانطلقوا نحو الغرب حيث يربط الأمير طلال بن الحسن مرابطاً
يحمي ثغور المسلمين من الأعداء، وبالقرب من قلعة الشمال تغذت حوافر
الخيول من الرمال، ورآنا الكشافة والحراس، ودقت الطبول معلنةً قدوم
الغرباء، واقتحموا القلعة اقتحام الكرام، ودخلوها دخول الأعداء،
ونفضوا عن ملابسهم الغبار، واستعانوا بالله على أداء الأمانات، وبلغوا
الفراس بضرورة مقابلة الأمير، فأرسلوهم حتى يستعلم الأخبار، لقد
أخبره بمقدمهم حاملين أمانةً له من أرض الرومان، ورسالةً مدونةً بخط

الحسنة، وما أن أمتثلوا أمامه ووقفوا بين يديه، وألقى السلام، رد عليه بالمثل وزيادة، وأجلسه مجلس الأمراء، واستمع إلى كلامه الذي بدأه بحمد الله والصلاة علي رسول الهام، وشرع في الحديث، وأكرمه الكريم حتى أفض بحلو الكلام، فعلم بأن الأمر لا يعنيه في شيء، وما ورد عليه مثل هذا الكلام، فقصص سراج عليه القصة باستيفاض، بعد أن تكلم بأدب عن رحلة الأسر والاضطهاد، وأخبرته بالوجهة والمراد، فحذره من بطش الظالم وأعوانه، وأشار إلى أن يذهب إلى بعض أخصائه قبل القدوم علي هذا الأمير، لعله أن حدث شيء يستطيع مساعدتهم في الخلاص، طمأنه حمزة وشكره علي حسن الموازنة وحسن الجوار، وتواعدوا باللقاء في جيش الموحدين، لقد أسعده كثيراً كلامه عن التواجد في اللقاء ونصرة المسلمين، لقد استحسنت عليه أن أعود إلى جواره، : تعالي إلي يا سراج نحمي ثغر المسلمين، وليكن أمر الله ما أراد، ثم أخبره الأندلس كلها تسمع عنك وعن أفعالك بالرومي، لقد اتخذوا هذا اليوم عيداً، وانطلقوا في الطريق يتزودون من الطعام، ويسلكون المسالك والأمصار، حتى قدموا علي أبواب قلعة قرطبة التي سكنها الأمير طلال بن موردي، أبواب القلعة الرئيسية مفتوحة علي مصرعها يدخلها من يشاء، وكُتب علي أبوابها أدخلوها

بسلام آمنين ولم يكن السلام والأمان بداخلها حاضرين، كانت وجوه
الناس عابثة، وأرواحهم كأنها علي كف طيرٍ من الهموم باكية، شاخصةٌ
أبصارهم، شاحبةٌ وجوههم، وملابسهم يعلوها الغبار، كأنهم علي سفرٍ،
والناس في جنبٍ مخافة العسكر، والجميع ينظرون نحوهم في عجبٍ، كأنهم
ملاكٌ نزل من السماء، أو كأنهم من غير طينة البشر؛
: إلى ما ينظرون ويتعجبون يا سيدي .

: لقد طال الفقر من أعناقهم يا صهيب، وزاد بطش الظالمين بهم
حتى أصبحوا صماً وبكماً .

وبعد المسير داخل القلعة والتجول في أنحاءها، تحدث يحيى لماذا
كل هذا المسير، لو توجهنا نحو القلعة والقصر لكان أسرع لطريقنا .
: لا نطمئن لبطش الظالمين بنا، لعلنا نجد الطريق إذا ظلمنا .
: لقد أعطاك الله بصيرةً في طريق الحق .

: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء يا يحيى، وهل يؤتى ثمار البصيرة
إلا بعد طول طريقٍ .

وعلي أبواب القلعة التي بداخلها قصر- الحاكم منعوهم من
الدخول، وتحدث إليهم أحد العساكر ماذا تريدون .

تقدم صهيب نحو العساكر: نحمل رسالة إلى الأمير طلال من

روما .

:انتظروا هنا، دخل الفارس وتأخر قليلاً ثم خرج قائلاً: سلموا

أسلحتكم واتبعوني، همس صهيب في أذن سراج صاحبك خائن، هل نسلم
أسلحتنا يا سيدي .

: نعم .

:الأمير طلال في انتظاركم .

ألقى سراج السلام .

لم يرد الأمير السلام ولم يستدر، وأشار بيده ملوحاً لهم بتسليم
الرسالة والإنصراف، حتى أنه لم يدر وجهه ليراهم، كان واقفاً أمام الشرفة
ينظر إلى طرقات المدينة، تقدم أحد الفرسان لإستلام الرسالة، فتحدث
سراج: أيها الأمير إن الرسالة التي معي أحملها بين صدري وليست في
الأوراق .

:هات ما عندك وأرحل .

: الذي عندي يقال في الوجوه وليس في الظهر، ومن ملامح
الرجال يُعرف المضمون.

الثفت الأمير منزعجاً وكأن الطامة قد سقطت عليه من السماء،
أتدري ما تقوله أيها الرجل.

: لو لم أدري ما قلته لما خرج من فمي.

اشتد غضب الأمير وأخرج سيفه من غمده: أقسم بالله إن لم تقل
ما عندك لقطعت رقبتك الآن.

مال سراج الدين برقبته يميناً: تفضل إن استطعت، ولكن أقسم
بالله قبل أن تصنع ذلك ستكون رقبتك في يدي اليسرى، ولتعلم أي لست
وحددي، وأي جئتك من عند الإمبراطور .

تنحنح الأمير وأنزل سيفه وتراجع بعض الخطوات إلى الخلف
:قل ما عندك أيها الفارس فأنا أسمعك.

: الآن استطيع التحدث، هذه رسالة من الأميرة إرين، ترسل
إليك سلامها، وهذه القلادة دليل علي صدق كلامي، لقد أرسلتني إليك
أطلب جوارك والمكوث هنا في بلادك حتى موعد أرتحالي.

آه، إذا أنت الرجل الذي صُدمت رؤوسنا من كثرة الحديث عنه،
أنت سراج العربي.

: نعم أنا سراج العربي.

:لقد سبقت شهرتك مقدامك، وذاع سيطك في البلاد، أتعلم أن
هناك مكافأة عشرة آلاف دينار لمن يأتي بك حياً، وقد أرسل إليّ بذلك أحد
أمراء الإمبراطور في روما، لقد جئت إليّ هدية من السماء، الحمد لله علي
هذه النعمة، بدون عناء وبدون جهد، يا حراس أغلقوا الأبواب واقبضوا
عليهم، وما أن أقرب الحراس ناحيتهم حتى اعتدلوا وتميئوا للقتال، فأتى
أحدهم ناحية سراج مشوحاً سيفه يريد إسقاطه، حتى تفلت منه وركل
الذي يليه بباطن قدمه، والتفت إلى الآخر فكسر ذراعه وأخذ سيفه، وكان
يجي وبرنابو قد فعلوا مع الجنود مثله وأحسنوا، وتوجه سراج إلى الأمير،
فأخرج سيفه وأراد ضربه به ولكنه تفاده، ودار به ووضع السيف علي
رقبته، والتحق به يجي وبرنابو ووقفوا بجواره، واقتحم جنود الأمير
المكان فتحدث سراج للأمير قل لهم بأن يرحلوا.

:أخرجوا، فتحدث الجنود لكن يا سيدي فصاح فيهم الأمير قائلاً
أخرجوا وأغلقوا الأبواب، ونظر إلى سراج: هلا نتحدث قليلاً، وانزل
سراج السيف وجلس الأمير علي متكئ له.

تبسم سراج لكلام الأمير: إذاً لقد أخطأت الأميرة إرين عندما
أخبرتني أنني استطيع البقاء في أرضك دون خوف، لقد أخطأت عندما
أخبرتني أنك علي ملتي وستنقذني من أيدي الكفرة، هي أسأت الظن بك،
يا ترى عندما أعود مكبلاً بالحديد، كيف ستغير رأيها بالمكوث في روما
وعدم اللحاق بك.

اعتدل الأمير في جلسته وقام من مقامه واقفاً كالطود: أ قالت لك
ذلك.

: يهملك إن قالت أو إن لم تقل.

: أجلس يا سراج، أجلس ههنا بجواري، يا حراس أ جلب لنا
بعض الشراب بسرعة، أحكي لي يا سراج ماذا قالت لك.

وأجلسه علي سريره وأخذ يسرد له في الحديث؛ قالت وقالت
وقالت وهي لم تقل من الأساس شيء، كان من اختراعه ما قاله، واستند
الأمير بظهره إلى الخلف ينظر ويحلق بنظره في عنان السماء، ولكن السقف

كان حائلاً بينه وبين ما يشتهي، وظل علي هذا الحال مدة، ولما أفاق قال لك الأمان يا سراج، والله لا أسلمك إلى الكفار أبداً، وفي نفسه مستهجنًا الآن لا تسلمني للكافرين، وما أن همم سراج بالرحيل حتى أوقفه، أصحيح يا سراج أنك قتلت فرسان الإمبراطور أمام عينه .

: نعم فعلت ما هو أعظم، سملت أعينهم .

: ألا تخشى بطشي أيها الفارس، ألا تخاف مني .

: إذا كان الله معي يا حضرة الأمير فمن من أخاف، عباد الله لا

يخافون من أحدٍ في هذه الدنيا .

: فبهت الأمير وتنحنح قليلاً وأردف قائلاً: جميل، من الظاهر أنك

مقاتلٌ قوي، فلتستريح ولنكمل كلامنا لاحقاً .

ورحل يتصبب عرقاً من جميع جوارحه، لقد نجاناه الله من هذا

البلاء .

: لقد خفت عليك يا سيدي .

: لا تقلق يا صهيب إن الله لا يخذلنا أبداً .

: إلى أين المسير إن شاء الله .

: إلى أقصى البلاد يا يحيى، سننطلق إلى العالم ابوبكر وسنلحق
بجنود الموحدين، الأمر قد اشتد، والبلاء قد حل بالبلاد، ولا بد للمسلمين
من خلاص، وها قد اقترب الخلاص، واقترب النصر إن شاء الله.

(اشبيلية)

مجلس السلطان يوسف بن يعقوب الموحيدي.

الاحتفال بالانتصار بمعركة الارك بمرج الحديد؛

وجاء الوزراء وقبلوا يد السلطان وجلسوا بجواره؛ واجتمع بالعلماء والفرسان وأقام مائدة كبيرة احتفالاً بالنصر ووزعت الأرزاق علي أهل البلاد، ولما فرغ الجميع وبدأو يتسامرون عن المعركة خرج من بينهم أحد الأمراء، وبدأ يتحدث لقد رأيت يا سيدي أمرٌ عجاب، رأيت أحد الفرسان وهو يقاتل، كان يقاتل بيمينه ويساره وكسر- غمده، ينكسر- السيف من يده وهو يقاتل فيجد غيره، أو يأخذه من يد عدوه بالقهر والسلب والاعتصاب قهراً وقسراً، لا يترك أي جندي من جنود الأعداء إلا وهو ملقى تحت قدمه، حتى كثر القتلى تحت قدميه، ثم قام آخر نعم لقد رأيت هذا الفارس وقد قتل ستة من جنود الفرنجة بسهمٍ واحد، صاح الحاضرين كيف يكون ذلك، تعجب السلطان مما سمع ونظر إلى وزيره وقال له كيف يحدث ذلك.

يا سيدي لما كُسر سيف هذا الفارس أخرج السهم وبدأ يرمي النبال من قوسه، فغدر به أحدهم من الخلف، ولكن كانت معية الله معه،

جرحه الجندي من الخلف، فالتفت إليه بجانبه فمر السيف من جنبه تاركاً له خدش بسيط في جسده، فمسك السهم ووضع في عنق الجندي وكان في أثره آخر فضربه بالسهم موضع النحر كأنه النصل فذرفت الدماء علي الأرض، وأتى اثنين دفعة واحدة، فضرب أحدهم في بطنه وهو يمرر السيف من فوق رأسه، وقتل الآخر بوضع السهم في عنقه، وما أن لحقهم الرابع حتى ذاق نفس المصير، ومسك القوس والقي السهم فقتل السادس، وبسهم آخر وضعه داخل عنق اثنين دفعة واحدة، وبدأ يرمي السهام نحو العدو لا يخطي هدفاً، ولا يخلف سهمه عن موضعه، وكان كلما فرغت السهام من جعبته انطلق يبحث عن غيرها ويأخذها من القتلى والجرحى ويلقيها مجدداً علي الأعداء، ولقد تتبعت أثره فعلمت بأن اسمه سراج الدين، صديق للأمير طلال بن الحسن.

أرسلوا إلى الأمير طلال وأخبروه أن يحضر إلى مقامي للسؤال عن

هذا الفارس لنجزي له العطاء. .

شهر صفر لعام ٥٩٢ هـ

قدم العالم ابوبكر علي سراج الدين، أراك مهتم كثيراً بذلك الإقطاع الذي اقطعه لك السلطان.

أقبل سراج نحو العالم وقبل يده، نعم يا سيدي فهذا أول حر مالي في هذه الأراضي.

:وبماذا تنوي يا بني أن تصنع به.

: لقد أعطاني الله يا سيدي من رزقه وفضله، فالمال مال الله وما نحن إلا عبيدٌ في مملكته نقوم علي توزيع المال حيث أمرنا.

: ألا تخشى الفقر يا بني.

: لقد أعطانا الله من فضله، كيف نخشى الفقر والله يعطي ولا يمنع، ولقد كنا أذلة فأعزنا الله، فقراء فأغنانا، أنبخل بمال الله علي عباده، والله لا يكون، لقد نذرنا هذا المال للفقراء واليتامى والمساكين، هذه أموالهم ونحن عاملين عليها، وقدم يحيى وصهيب وقبلوا يد العالم وجلسوا يتسامرون عن تلك الليلة التي قابل فيها السلطان وشرع يقص عليهم ما حدث له في بلاد الرومان، وما صنع بجنود الإمبراطور، من الصلب

والفقع والقتل، فأعجب به واستحسن الحديث معه، وزاده من الإقطاع حتى يضمن منه البقاء.

وأردف العالم ابوبكر كلامه قائلاً لما أراك مهموماً يا بني .

: هموماً تراكمت يا مولاي .

: ألقى إلى الله يغنيك .

: مالي سواه، ولكن كيف سنحتاط من تلك المصيبة، وعيوننا على

النميمة والرذيلة، وقلوبنا بالغفلة والتهيه سريعة، الذنوب تحتاط بنا من كل مكان وتحاصرنا، والنفس بخنجر مسموم في ظهورنا تطعننا، والهوى نميل إليه ويحكمنا، والشيطان جالس يضع قدم على قدم وبيتسم لهزيمتنا، شعرت بالعجز عندما أقف مهموماً لا أجد حلاً لمصيبي .

: الحل أن تبقي نفسك خاضعة لحكم الله وأوامره .

واقترب ربيع الأول، وجاء صهيب إلى سراج مسرعاً يحضر رسالة

من روما قد كتب في مضمونها؛ بعد أن كسر - الله شوكة الأعداء، وعاد

الفرنس يجر أذيال الهزيمة والخيبة، ويحمل علي عاتقه الثأر والانتقام، حلق

شعر رأسه ولحيته، ونكس صليبه، وركب الحمار، وأخذ يطوف بلاد

النصارى يحثهم علي القتال، فاجتمع له خلقٌ كثير من المرتزقة والمتطوعة

طمعاً في خيرات البلاد، وقد سار بجيش كبير نحو البلاد، أردنا أخباركم وإعلام السلطان، خادكم صوت الأذان، : صهيب جهزلي فرسي، ساذهب إلى السلطان حالاً، الأمر ضروري.

:أمرك يا سيدي.

وعرض الرسالة علي السلطان وعزم علي التجهز في الحال، واستنفر الجيوش من مراکش وما حولها ومن بلاد الأندلس، حتى جمع من الجنود جمع غفير، وسار به إلى لقاء الفنش حتى كسره، وهزمه هزيمةً أقبح من سابقها، وسار في أثره، وغنم الكثير والكثير، وساق الأسرى وباعهم بدينار للفرد في الأسواق، واستغنى الجنود جميعهم، وكان هذا من فضل الله علي الموحدين، أن تبقي في الأندلس شوكة من المسلمين تحمي العباد.

دخول عام ٥٩٣

وإن لكل طريق رفيق، فالتمس الرفيق الذي يضيء لك الطريق،
والذي يعينك علي أبصار النور في وقت الظلم والظلام.
كان الحر قد بلغ أشده علي الحدود المصرية، عبروا الطريق من عند
بعض القبائل حتى نزلوا بالإسكندرية، واستقبلهم الناس بالمضاف،
وأحسنوا استقبالهم، وأقام أحد التجار لهم وليمة لما علم بحالهم، وأنهم
كانوا في جند الأندلس لما انكسرت شوكة الفرنجة وعادوا إلى بلادهم
مهزومين ومدحورين، وأما عن الحال في بلاد الأندلس قد قفل السلطان
عائداً إلى افريقية للقضاء علي تمرد المثلث الميورقي، وتركوا الإقطاعيات في
خدمة العالم الجليل ابوبكر، يوزعها علي الفقراء والمساكين ومن لهم حاجة،
ولم يدم لهم البقاء في الإسكندرية أكثر من أسبوعين حتى نزلوا بالقاهرة،
وذهب سراج إلى العزيز عثمان بن صلاح الدين يسأله المكوث والبقاء في
البلاد، فأحسن استقباله، وأمر له بالمقام، ونزلوا بديار الربط "كانت تجهز
للمسافرين والغرباء وطلاب العلم"، واستقروهم المقام في تلك البلاد،
وكانوا يمرون بالقاهرة، فرأوا آثار من سبق، حمدوا الله علي زوال ملكهم،
فقد خربوا عقول العباد، وقتلوا العلماء، وشيعوا أهل السنة علي مذهب

الرافضة، يسبون عائشة وابوبكر وعمر وعثمان ليل نهار، فالحمد لله الذي
أذهب ملكهم، وأخذ فتنهم، وأراح العباد من شرورهم (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ
قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا
ۗ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ) وأثناء سيرهم بإحدى حارات القاهرة، مروا
بإحدى الديار المهجورة، وقد أعتلاها الغبار، وعشعشت العصافير
والحمام، وأتخذ العنكبوت له بيتاً، وكان من جملة أخبار الناس عن هذه
الدار، أنها كانت ملك لشاور آخر وزراء الفاطميين، ذلك المدعو الذي قتله
صلاح الدين، وانتشرت الشاعات عن وجوده بداخل الدار، وأن عفريته
يسكن البيت، حتى أن آخرين ادعوا أنهم سمعوا الأصوات بالليل،
وانتشرت الشاعات علي هذا الحال، حتى سراج بات في حالٍ قد يصدق ما
سمعه من مقال، حتى عزم الأمر علي اقتحام الدار، فوافقه يحيى لما عنده
من قوة الإيمان، وخالفه صهيب فالخوف يملئ جوفه من الكلام، حتى
عزموا الأمر وساروا في منتصف الليل متكرين ملثمين خيفة الرؤية
والأنظار، وما أن اقتربوا حتى تلى يحيى آيات القرآن مستعيذاً بالله من
شرور الجن، وما لبث سراج حتى نظر بين جدرانها فإذا بمقولةٍ قد نحتت
فوق باب الدار محيت آثارها من أثر الغبار فمسح الغبار، فالتفت إليه يحيى

وقد اعتلاه الغضب وتمكن منه الانفعال وبصوت باهت يدل على شدته
سيدي انتظر .

: ماذا حدث يا يحيي .

: اخشى عليك أن تكون تعويذةً من تعاويذ الجان، فانتباه شعور
بشيء من الخوف وارتجفت بعض الجوارح والأعضاء : وما الحل إذاً يا
يحيي .

: استعذ بالله وتحصن به من شر الجان، اقرء يا سيدي (وَمَا لَهُمْ
بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) اقرء آية الكرسي يا سيدي، وفعل ما أمره
به يحيي، ولما أكمل محو الغبار من علي المقولة، وجد ما تقشعر له الأبدان
"لقد رحل أهله الديار إلى الديار.. وما تركوا إلا الديار.. فما نفعتهم الديار
في دار عدلٍ وقد كانوا فيها عصاةً ليل نهار.. فمن يشفع لهم إذا ما سأهم
صاحب الدار.. أين الفرار؟ والجمع موجود.. وبين يدي مسئولٌ عن ما
جمع وما فعل في تلك الديار.. يا من بقى في تلك الديار.. ادعوا لمن رحل
عن تلك الديار" .

واقترحوا الباب في هدوء ووقار، وأمسك صهيب الشعلة، وأضاء الطريق، ودخل إليها خائفاً يترقب، وكان حالهم مثل حاله بالتمام، وأمرهم يحیی بتلاوة تلك الآية من القرآن؛

(وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)، وما أن اقتحموا المنزل حتى اهتزت المشاعل، وزلزلت الأرض من تحتهم، واهتزت الألواح والدواسر والحوائط، وأغلق الباب من شدة الفزع، وصاح يحيى قائلاً بصوت يسمعه الأنس والجان، السلام علي من حضر في الدار من الأنس والجان، سلام الله ذي القوة المنان الذي لا يعجزه أمرٌ في الأرض ولا في السماء، جئنا إلى الدار غرباء، وسنرحل غرباء، لا تسعوا في أذيتنا فنحن في حماية الجبار، وقد استجرنا به في رحلتنا، واستعنا به علي من في تلك الدار، إن كان منكم مسلمون فمعنا من الكلام كلام الله، وإن لم تكونوا مثلنا فإننا نحمل (قرأناً عجبا يهدي إلى الرشد فآمنوا به) يكن خيراً لكم، وإن أبيتم فلا تقرّبوا منا، فنحن سواعد الأبطال، وعلي أكتافنا نحمل أمانة الإسلام، ومعنا خير الفرسان، ونحن في إجارة من لا تقوى عليه قوة الأنس والجان، والسلام علي من أثار السلام ورضي بالحوار وطلب الهدى بحثاً عن الإسلام) أدخلوا بسم الله رب الأرباب

رب الأرض والسماء، اللهم إننا نستجير بك من شر الأُنس والجان،
ونستعين بك عليهم يا رب العباد، وهدأت الأحوال.. واستقر المقام..
وأضاءوا المشاعل والقناديل التي بالدار، وترأت لأعينهم ما خُفي عن
الأخبار، وما أن سكنت الروح وخف ظلها، بدأت أعينهم تنجذب نحو
الحوائط والجدران، يرون الآثار، ويقرأون الأخبار التي تركت عمداً لمن
يأتي خلفاً لأهل الدار، وتحسسوا بأيديهم وبدأت عملية مسح الغبار من
الدار، فاستند سراج الدين علي عاتق صهيب وصعد يفتح الشبابيك، شباكُ
شباك، وأحدث جلبة عظيمة أثار صداها في الأرجاء، وتخفى عن الأنظار،
أما حال الناس؛ فما أن سمعوا بتلك الأصوات حتى خرج بعض الناس إلى
الشوارع، وكان منتصف الليل قد أتى بإتقان، وبدأت الأتربة تنطلق خارج
الدار تصنع غبارٌ عظيم، قد ترى أمره للناس، حتى فزعوا وظنوا ظن
السوء أن الجن قد بدأ الحضور وبدأ اللقاء، أصوات طرقٍ وتكسيرٍ وتخبيطٍ
بداخل الدار ثم يخرج الغبار، كل ذلك أحدث في النفوس خيفة وريبة،
وهرول كل واحد نحو داره يستعيدُ بالله ويقراء ما تيسر من القرآن ويلتجئ
إلى الله، ويحتمي به من شرور الجان، وكانت الحقيقة عكس ما ترى
للأنظار، بدأ سراج يفتشُ الغرف بحثاً عن الدفاتر والأوراق، كأنه يتحدي

الجان، واقترب من الباب، وكانت السلاسل تحرسه، والأقفال تغلقه، وكأنها مغلقة من قديم الزمان، علق سراج المشعل وأشعل القناديل التي حول المكان، وأخرج الفأس المعلق علي ظهره، وبدأ يضرب في السلاسل عازماً علي كسرها واقتحم الغرفة، واشتد الصوت في الأرجاء وما زال الرعب مسيطراً علي قلوب الناس، وما أن سقط القفل ووقعت السلاسل وفتِح الباب، دخل سراج يتلوه آية الكرسي وما تيسر من أوائل سورة يس يجدها عصمةً من الشيطان، وأخذ شهيقاً وزفير، ثم أخذ نفساً عميقاً وأخرجه من فمه، ثم نفسٌ أعمق مما سبقه حتى استقرت أنفاسه، وانتظمت ضربات قلبه، وحام بعينه داخل الغرفة يبحث عن ما يلفت نظره، ويشير انتباهه، حتى وجد صندوقاً عظيمٌ محكمُ الإغلاق بالسلاسل الملفوفة حول الصندوق، يعلوهم القفل يسأل الخلاص، فنزل عليه بالفأس ضرباً حتى تفرقت السلاسل، وانفتح الصندوق، وساد الرعب في قلب سراج، وشخصٌ يبصره داخل الصندوق وما يحتويه وما لم يتخيله عقله في يومٍ من الأيام، برديات وأوراق تعود إلى شاوور الوزير الفاطمي؛ كأن الله أراد أن يخرج ما خفي عن الناس في يومٍ من الأيام، وكانت أول رسالة من عموري حاكم بيت المقدس إلى شاوور رداً علي رسالة الاستغاثة

من وزير العبيدين (الفاطميين) والتي أرسلها إلى عموري يطلبه بالحضور إلى مصر لكي ينقذها من شيركوه السني، وكان رد عموري أغرب مما أرسل، يستهزأ بشاور؛ كاتباً له: لقد أرسلت إلينا تستغيث بنا من ابن عمك، ولقد علمنا بأن الأمور تفاقمت، وأن العساكر تحت يدك تفرقت، وأن لنجدتك قادمون، ولاستغاثتك مُلبون، وأنت تعلم أن في عرفكم الإسلام؛

الرجل هو من يمهر المرأة للزواج، ولكنكم فعلتم غير هذا، وبدلتم دينكم، وغيرتم شريعة ربكم، وأني أتعجبُ من هذا!! كيف تدعونني للزواج من حريمكم وأنا علي غير ملتكم، وامهروني بأربعمئة ألف دينار كمقدمٍ لقدمي إليكم والزواج من عزيزتكم مصر، والدخول عليها وطردها ابن عمكم منها ومن زواجه بها، وها أنا قادمٌ إليكم حتى أحضر العرس بنفسي.

ألقي شاور الرسالة علي الأرض وأخذ يبكي بحرقه شديدة علي ما آلت إليه أحوال البلاد، واستهزاء الصليبيين بالأمراء وأجناد مصر، وكان بجواره فالتقط الرسالة وتمعتها بإتقان، وقرأت ما فيها، واطلع علي ما جاء

من البيان، وتوجه بالحديث إلى شاور، :سيدي، لما لا نسلم البلاد إلى
شيركوه، خيرٌ لنا من أن ندع هذا الكلب يمرح في البلاد حيث يشاء،
ويستولى علي خيراتها، وعلي الأقل شيركوه ابن العم ولن يرضى بأذيتنا
وقتلنا وتشريدنا، بل سيحرسها بخير الحراس حتى نتمكن منها مرة
أخرى، ونعود أقوى بكثير مما مضى .

: أتعلم ما تقول يا جعبز، أسلم مصر- للزنكيين السنين، هولاء
الرعا، أصحاب البقر والأغنام، سيخربوا البلاد وينهبوها، ويبدلوا ملتنا
بملة الكفار، لن يرحموا الناس أبداً بمنهجهم المتعفن .

:ولكن يا سيدي في تلك الحالة الزنكيين خيرٌ لنا من عموري
والصليبيين .

: اسكت يا جعبز أنت لا تفهم شيء، شيركوه أن تملك لن يرحمنا،
سينهي دولتنا من الوجود، سيقتلونا ويشردونا، سيحملون علينا حملة
واحدة .

:إذا استدفع الأموال إلى عموري، وترضى بتلك الإهانة، ودفع
الأموال للكفار .

: إهانة عموري خيرٌ لي من إهانة الزنكيين، ودفع الأموال للكفار
واسترضاهم حتى نستريح من شرورهم وتعود لنا قوتنا، خيرٌ لنا من دفعها
قهرًا للزنكيين، لن ترضي عنا شيعتنا أن سلمناها لهؤلاء الهمج من
الزنكيين.

وتحدث بداخل نفسه والله لهؤلاء الرعاع خيرٌ منك ألف مرة،
ولينقذ الله مصر من تحت يدك أيها الظلوم، وتمر الأيام وصدق الله وعده
لعباده المستضعفين، وأورثهم الأرض من بعد أكثر من ثلاثمائة عام في
ظلمات العبيديين، وجعله الله سببا في قتل شاور، لما علم بأن صلاح الدين
يتحيز الفرصة لقتله، فأخبرهم عن مكانه حتى قتلوه، وخلص الله من شره
البلاد والعباد، وعادت مصر مرة أخرى بأجنادها وشعبها إلى الإسلام،
بعد سنين ظلم عاشها المصريون تحت ظلم العبيديين، ورفضت منهج
المتشيعين وطاردتهم في الأودية والشعاب، وأحرقت كتبهم وقتلت علمائهم
وقادتهم، لقد أراح الشعب المصري العالم الإسلامي من شرور العبيديين،
وعادت الوحدة من جديد بين بلاد المسلمين.

وما أن أشرقت الشمس وظهرَ رحمها، بات الجميع ليلَةً عصيبة
يشوبها الأحلام والكوابيس، إلا يحیی الذي كان يجوبُ داخل البيت، يرتل

آيات القرآن ويغسله بالماء، ولما فلق الصباح، كان يحيى علي ظهر البيت، وفجأة ظهرت نسائمٌ عابرةٌ فاحت رائحتها، وما أن استنشقتها يحيى حتى أخذته في جو السماء، فأخذ يلوح ببصره يميناً ويسار، وعيناه قد باتت في سباتٍ عميق، وما أن استرد بصره حتى رآها فوق سطح بيتها، فصرخت مما رأت، كأنها رأت الجان، فولت هاربة، واندثر يحيى إلى الخلف حتى نزل إلى البيت هارباً من صراخها، وما أن دخل الغرفة حتى رأى صهيب مُستيقظاً من نومه فزعاً، وزاغ بصره وتحسرت أنفاسه داخل صدره، شهيقٌ زفيرٌ، شهيقٌ زفيرٌ، ضرباتٌ قلبه تتزايد، عيناه أظهرت البياض، واستيقظ سراج وربض علي صدره وصعد يحيى بجواره وأخذ يتلو آيات القرآن في أذنه، فلما أفاق واستعاد رشده ووعيه وشرب من الماء ما يروي ظمأه، أخذ يروح ببصره ناحية سراج ويحيى، وانتظر يحيى قليلاً، ثم تحدث إليه ماذا رأيت يا صهيب.

منزل العالم أبا سفيان المصري المقابل لمنزل شاور، وما أن نزلت الفتاة من فوق السطوح مسرعةً مفزوعةً يظهر علي وجهها علامات الخوف والاضطراب، حتى حضنها أبوها، وأخذ يخفف عنها، ويذهب عنها الروع والخوف، أخبريني بنيتي ما الذي رأيته أفزعك وأرهبك .

وأصبحت أنفاسها معدودة، وضربات قلبها محدودة، وصاحت
قائلةً رأيت الجان يا أبي.

:ماذا رأيتِ بنيتي.

:رأيت جان في زي إنسان، يرتدي عمامةً مثل عمامتك يا أبي، تحيط
بكامل رأسه وتمتد وتلتفتُ بعنقه، ويرتدي جلباب مثل الذي ترتديه، لكنه
لا يشبه الجان يا أبي.

:أين رأيتيه.

:في بيت الجان يا أبي.

:نعم يا بنيتي، بالأمس سمعنا أشياء غريبة، وفي صلاة الفجر
رأيتُ وجوهاً عجيبة، لم استطع تحديدها، وسمعنا أصواتٌ تخرج من البيت
كأصوات ترانيم ولكن بصوتٍ عزب جميل.

:ماذا سنفعل يا أبي.

:سأتحدث مع أهل الحارة في شأن هذا الأمر.

:ماذا رأيت يا صهيب.

:رأيت أشياءً خفيفةً بالمنام، رأيت كما يُرى للنائم طيور في هيئة
عفاريت ووحوش، أظافرها كحد المنشار، تخلق فوق رأسي من كل مكان،

ورأيت وحوش عملاقة تحوم بي من كل جانب تهرول خلفي مسرعة،
أسنانها تخرج من فمها مقدار رمح، وأنا أهرول حتى احتमित بكهف،
وبدوا يضربون نحوي المنجانيق، واقتحموا الكهف ومضيت أقاتل بسيفي
أسقط منهم القتلى، وأحوم ببصر-ي يميناً ويساراً أبحث عنكم لعلي
أجدكم، ولكنني لا أراكم بجواري حتى تكاثروا علي وأسقطوني أرضاً
ووضعوا السيف علي عنقي، وخرج من بينهم رجل غليظٌ شديد سواد
الوجه، يعلوه قرنين وأسنان كمخلب السبع، وكانت عيناه شديدة الحمرة
وحدثني قالاً أرحل عن هذه الدار الملعونة، وإلا فلن أرحمك أبداً،
ستجدني بالليل والنهار، سأسكن في أعماق عقلك، سأكون كابوسك
المزعج وآلامك التي لا تنتهي، إن لم ترحل فلا تلو منا إلا نفسك، ثم
خرجتم من حيث لا أدري ووضعتم فيهم السيف وأسقطتموهم قتلى، ولم
يبقي منهم أحد حتى كبيرهم ذلك، ما أن رأكم حتى ذاب كما يذوب الجليد
في نهار الصيف.

: ماذا ترى يا يحيي .

:أرى أنهم يتلاعبون بأعصاب صهيب لأنه الوحيد المرتجف بيننا

من هذا البيت .

: ما الحل إذاً .

: أن يتقوى بالقرآن ضدهم، وطالما نحن بجوارك فلا تخف يا صهيب، نحن رفقاك، نحن سندك، نحن معك يا صديقي، لا تخف من ذي شيطانٍ أو قرين سوء، لا تخشي الجان، فربُّ الإنس والجان معنا .
: وأنا أيضا رأيت رؤية بالأمس .

: ماذا رأيت يا سيدي .

: كأني أركب عربةً عظيمةً من عربات الملوك، وأسير بها في الطرقات، ثم نزلت منها وسيرت داخل طريق ضيق ثم سمعت هاتفاً يقول
(تِلْكَ أَلْدَارُ الْأَخِرَّةِ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۗ وَالْعُقُبَةُ لِمُتَّقِينَ)

: ابشر يا سيدي لعلها رؤية خير، إن شاء الله .

: وأنت يا يحيي ماذا رأيت أمس .

: لم أرى شيئاً بالأمس، ولكنني رأيت في الصباح العجب العجاب،
رأيت ملاك أنس جان .

: في هذا البيت لا نري إلا الجان يا يحيي .

:انتظر يا صهيب، بعد صلاة الفجر كنت أحصن البيت بآيات
القران، و صعدت فوق السطوح كي أكمل مهمتي، رأيت امرأة فوق
غاياات الجمال، تتخطي كل ما رأيناه من النساء في رحلتنا، بل هي أجمل من
نساء الشام وأوروبا.

: وهل تحترق حرمان المسلمين يا يحيي، وكان جالساً فاعتدل
قائماً.

وقام يحيي علي فوره محتداً ناظراً إليه بوجه يملؤه الغضب قائلاً:
ثكلتك أمك يا سراج، وهل تراني صعلوك، أم لصّ لانتهاك حرمان
المسلمين، والله ما فعلت ولا أفعل مثل هذا أبداً، كنت أجول بنظري في
المكان حتى رأيتها علي غفلة مني، فهرولت مُسرِعاً نحوكم، تلك كانت
أول نظرة وأخرها ولم أتمعن النظر فيها، لما رأيتها ورأيتني صرخت وهربت
من أمامي، ونزلت أنا فوجدت ما حل بصهيب، والله ووالله لم اخترق
حرمان البيوت ولم اختلس النظرات، والله لولا الله والخوف والرجا لما
هربت من أمامها، هل تظن بأني صاحب شهوة أو كمن يسال لعبابه علي
كعب امرأة، ولكنها واحدة خطفت قلبي من نظرتها.

وجلس سراج بعد أن استعاذ بالله من الشيطان وهدئ روعه وقال:
لقد ذكرتني بالماضي الأليم يا مجيبي.

: أيُّ ماضيٍ يا سيدي يغفر الله لك لا تذكره، فقد كتب الله عليه
الستر وتبسم له.

وما أن همَّ بالحديث حتى سمعوا أصوات في الخارج تحدث جلبة.
: ماذا يحدث في الخارج .

: والله لا أدري، لننظر ماذا يحدث في الخارج.

وما أن فتح سراج الباب، وخرج ثلاثتهم إلى الخارج حتى وجدوا
جمعٌ غفير من الناس أمام الباب، وفي أيديهم القناديل مشتعلة في ضوء
النهار، وما أن رأهم الناس حتى تسمروا في أماكنهم، وهروا أغلبهم، كل
واحد نحو بيته يتحصن به ويحتمي من شرور الشيطان.

وما أن رأهم العالم الجليل أبوسفيان حتى أخذ يقترب منهم في
ثبات، يستعيذ بالله ويتلو ما تيسر من القرآن، وبعض الناس من خلفه قد
أصابهم البلاء والخوف والاضطراب، وما أن رأهم سراج ومن معه علي
هذا الحال حتى صاحوا ضاحكين بصوت عال، فزاد اضطراب القوم

وفزعهم، فتقدم سراج نحو أبا سفيان وكان في ثباتٍ عجيب، ووقارٍ عظيم، وأخذ يدور حوله ثم تحدث قائلاً: السلام عليكم أيها الإمام.
وعليك السلام.

:إلا تخاف من حضورنا وظهورنا في ضوء النهار، ألا ترى أننا قد خرجنا من الدار والآن حان وقت إجلائكم عن تلك الديار.

:ألا ترى أنت أني جاورت هذا البيت أربعين سنة، ما خفت يوماً من وجودكم، ولا ارتابني شعورٌ بالرجاء.

وتسمر سراج في مكانه هيبَةً له، ولم يدري ما حدث له، ولم يشعر بأي حال قد وقع به الحال، وأردف قائلاً: ولكنكم يا معشر الأنس تخافون منا.

:أيها الشاب أرجع إليهم، وأختبئ في دارك، ولا تخرج إلينا مرة أخرى، وأحذر علي نفسك من غضب الرحمن، فنحن لا نتردد أبداً في إشعال النار بكم، وإراحة الناس من شروركم.

: لكنك وحدك لا تقدر علي ذلك، انظر إلى من خلفك قد أصابهم الخوف والفرع.

:أنا لا انظر خلفي أبداً، ما دمت قد خرجت للطريق لا يهمني من
بقي معي ومن ثبت بجواري.

: يعجبني ثباتك وإيمانك أيها الشيخ، ولكن تظل في نهاية الأمر
وحدك، هل تستطيع الانتصار علينا وحدك.

:كلا أيها الشاب، فاني معي ربي سيهديني، و جنود الله الذين لا
يعملهم سوي الله، وصاح قائلاً اللهم إني أستجير بك منهم.

فكأن بصد صوتٍ في أذانيه يقول: قد أجرناك عليهم، فخاف من
لحظتها، وعاد إلى الخلف خطوات، وعينه شاخصةً متشرّدة النظر نحو
السماء، وضربات قلبه تزداد، وما أن قدم نحو صهيب ويحيى حتى فاق من
غفلته، وطلب السباح من العالم الجليل، وأردف قائلاً: قد استجرت بمن
لا تقوى عليه قوة الأُنس والجنان، أما نحن سيدي، فما نحن إلا بشرٌ مثلكم،
وما نحن من الجن، وأخذوا يقصون عليه ما حدث حتى هذا الصباح،
واستسمحوه وطلبوا منه التماس الأعدار، فما كان منه إلا أن صاح قائلاً:
الحمد لله الذي أراني ذلك اليوم الذي يطرد فيه بنو الأُنس الجنان من تلك
الديار، لقد أخبرت الناس بذلك، ولكن خضوعهم وانكسارهم كان أقوم
عليهم مني، أما الآن فقد آن لنا الاحتفال بهذا اليوم المشهود، ولكن يا بني

أرى حالكم غريبة، وملا محكم تجمعها شتات السنين من الشرق والغرب من أين أتيتم، ملا بسكم غريبة، وملا محكم قريبة، تدل علي أنكم من ثلاث بلاد، كل بلدٍ عن الأخرى، لا تجمعهم إلا مناسك الحجاج، فمن أين الاجتماع؟.

تحدث يحيى قائلاً: جئنا من الأندلس يا سيدي، هذا سراج العربي من بلاد العرب، وهذا صهيب من روما، وأنا العبد الفقير يحيى من قرطبة الأندلس.

:يا الله، سبحان من جمعكم علي هذا الطريق بلا ميعاد.

: جمعتنا المحن والشدائد يا سيدي، واخذ يقص عليه القصة من أولها إلى يوم اللقاء، حتى وصل عند اسم العالم أبو بكر القرطبي، هنا أوقفه الفقيه أبو سفيان وأردف قائلاً: أتعرف العالم أبو بكر، تدخل يحيى في تلك اللحظة إنه أستاذي، درست الفقه والحديث علي يديه.

: سبحان الله إنه صديق عمري ورفيق دربي، ألتقينا في البيت

الحرام، وانطلقنا في رحلتنا إلى نيسابور و بخاري و بغداد و الشام، نأخذ العلم من المشايخ والعلماء، وأقمنا في مصر- زمان، حتى عاد إلى قرطبة و بقيت أنا هنا.

لقد أخبرني عن هذه الرحلة، ولكن لم يسميك باسمك، قال
صديق عمري عبدالقدوس.

:أنا هو يا بني.

وتسامروا وأقيمت من أجلهم الولائم واحتفل الناس، وذهب
الخوف وعاد الأمان، وعلم أهل القاهرة بتلك الحادثة حتى وصل خبرها
لقصر السلطان.

ومع مرور الأيام والشهور، وبعد أن مُنح القصر- لشئون الدولة
الخاصة، وتوظيفه وتهيئته علي أحسن حال، وانتقل الرفاق إلى المعيش في
أحد الدوار، "دوار الربط للغرباء"، الأمر الذي جعل يجي يتقرب بقوة إلى
العالم أبا سفيان، ويطلب العلم منه ويستشيع الأمور الفقهية والكونية من
فيض بحره الواسع .

وبين الليل والنهار نسأت فجرٍ يستنشقها العشاق والزهاد، نورٌ
من الله أضاء الكون بإحكام، وبينما هم يتسامرون، أخذ يجي دفعة الحديث
قائلاً ألم تعشق يا سيدي من قبل.

:نعوذ بالله من المجاهرة.

:لقد جاهر النبي بحب السيدة عائشة أمام الناس ولم ينجل.

: أتقارنني بالحبيب المصطفي، وقد أحب عائشة زوجته.

: أعوذ بالله يا سيدي، أو غير ذلك قصدت من كلامي.

: انتم يا معشر الفقهاء لا يغلبكم جاهل.

: أعوذ بالله أن أشبهك بالجهال يا سيدي، أخبرني عن المستفاد حتى

أطبقه في عشقي.

: يا بني، إن العشق كفرٌ بواح، من أجله يستعذب العذاب، ويئن

الحنين إلى الأوفياء، فيخرج صاحبه من الإيمان باليأس والإحباط، إلى

التفاؤل ومقاتلت عموم الناس حتى يصل إلى عشقه، وإن سال في ذلك

الدماء وقطعت الرقاب، ولكن مالك أنت ومال العشق يا محبي.

: أولم أخبرك يا سيدي.

: لا، لم تخبرني عن شيء.

: لقد وقع قلبي في المحذور، وعشق ومال إلى الحب من شهوور.

: ومن التي صنعت بك تلك الأهوال.

: أسماء يا سيدي، أسماء، أسمها عشقٌ، وملا محها دين لا يهجر،

وضعتني علي أول الطريق ثم تركتني حتى وصلت في منتصفه حائراً، أين

المسير؟، حتى وجدتها علي جنبه تشاور إليّ، فتقدمت، فأشارت إلى أبيها

فعلمت المراد، إذا عشق المرء فعليه الاستئذان أولاً، فالعشق دار الغرباء، وملاذ الأبرياء، ونهاية الصادقين في دارٍ يعلوها الحب والإيمان، هي أسماء، وما أن أشارت إليّ، حتى انتفض قلبي حاضراً، يكفي من الحب أسماء، كأنها تشبه الملاك في الجمال، حسبك إنها أجمل من الملاك، أنها خلقت بأيدي الرحمن، أتعلم يا سيدي لولا أسماء لما عرفت العشق وذودت بدعوتي دفاعاً عن العشاق.

لقد قدّم يحيى إلى العالم ابو سفيان يأخذ منه كل مستفاد؛ وبينما هم جلوسٌ ذات مرة، إذ تقدم يحيى لسؤال الشيخ مخاطباً إياه: سيدي ماذا لو تقدم شاب إلى فتاة، بسيط الحال، غريب البلاد، متنقل مرتحل لا يعرف له قرار، وبعد الامتحان عُرف عنه خلقه ودينه، هل يرضى أهل الفتاة به، خصوصاً إن ابنتهم قد يستقر بها المقام في دارٍ غير الدار، وهل في رفضهم فتنةٌ وفساد.

:سؤالك عظيم لم نسأل مثله أبداً في حياتنا، المراد إن عُرف عنه ذا الدين والأخلاق وجب علي أهل الفتاة أنكاحه، أما عن الغربة والتراحم فهذه تعود إلى الفتاة، وليس بها فسادٌ ولا ضرر إن رفضت الفتاة، قد يحدث أن تكون الفتاة معلقةٌ بأبيها وتخشى فراقه بسبب كبر سنه وسوء حاله.

:ما الذي يجب على ذلك الشاب أن يفعل حتى ينال المراد.
:ينتظر حتى تأذن الفتاة وتستخير وتستشير أهل الرأي والصلاح .
واستأذن وغادر إلى بقية الرفقاء وكانوا يعدون العدة للرحيل،
فدخل عليهم مُلقياً السلام، متعجباً من حالهم ومن سرعة رحيلهم، ألس
تحضروا حفل زفافي إن شاء الله .

:بماذا أجابك العالم أبا سفيان .

:أمهله ثلاثة أيام حتى يجيبني .

:فليكن الخير صاحبك في طريقك، وما هو قرارك يا صديقي

أترحل معنا أم أنك ستعود .

: لقد أحببت رفقتكم، ولكنني أظن بأني سأعود إلى الديار، لأقص

على شيعي ما رأيته في هذه البلاد .

: إن شاء الله سنحضر زفافك ونرحل على الفور .

إن شاء الله؛

كان الجواب كافيا شافيا لصدر يحيي حتى أنها ما أن رأته وقلبها به

شغوف، لقد كان نعم الرفيق في رحلة العلم والإيمان، وها هم من جديد

سراج وصهيب في رحلتهم نحو أرض الله الواسعة، ولكن كانت المفاجأة التي لم يتخيلوها، يحيي يلحق بهم في الطريق.

:سيدي، سيدي.

:يحيي ما الذي أتى بك يا صديقي.

:تلك الوصية التي الزمني بها شيخي أن أكون رفيقك حتى

النهاية.

:يا الله ستكون معنا يا يحيي، ما أجملها رفقتك في طريق الخير

والصلاح.

:فلتكن رفقتنا فتحاً للعالم بأكمله يا سيدي، واحتضنا واعتناقنا

وأكملوا المسير.

(وأنى لا أكتب المقولة حتى تقتبسها، ولكنى اكتب المقولة حتى

تعيها وتفهمها، وتعمل جاهداً على استخراج ما بها من قوة تقودك إلى

الطريق المستقيم)

(تبريز 598 هـ)

إقطاع الأمير ضياء الدين، الحديقة الخلفية، يجلس ضياء على منضدة وأمامه كوبٌ من الحليب، وازهارٌ تتنفس عقبها في جو الربيع، وأشجارٌ تنتظم في صفوف متساوية في الطريق، وفي باحة القصر- كانت صفية تهرول خلف طفلٍ صغير يسابقها المسير، توقف يا عمر توقف، عمر الطفل الأشقر صاحب الأربعة أعوام.. اصفر الشعر.. ازرق العينين.. أبيض الوجه.. يميل إلى الحمرة.. انطلق نحو مقعد أبيه.. وما أن اقترب منه حتى قفز عليه، أبيييييي.

: عمر الطفل المشاكس، لماذا تهرول.

:أمي خلفي يا أبي، أنا أختبئ منها.

: ماذا تريد أمك منك يا عمر.

أشار عمر إلى أبيه واضعاً إصبعه السبابة على أنفه قائلاً لأبيه هس، تحدث في سكون يا أبي حتى لا تكتشف أمي موقعنا، إنها تريد أن تقبض على.

: لماذا تريد أمك أن تقبض عليك.

: تريد أن تعذبني يا أبي بوضعي في الماء تريدني أن استحمي.

:أختبئ أمك قادمة.

: ضياء الم ترى عمر.

: هس يا أبي لا تخبرها.

: عمر، أين عمر؟.

: لا اعلم يا صفية.

: أخبره إن وجدته بأني لن اتركه، والتفتت وأمسكت بعمر.

:أبي، أبي أنقذني يا أبي، أنقذني يا أبي.

ضحكت صفية و ضياء من عمر الصغير ثم تحدث ضياء هل تريد

أن تكون قوي مثل أبك يا عمر؟.

: بل، أقوى يا أبي، أقوى منك ومن أمي حتى لا ترغمني علي

الاستحمام.

: إذا يا عمر عليك أن تستحمم حتى تصبح نظيف وتصبح قوي.

:أمرك يا أبي.

: خذيه يا جارتا.

:أمرك يا سيدتي.

: أخبرني ماذا تصنع، ووضعت يدها على عاتقه .

: لقد طلبني السيد علاء الدين لأكون في جيشه لاسترداد الأراضي التي اغتصبها منا الغوريون في خراسان.

: وهل ستذهب يا ضياء، واعتدلت في جلستها.

: وما الذي يمكنني أن أصنعه غير الذهاب.

: إلى من ستركنا يا ضياء.

: واعتدل في جلسته ونظر إليها بغضب، قائلاً منذ متى ونحن

نسأل مثل هذه الأسئلة يا صافية، أنسييتي تلك العهود التي أخذناها على

أنفسنا، أنسييتي تلك الأرواح التي بذلناها في سبيل دولتنا، إننا نقاتل من

أجل قضية تسيل من أجلها الدماء، وتزهق من أجلها الأرواح.

: اعذرني، ولكن قلبي ينتفض كلما ذهبت عني .

: لا تخافي سنعود إن شاء الله، لن تطول المحنة، هذه المرة سنسترد

كل أراضيها، سوف تذهبي بالابناء إلى خوارزم، وستبقى هناك حتى

عودتنا.

: أمرك، وأومات برأسها إلى الأسفل، كأنها تبكي وكأن وجهها

بالدموع يرتوي، فنظر ضياء إليها ووضع يده على رأسها ومسح الدموع

من عينيها، لا تبكي يا حبيبتي فقلبي ينفطر لبكاك.

:لا تحمل همّاً يا حبيبي، أبكي على فراقك هذه الفترة، ما تعودنا
على ذلك، تغيب عنا ولا نعلم إلى أي مدي سيطول الغياب.
: لن نغيب يا حبيبتني، لا تقلقي سنعود على الفور.
:انتظرك، وقلبي لن يتحمل حتى أراك أمامي، ومسح عينيها من
الدموع ثم أردفت قائلة: ولكن أخبرني لماذا أقدمت على قتل هؤلاء
الأشخاص.

: أي أشخاص.

: أولئك الذين قتلتهم عند حدود الشام منذ أربع سنين.

: أه، أو لم أخبرك عن السبب.

: لا يا حبيبي، لم تخبرني.

: هذه كانت ليلة الثأر يا عزيزتي، ليلة رد الشرف والانتقام ممن قتل

أصحابي وجنودي.

: وماذا حدث.

: قتلت الخونة كلهم وانتقمت لجنودي.

: الحمد لله يا حبيبي أنك أخذت بثأرك وعدت إلينا سالمًا.

(قلعة خوارزم)

في مجلس ضم علاء الدين محمد خوارزمشاه ووزرائه وقادته المقربون وبعد حوار دام طويلاً، تحدث جلال الدين محمد، وكان القائد العام لعسكر الخوارزم وأحنكهم قوة، وأكثرهم براعة في ميادين الفروسية، تحدث قائلاً حصون نيسابور منيعة ودخولها مستحيل مع وجود تلك الأعداد من القوات الغورية، وعلى رأسهم علاء الدين الغوري، إنه داهية يا أبي يصعب انكساره.

التفت خوارزمشاه لحديث ابنه قائلاً، لقد سعت يا بني من أجل ذلك الأمر، وراسلت غياث الدين الغوري في استرداد بلاد دي فغالط في الرد، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله، يا بني الحق المسلوب لا يسترد إلا بالقوة، وهم أجبرونا على فعل هذا، ولا يوجد حلٌ آخر غير القتال.
فلتكن يا أبي، ولنسترد ما أخذوه بالقوة، ومن أين سنبدأ؟.

أمسك خوارزمشاه بالسهم وبدأ يشير على رسومات، هنا مرو بها ابن عمك هندوخان يتحصن بها بعساكر الغورية ظناً منه أنهم سيجمونه بعد غدره بنا، ستنتقل أنت يا جلال ومعك ضياع وجنقر على رأس

الجيش، ومعك ألفٌ وخمسة تسبقنا بهم إلى مرو، وعندما تنتهي من أمرها
نجتمع في الطريق إلى نيسابور .

:أمرك يا أبي، إذن لي بالذهاب حتى أجهز للخروج.

: اذهب يا بني فليكن الله معك .

وما أن خرج من مجلس أبيه حتى أشار إلى ضياء وجنقر، استعدوا

قد أسند إلينا أمر استرداد مرو، سننطلق قبيل الفجر .

تحدث ضياء قائلاً : فليكن من نصيبنا هذا الفتح .

ولما عاد إلى البيت يللممُ أشياءه في عجلةٍ، خاطبته صفيية قائلة .

:لماذا هذا الاستعجال .

: سننطلق إلى مرو في الصباح يا صفيية مع الأمير جلال الدين،

سنكون على مقدمة الجيش .

" فليكن الله معك، وهل سيطول المقام بكم بعيداً عنا .

: الله اعلم يا صفيية، هل سنعود أم لا .

:ولماذا لا تبقى أنت هنا في الحامية الموجودة بالقلعة للحماية .

: لقد اسند إليّ السلطان تلك المهمة مع ابنه .

واحتضنته والدموع تبلبل وجهها ألا حرصت على أن تعود إلينا

سالمًا.

: يا حبيبتى الأعمار بيد الله .

: أنا اعلم ذلك، ولكن قلبي ينقبض كلما خرجت للحرب .

: وهل نخرج للحرب إلا من أجلكم .

: أرجوك يا ضياء عد إلينا سالمًا، عدني بأنك ستعود .

: إن قدر الله لي ذلك فإني سأعود إن شاء الله، وربت على كتفها

وتركها وغادر منطلقاً نحو معسكر جلال الدين .

وما همُّ صفة إلا جها، ولم تلك القسوة التي تبديها، أو بذلك

تثبت لنفسك قوة، يا لقساة القلوب إن لم يرفقوا بمحبيهم، إن كانت

إمكانيات قلبك لا تسمح بالاعتدال في المحبة، فلا يزداد جرمك أن تكون

سيء الحوار، يا لقلبي من قسوة الأيام، أعلى صفة يستقوى، فلمن يرق

ولمن يلين إن لم يكن لها ولأجلها .

وما أن فلق الصبح، إلا وكان الجيش في طريقه إلى مرو يتقدمهم

جلال الدين ذو التسعة عشر عام، متوسطاً بين جنقر التركي عن يساره،

وضياء الدين عن يمينه، التفت جلال الدين ناحية جنقر التركي حدثنا عن حياتك يا جنقر .

:وهل يليق بي المقام لذلك يا سيدي .

:دعنا نتسلى حتى نصل إلى بغيتنا .

:تبسم جنقر أمرك يا سيدي، لقد كنت في خدمة سلطان الروم عز

الدين قلج ارسلان، خدمته في أعظم المهام وأخطرها على الاطلاق، كنت في اغلب مهمات تأمين أسرته، كنت رقيب على الأمراء والجنود .

:متخفي .

:شيء من هذا القبيل سيدي .

:أخبرني عن أحوالهم .

:قوة لا يستهان بها، وعزة لا ذل بعدها، ومنعة وجيوش لا تحصى-

عددها، ومكر الحروب ودهاء الملوك، خبرات السنين يا سيدي، وهم ملوك الروم الأسياد، مُذلّ البنزطيين وقاتلي خيرة جنودهم .

:هل لنا إليهم من خلاص، ونمتلك ما لهم، ونكتب أسمائنا مكان

أسمائهم، ويعيش المسلمون في حمانا وننهي حكم أولئك الظلمة .

يا سيدي إن كنا لا نستطيع استرداد حصنٍ أخذه منا الغوريون،
أنستطيع مجابهة سلطان الروم وقد ذلوا الفرنجة وافنوا جيوش الصليبيين
في حملتهم على بلاد الشام، لن يأخذ أمرنا في أيديهم بضع أيام .
أشدت الكلام على جلال الدين وأحمر وجهه من الغضب، وأخذ
الكلام على محمل الجحد، واشتدت حمرة العين كأنها اللهب والبركان،
واستنفذ قائلاً أراك تحن إلى الماضي، وتحايي للسلاجقة .
معاذ الله يا سيدي ولكنك قطعت كلامي، فأنا لم انتهى بعد من
حديثي .

وهل عندك تقييلٌ وتصغيرٌ أكثر من ذلك بشأننا وقوتنا .

اسمع يا سيدي ولا تغضب .

أكمل هيا أسمعك الآن .

ولكن يا سيدي نحن في هذا الوقت لا نستطيع مواجهتهم،
لأنهم أكثر تنظيمًا وهدوءً في البلاد، وأكثر الجند من حيث العدد والعدة،
ولكن نستطيع في حالة واحدة فقط .

وما هي تلك الحالة التي نستطيع أن نهزمهم فيها .

:لن نهزمهم فقط يا سيدي، ولكننا سنمتلك حينها الأرض،
وسنكون نحن الحكام.

ظهرت علامات التعجبِ على وجه جلال الدين ومتى سيهل
علينا ذلك.

:عندما تنتظم أمور دولتنا، ونسيطر على المناطق بشكل دائم،
عندما يحل الأمان بالبلاد، ويخضع لنا الشعب، حينها سيكون، الشعوب
تتعامل بالرحمة يا سيدي، لا القوة ولا الظلم يستطيعون القضاء على
الناس، سيحملون في صدورهم كل وهن وكل ذل حل بهم، حتى إذا جاء
وقت الفيضان لن يتركونا.

:أخبرني ما الذي حملك على تركهم.

:الخيانة يا سيدي.

:يا الله، الخيانة ما أقبحها، تدمر الشعوب وتقتل القادة، ماذا
حدث لك.

:غدر بي أحد القادة يا سيدي وسلمني للصليبيين.

:نعوذ بالله، وقع في الكفر من أجل تسليمك للكفار والخصاص

منك.

:ليس بهذه الطريقة يا سيدي، كنت في مهمة سرية، تحمل بداخلها رسالة أحملها من الخليفة إلى سلطان الروم، مررت ببغداد ثم حماة وحلب، ومن حلب كانت الفاجعة، لم أدري بما يحدث غير جثث ملقاة حولي، لقد قتلوا كل من كانوا معي، وبقيت أنا واقفاً بسيفي، أقاتل البقية منهم حتى سقطت يا سيدي من السهام التي غرزت بداخلي، وسالت الدماء من جسدي، حتى وجدني بعض التجار الخوارزميين وداوني، فكان لهم عليّ دين ففضيته بيعي في السوق للسلطان.

:لقد حزنت من أجلك يا جنقر، وما الذي تنوي فعله.

:الانتقام يا سيدي، الانتقام هو الشي الوحيد الذي سيسفي غليلي.
وفي صممت رهيب من قبل ضياء، ذلك الشرود الذي ذهب به في عالم آخر، انتبه لذلك جلال الدين والتفت إلى ضياء قائلاً إلى أين ذهبت بعقلك يا ضياء.

: كأنه يقص ما حدث لي بالتهام يا سيدي.

:وما قصتك أنت أيضاً يا ضياء.

: كنت أعيش في أرض السلاجقة يا سيدي، كنت في خدمة الوزير مراد الدين داود، وكان قد أخرجني من داري في مهمة سرية من أجل

الدولة، ولكن بعد مرور أكثر من ثلاث سنوات في مهمتي حدث ما لم أتوقعه، أثناء عودتي إلى الديار، خرج عليّ بعض جنود الشر، وقاتلونا وسقطت على الأرض من كثرت الطعن في جسدي، حتى لحقني بعض الجنود الخوارزميين، وكان على رأسهم الأمير مندوكان، كأن حلب قد وجدت لتكشف الخونة، أكثر من حادثة بهذا الشكل تحدث بعد الخروج من حلب.

:وما السبب في ذلك من رأيك يا ضياء.

:الإمارات الصليبية التي بالجوار يا سيدي، كل المصائب والفتن تحدث بسببها، وبسبب وجود الصليبيين في تلك المنطقة، إنها إمارات الشر، بداخلها يحيك الأعداء لنا الفتن، يتربصون بنا، يقطعون علينا كل سبل الراحة من أجل أمنهم، لا بد من القضاء على تلك الفتنة، وهزيمة الصليبيين وإخراجهم من هذه المناطق وإعادتها إلينا من جديد.

:إنها من أولوياتي يا ضياء، أن نحرر أرض الشام من دنس

الصليبيين.

:فلتكن نيتك محل خير، وليجزيك الله خيراً على انشغالك ببلاد

المسلمين وأحوالهم.

لم يدم الحصار طويلاً حتى استسلمت حامية مرو وطلبت الأمان وأُخِلت القلعة، تمت العملية بنجاح وانطلق جلال بجيشه يلحق بأبيه في الطريق.

وفي أوائل صفر كانت جموع الخوارزميين على أسوار نيسابور، وكان السلطان خوارزمشاه متوسط الجيش، وقد نصبت له خيمة فوق عالية الجبال، يترأى له كل ما يحدث في المعسكر وما يحدث على أسوار القلعة، ويبعث بإشارته إلى الجنود، وترك ابنه جلال الدين في قلب المعركة يخوض غمارها بنفسه، وقد عرف عنه شجاعته وبسالته الحربية في أرض المعارك.

:ماذا نصنع يا أبي، لقد طال الأمر كثيراً، لقد مر شهرين.

:ما زالت المراسلات مع الأمير علاء الدين الغوري عاملة، أأمل

أن يستسلم.

:وفقدنا الكثير من الجنود، والغوريون يجتمعون بأسوار القلعة، لا

يمكننا اختراقها.

:ما زالت على أمل استسلام الأمير علاء الدين الغوري، إن لم

يستسلم عن قريب فسوف نقتحم القلعة وندخلها قهراً.

وهل ننتظر حتى يفنى جميع جنودنا يا أبي.

الصبر يا بني، عاجلاً أم آجلاً سيستسلمون، المؤن في نقصان،

والجنود عزائمهم في انهيار.

قد يأتيهم المدد من الغوري.

الغوري مشغل بأمور الهند عنا، أرسل مرة أخرى إلى الأمير علاء

الدين الغوري وأبلغه الأمان والسلامة لكل من معه.

أمرك يا أبي .

يا بني إننا نواجه واحد من أفضل القادة الغوريين في خرسان، إن

استطعنا أن نستميل قلبه ناحيتنا فنستطيع حينها السيطرة على خرسان

بدون مقاومة، الصبر يا بني مفتاح الفرج، مفتاح الملوك.

وبعد أن طال الحصار بالمدينة وأيقن علاء الدين الغوري من عدم

وصول المدد إليه، ونقص المؤن داخل المدينة وتذمر الأهالي، قرر التسليم

إلى خوارزمشاه وأرسل إليه في الصلح والأمان وعدم الاعتراض له ولمن

معه بالحبس أو القتل.

سيدي جلال الدين هناك رسالة من الغوري مع أحد جنوده.

أرسله إليّ واخلع عنه سلاحه.

:أمرك يا سيدي، ووقف الجندي أمام جلال الدين ومد يده
بالرسالة نحوه فالتقطها أحد الحراس ومال بها نحو جلال الدين، وما أن
همَّ بأخذها وكانت عيناه تلتقي بعيون الجندي، جامد الملامح الذي لا
يظهر منه أي شيء، تراجع جلال الدين عن أخذ الرسالة، وأمر أحد
حراسه بقرأتها، لقد كان حريصاً في مثل هذه المواقف مخافة أن تكون
الرسالة مسمومة، وقرأها أحد الحراس على جلال الدين، ولما علم
بمحتواها قام على الفور بالانطلاق إلى أبيه، وأمر الحارس أن يقرء محتوى
الرسالة على أبيه، حتى إذا فرغ الحارس من القراءة، نظر خوارزمشاه ناحية
جلال الدين وقال له: ألم أخبرك عن نتائج الصبر، هذا أول استقرارنا في
هذه المناطق، أرجع إليه فابلغهم الأمان والإحسان، وأرسل إليهم بالأيمان
المغلظة بأننا لا نصيبهم بمكروه، ولا نقربُ منهم بأذى، وإنما نحسن إليهم
ونزيد إن شاء الله، ونزل خوارزمشاه عن خيمته التي أعتلت الهضاب
العالية، ونصبت له أخرى في وسط الميدان ليكون بالقرب من الغوريين
أثناء تسليم المدينة، وبدأت طلائع الجنود تخرج من القلعة على دفعات،
فعلها بذلك علاء الدين الغوري مخافة الغدر من الخوارزميين، وما أن
مرت الطلائع بسلام، حتى خرج على رأس مجموعة كبيرة من الجنود، ومعه

الأمير الحسين بن خرميل، فاقترب منهم خوارزمشاه وأحسن استقبالهم، وأجلسه بجواره على سريره، وزاد له في الهدايا وأعطاهم الأموال الكثيرة، ووجه خوارزمشاه شطره ناحية الأمير الغوري مخاطباً إياه: أجلس بجواري ههنا أيها الأمير.

معاذ الله يا سيدي تلك منازل الملوك والأمراء وما أنا إلا عبد ذليل.

إنما مثلك أيها الغوري مكاتته عظيمة بيننا، أجلس فإنك اليوم ذو شأنٍ عظيم، وبدأ يتحدث ويتسامروا ويتكلموا زهاءً من الوقت، حتى اقترب المغيب، وحال الظلام بين الجميع، قال خوارزمشاه أما آن الأوان كي تتصافي النفوس وتتحاببا القلوب، ألا تحدثت إلى غياث الدين وأخيه في الصلح بيننا، وترك العداوة والتفرغ للخطأ الكفرة بدلاً من أن ننشغل ببعضنا.

أول أمرٍ سأحدث فيه عند عودتي، وسأخبره بكرمك وعدلك يا سيدي، إذن لي في الخروج إلى الطريق حتى ألق بالركب.
تفضل أيها الأمير بالخير والبركات، فليكن طريقك مفتوحاً، وليكن الإمام على دليلك، والصديق رفيقك.

أمر خوارزمشاه بالتجهز والتعبه للانطلاق نحو سرخس، وسير ابنه جلال الدين ومعه القادة لحصار القلعة حتى يلحق بهم بقية الجيش، وكان بالمدينة القائد زنكي الغوري، وطال المقام بها أربعين يوماً، حصاراً شديداً محكم من كل الجوانب حتى قلة الميرة بالمدينة وخصوصاً الحطب، وكانت الشتاء في أشد أيامها، فأرسل الزنكي إلى خوارزمشاه يطلب الأمان، وأن يخرج من الباب، ويقوم الخوارزميين بالابتعاد، ففعل ذلك الخوارزم وابتعدوا كثيراً عن الباب حتى يخرج الغوري ومن معه، وأخذوا الكثير من الغلات التي كانت بالمعسكر خصوصاً الحطب.

ودار الحديث بين جلال الدين وأبيه، فبادر جلال الدين قائلاً لو أننا أدبناهم يا أبي حتى يعلم العدو إلى أي مدى تصل قوتنا.

:وهل تظن بأن الأعداء لا يعلمون إلى أي مدى تصل قوتنا، الآن قوتنا أقوى بكثير من استعمال السيوف، قلما أخذت البلاد بدون قتالٍ استحسنت نفوس أعدائك، وأكتسبت أصدقاءً جدد يكونوا لك عوناً في حروبك.

في هذه الأثناء كان قدوم أحد الفرسان مُسرِعاً بفرسه نحو السلطان، وكأنه يسابق الزمان، ولما اقترب من السلطان جثى على ركبتيه يقبل الأرض.

:ماذا معك من الأخبار أيها الجندي ولماذا تلهث. :مولانا السلطان، لقد اجتمع الزنكي بمحمد بن جربك بالقرب من مرو خارجاً من الطالقان يريد حربك بغتة وانكسارك.

وأشار إليه بيده مُعلنًا له بالرحيل واجتمع بقادته، وسير خاله لملاقة بن جربك ورحل عن سرخس وفارقها بجنده عائداً نحو مرو، وقد علم بانكسار خاله وهزيمته أمام بن جربك وقد عاد إليه بالقليل من الجنود مهزوماً منكوس الرأس، وتمر الأيام حتى قدم على حصار هراة مرة أخرى، وطال بها المقام، ولكن هذه المرة اجتمعت عساكر بن جربك في الطالقان، وعساكر الب غازي ابن أخت غياث الدين وقد نزل بالقرب من هراة على بعد خمسة فراسخ، ونزل غياث الدين برباط رزين بالقرب من هراة، وتأخر في حرب خوارزمشاه لقلّة عساكره، ولما علم خوارزم شاه بها حصل للفرقة التي أرسلها للغارة على الطالقان بعد إبادتها عن بكرة أبيها، أمر بالرحيل والعودة إلى البلاد، ولكن وصلته الأخبار بمقدم شهاب الدين

بعساكره نحو غزنة عازماً على الحرب والانتقام، فأرسل إلى الأمير عمر المرغني في الصلح، وحمل إليه الأمير بعض الأموال كي يرحل عن حصار المدينة، ورحل تاركاً هراة خلف ظهره، وكان يسير بجواره ابنه جلال الدين: لماذا يا أبي نرحل ولا نقاتل.

هم أكثر عدداً منا، وعساكر الغورية يحيطون بنا من كل مكان .

:لو أخذنا هراة وتحصنا بها.

في تلك اللحظة تقدم ضياء الدين مُتحدثاً، لو أخذنا هراة وتحصنا بها هلكننا جميعاً، ولا أبدونا عن بكرة أبنينا، إنهم يحملون بداخلهم بؤرة الانتقام وحقد الزمان وثأر الأيام، ويريد الغوري كسرنا حتى لا تقوم لنا قائمة.

:الم تفهم بعد يا بني لما أثرت الرحيل عن المقام.

:ولكن إلى أين يا أبي سنذهب؟، هل سنعود إلى خوارزم؟.

:أخبره يا ضياء أين سننزل بعساكرنا.

: سننزل بمرو، أسوارها محكمةٌ ومتينةٌ، واختراقها صعب، ولا

يستطيعون بالاقتراب نحو الأبواب، لجودة سهامنا وقوة رمينا وعلو أسوارنا.

وكان مجلس خوارزمشاه دائم الانعقاد، وتأتية الأخبار من الجواسيس أول بأول، حتى علم بنزول قوات شهاب الدين في باميان، ووضع يده على رأسه ضاغطاً عليها بأصبعيه السبابة والبنصر- ناظراً إلى الأسفل اتجاه الخريطة، وبدأ يشير بسهم كان في يده، هنا مدينة مرو، هذا البحر الذي يفصل بيننا وبين بلخ، إن عبرنا البحر قبلهم تكون فرصتنا قوية، فإن حدث انكسار لا قدر الله تكون السفن خلفنا نعبّر إلى مرو ونحطم ما خلفنا.

تحدث ضياء الدين ولكن من الأفضل يا سيدي أن نصب المنجانيق على شاطئ البحر، إن فكروا بالعبور إلينا بسفنهم، ضربناها بالمنجنيق وبالنبال فيتراجعوا، وإن حسن حظهم ونجوا من ضربتنا وعبروا الشاطئ، ستكون جزء من قوتنا أعلى هذه الهضاب، تسهل عليها عملية النزول إن حدث إشتباك، وتقوم القوات في أعلى السور بضرب الشاطئ عليهم، ونحاصرهم من جميع الأطراف، فلا يستطيعون المفر، ولا يجدون مهرباً، وستكون فرصتنا أسهل بالقضاء عليهم.

وما أن التفت السلطان ناحية سنجر حتى قال: من رأيي يا مولاي أن نعبّر قبلهم البحر، والمراكب خلفنا، وقواتهم منهمكة من طول طريق

قادمة من الهند، وإنما جاءوا إلينا ليس للقتال، وإنما ليرهبونا، لما لا نستغل ذلك ونفاجهم بالحرب ونبيدهم، فينكسرون ونكون ضربنا عصفورين بحجر واحد .

تحدث جلال الدين رأيي من رأي سنجر يا أبي، جنودهم منهمكين من التعب لنستغل ذلك.

صاح ضياء قائلاً وماذا سنصنع مع جنود الب غازي التي تعسكر بالقرب من هراة، و جنود عمر المرغني و جنود غياث الدين و جنود بن جربك، هولاء أشد بأساً واعلم بأحوال البلاد من شهاب الدين، الأفضل أن نتظرهم خلف هذا البحر تكن مهمتنا أسهل، وتعالى الأصوات داخل الاجتماع من ناحية جلال الدين و سنجر، ومن ناحية ضياء الدين و بهاء الدين و خال السلطان يفضلون البقاء، حتى حسم السلطان أمره بعبور البحر و ملاقة الغوريون.

:هل السفن جاهزة للعبور.

: نعم سيدي لقد اخترنا مراكب متوسطة الحجم حتى لا تعيقنا.

: أحسنت صنعاً يا ضياء الدين، أخبر خالي أن يأتي إليّ، وكن

بالقرب مني دائماً، وَاَعْتَنِ بِجَلالِ الدين ولا تفارقه.

: أمرك سيدي .

وانتظمت الصفوف بعد أن عبرت المراكب شاطئ البحر، ونصبت خيمة السلطان على فرسخين من الشاطئ، داخل الغابات، على هضبة عالية ينظم الجيش ويرتب أوضاعه، ونزل إلى الأسفل جلال الدين ومعه سنجر التركي وضياء الدين، وقاد الجيش بنفسه هذه المرة السلطان، وجعل على ميمنته ابنه جلال الدين منكبرتي ومعه ضياء الدين، وفي الميسرة سنجر التركي وابن الشامي، كان جلال الدين ينظر إلى الجموع القادمة من الغوريين من ناحية بلخ، وتحدث إلى ضياء الدين وعيناه ناحية الغوريين، ماذا ترى يا ضياء الدين، هل ترانا منتصرين اليوم.

:أرى هلاكنا.

:ماذا تقول .

: أرى النصر قادم.

:فليكن النصر حليفنا اليوم.

فتمتم ضياء في سره فليكن الله في عوننا من طيشكم.

وما أن اقترب جيش الغورية، دارت المعركة رحاها، وسقط الكثير من الفريقين قتلى وجرحي، وحمي وطيسها، واشتدت ذروتها، اقتحمت

ميمنة الخوارزم ميسرة الغوري، فأحدثت فيهم القتل، واستعملت فيهم السيف، ولكن ميسرة الغوريين صمدت لوقتٍ طويل بفضل إمدادات غياث الدين بأخيه شهاب الدين إلى الميسرة، أما ميمنة الغوري بقيادة بن جريك والبن غازي فقد أشتد بأسهم على ميسرة الخوارزم، وكان السلطان خوارزمشاه في الخلف يتابع المعركة عن قرب، ويعطي الأوامر ويحرك الصفوف، ما يحدث في ميسرة الخوارزم غير الإنكسار والرجوع إلى الخلف، وفي المقابل بدأت ميمنة الخوارزم بالإنكسار بعد القوة المفرطة التي استخدموها مع عدوهم، وتلثم الخوارزم واستعملوا كل أنواع البأس والقوة في صد تقدم الغوري، لقد كانت معركة شديدة بين أوائل الجيشين، فماذا لو التحم الجيشان بكامل قواتهما؟ .

كان ضياء يدور حول جلال الدين يدافع عنه ويحميه ويقاوم من

خلفه، فاقرب منه: سيدي، سيدي الجيش ينكسر .

:ماذا يحدث يا ضياء الدين .

:انكسرت الميسرة والقلب، وأصبح الضغط كله ناحيتنا .

:ما الحل يا ضياء .

: لقد أرسلت إلى السلطان أعلمه الأمر، ويجب علينا أن ننسحب
بباقي القوات وإلا قتلونا عن آخرنا، الأمر خطير يا سيدي، لن نستطيع
الصمود أكثر من ذلك.

: أعطى الأمر للقوات بالانسحاب .

: امرك، حينها كان يلهث جندي خلف ضياء يخبره سيدي بأمر
السلطان بالانسحاب واللحاق بهم في المراكب.
: هيا يا ضياء نفذ الأمر بسرعة.

: أمرك يا سيدي، ودار ضياء الدين بأرض المعركة، وذهب نحو
قائد الطبول، وأشار إليه بإشارة على إثرها قام الجيش بالانسحاب إلى
الخلف في انتظام، حتى ركبوا السفن، وقام السلطان بهدم القناطر، ونصب
المنجنيق على شواطئ البحر، واجتمع بمجلسه على عجل.

: كيف حدثت تلك الهزيمة، كيف سقط الجيش في هذا الفخ الذي
نصبوه لنا، أخبروني كيف يحدث ذلك، أوائل الجيش ينكسر، الحمد لله بأني
لم ألقى ببقية الجيش في تلك المهلكة، ألا أخبرتني يا سنجر كيف حدث
ذلك.

لقد قاتلنا يا سيدي عن آخرنا، القينا بأرواحنا فداءً لطريقك،
ولكن قوتهم تغلبت علينا، فعلنا ما بوسعنا وسقط منا الكثير من الشهداء،
لم يكن بيدي أن ألقى بقية الجنود في تلك المهلكة.

تقوم بسحب الجنود أثناء المعركة، وأثناء انكسار ميسرة الغوري،
نعم أنت محق تنسحب بمن معك فيصبح الضغط كله ناحية اليمين، أكنت
تريدهم أن يقتلوا ابني، وقام بلطم سنجر على وجهه فأسقطه على الأرض
ونزفت الدماء من فمه، وانقض عليه الجنود فأمسكوه، أكمل السلطان
حديثه واتسعت عيناه وأمتلئت أحمراراً، وأشتد حمار وجهه، بكم بعني أيها
الخائن؟.

أقسم لك يا سيدي لم أفعل!.

لقد جاءونا من قبلك، أترى الأمر يسير، كل هؤلاء الجنود الذين
سقطوا في أرض المعركة، كنت أنت السبب في مقتلهم.

وصاح جلال الدين غاضباً آه أيها الخائن اللعين، وقام بلطمه على
وجهه الواحد تلو الأخرى قابضاً على يده ويلطمه في وجهه حتى غابت
ملامح وجهه، وازرقت عيناه من الضرب، ونزف فمه بالكثير من الدماء،

وأصدر السلطان أمره بقتل القائد سنجر، وتعليق جسده في أعلى مكان بالمدينة ليكون عبرة لمن خلفه .

وفي سمره الليل، وعلاء الدين محمد خوارزمشاه في مجلسه ومن حوله ابنائه وأهله يتسامرون ويتحدثون، إذ بجلال الدين يغير دفة الحديث؛ أرأيت يا أبي ما فعله ضياء الدين في أرض المعركة، كسر- غمده وانطلق يضرب يمينا ويسارا يخترق قلوبهم ويرعب قاداتهم، رأيت يا أبي يحوم حولي تارة، يأخذ الضربات عني، يجتمع حوله الثلة فيقتلهم، اجتمع عليه ثلاثة فأسقطوه من على حصانه، وسقط السيف بعيداً، فوقع بجوار قتيلٍ أسقطه سهم، فما أن أستشعر الموت، حتى أخرج السهم من القتل ووضع في رقبة الغوري فسقط بجواره، فاخذ السيف وقفز قفزةً غريبة أوقفته قائماً، فقتل الثاني والثالث وكأن أعينهم شاخصةً من هول ما رأوا، حتى أنا تحيرت مما رأيت، أمن الملائكة المكرمين يكون، هذا من أشجع الفرسان الذين قاتلت بجوارهم.

:لقد رأيت أعجب من ذلك منه، كان يخترق صفوفهم وحده يروح ويعود ولا يقدر على.

:كنت أراه يا أبي في قلب جيشهم يقاتلهم، وفجأة يشتد القتال
حولي ويتكاثرون عليّ، فأجده يدافع عني ويتلقى الضربات بدلاً مني، لقد
قذف الله الرعب في قلوبهم بهذا الشجاع.
:صدقت يا بني فلنجزل له من الأعطيات.

:أه يا صافية أه، تمهلي قليلاً .
:لقد تلقيت الطعنات الكثيرة يا حبيب قلبي، خفت أن افتقدك،
جسدك مملئٌ بالضربات التي لا تعد.
: كل هذا فداءً لدولتنا وديننا وسلطاننا .
:فديتك بروحي يا أبا همزة، ليت تلك الضربات اخترقت جسدي
بدلاً منك .

:فديتك يا صافية بروحي، وهل أجد خيرٌ منكٍ سكناً لقلبي،
فتبسمت خجلاً وهي تداوي جراحه فضغطت عليه بقوة، أه يا صافية أراكِ
تنتقمين مني .

فضحكت وترنمت ضحكاً وزينت وجهها قمراً، فتبسم لها تبسم
العاشق، وأتى عمر مُقبلاً إلى أبيه يحتضنه أبي، أبي، لقد اشتقت إليك يا أبي.
: كيف حالك يا شجاعى .

:لقد تقاطلت يا أبي اليوم مع الهر فهرب منى .
: مهلاً أيها الشجاع، فأعدائك جنباء يخفون منك .
:أبي خذنى معك فى الحرب حتى أقاتل الأعداء، وأعود إلى أمى
مصاب فتصنع معى مثل ما تصنع معك كلما تعود .
أشرق وجه ضياء فرحاً من حديث ابنه، أترى أن تداوى أمك
جراحك يا عمر .

:نعم يا أبى، حتى أراها وهى تبكى كلما داوت من جرحى .
قهقهه ضياء ونظر إلى صفيّة، حتى ابنك لاحظ ذلك أيضاً .
:هيا يا عمر كفاك الآن، هيا إلى النوم .
:قل لها يا أبى تتركنى قليلاً معك .
:قلت لك اذهب إلى النوم .

قام عمر باحتضان أبيه بقوة والاختباء داخل صدره من أمه،
فضمه أباه بقوة ثم قال له اذهب الآن إلى النوم يا عمر، وأسمع كلام أمك
حتى تصبح محارب قوي.

:أمرك يا أبي، وغادر إلى الغرفة، وبقيت صافية تداوي الجراح،
وقلبها يعتصرهما غماً.
:أين حمزة وزينب يا صافية .

:حمزة في معسكرات الجيش بالصحراء يتدرب، قد أخذه أخي
معه، وزينب مع أمي في البيت، تحملها معها في كل مكان حتى قصر-
السلطان.

: فليحفظهم الله، اهتمي بحمزة كثيراً يا صافية، فإني أرى في حمزة
ماضي الذي اشتقت إليه كثيراً.

(بغداد)

وفي شوارع بغداد الكبيرة يتسوق الناس ويتبضعون، فتربح تجارة وتحسر أخرى، والناس جميعهم يربحون من عطايا الخليفة الناصر لدين الله العباسي، لم يكن حال بغداد يختلف كثيراً عن غيرها من مدن المسلمين، ترفٌ ونعيمٌ تخطى فيه الثراء منزلته، الناس منهمكون في ملذات الدنيا ومنشغلون بأمورها، وعساكر الخليفة ينظمون الأسواق ويهتمون بمشاكل القوم، حتى سير الناس وقصصهم أصبحت محل نظر، لقد اختفت قصص الأبطال بشكلٍ ملفت، وحضر مقامها قصص الناس وأمور دنياهم، في وسط الطريق يسير ثلاثةٌ بأزياء عسكر الخليفة، وأحدهم يتميز برتبة تفوقهم نيشان الخليفة وبعض الخلع على صدره، والآخران في مرتبةٍ أدنى يسرون وسط الناس يتسامرون ويضحكون، فتحدث أحدهم لنري فيما يتسامر الناس.

فرد الآخر نترك مشاكل الدولة، وتقدم الخوارزم نحونا، وإيقاف الغوري وتقدم الخطأ الكفرة، وانقسام الأيوبيين وقتال بعضهم ببعض، ونري فيما يتسامر الناس، الناس يتسامرون في ما يشغل بالهم عن كد الحياة ومتاعها.

فتحدث الذي هو أعظمهم رتبة فلنريح أجسادنا وعقولنا قليلاً
من مشاغل الدولة، ولنجلس في مجلس الناس ونستمع لحديثهم.

نظر صاحب الفكرة لصديقه ضاحكاً له من خلف أسنانه، ساخراً
حتى ضحك أميرهم وجلسوا في أقرب مجلس قابلهم في السوق، بساط
يجلس الناس عليه، وتقدم لهم الحلوى وأكواب من الشاي الهندي، فدخل
الأمير مُلقياً السلام على الحاضرين فحيوه وأحسنوا، وجلس يستمع إليهم
في خشوع فتحدث أحد الجالسين متى الجنازة يا شيخخي .

رد المتحدث اليوم، تقام عصرأ في مسجد الخليفة المأمون رحمه
الله، وأدام الله لنا خليفتنا الناصر لدين الله، فضحك الأمير مستهجنأ من
كلام العجوز، فقال أحد مرافقيه لماذا تضحك يا أمير، هذا الرجل
يستهجن على الخليفة، إنما يريد أن يقول من أين له بهذا اللقب، وهو أكثر
من خذل دين الله، لقد انتشر في عهده البغاء أكثر من أي عهدٍ مضت،
وقتل الناس وما نصرهم، بل خذلهم والله .

التفت الأمير إلى القاص فقال له: من المسئول اليوم أيها الرجل .

:أميرٌ في جيش الخليفة ولا تعلم .

: شغلتنا أمور الدولة عن معرفة موتانا .

أعانك الله يا سيدي، لقد ماتت بنفسه جارية الخليفة المستنصر -
بأمر الله، رحم الله أمير المؤمنين لقد كانت أحب النساء إلى قلبه، وكان كثير
الميل إليها، رحمها الله يا سيدي، لقد كانت كثيرة الإحسان إلى الفقراء، تبذل
لهم العطايا وتقوم على أمرهم وتخرج لهم الصدقات .
فليرحمها الله ويحسن ختامنا، فلنلحق بالمسجد، لنكون بجوار
الخليفة؛

هيا بنا يا رجال، رحل الأمير ومرافقيه ولم يلاحظوا قدوم الناس
خلفهم إلا عندما بدأ أحدهم يهتف بموت الجارية ويعدد حسناتها، فما أن
التفت الأمير خلفه حتى وجد جمعٌ غفيرٌ من الناس يلحق بهم إلى المسجد،
فتبسم وأكمل في طريقه حتى وصلوا المسجد وصلوا الجنائزة، وكان المسجد
ممتلئاً عن آخره، لقد حضر الناس ليشهدوا جنازة جارية الخليفة الراحل،
وما أن فرغوا من دفنها وقاموا بتعزية الخليفة، حتى عاد إلى دار الخلافة
وانطلقوا إلى دوارهم يكملون حديثهم.

ورحل أحد مرافقي الأمير وبقي الآخر، ودخل ثالث ذو لحيّة
عظيمة تمتد إلى سرتة، أبيض الوجه، عذب الصوت، أخضر العين، يرتدي
عمامة العلماء، غير تلك التي يرتديها الأمير ومرافقه والتي تعلوها الخوذة

الحربية، وله جلاباب طويل إلى ما قبل كعبه، أما الأمير فملاحمه عربية خالصة، أبيض الوجه، يرتدي الزي العسكري الخاص بالعباسيين، معطف كبير إلى الركبة، مزررٌ من الوسط، ويرتدي تحته سروال ملتصقٌ برجله، ولكن لا يظهر شي من الجسد، وكان ذلك حال صاحبه، إلا أن صاحبه كان ذا حمرة في الوجه، واخضرار في العين، وما أن دخل الرجل حتى ألقى السلام فأجبهه.

: تفضل أيها العالم الجليل وتبسم له، متى عدت من سفرك.

: عدت ظهر اليوم والحمد لله.

: مرحباً بك، تفضل يا سيدي، ألا تقص علينا أخبار رحلتك.

: لقد كانت رحلة أكثر من عظيمة، التقيت فيها بثلاثة من عظماء

الأرض.

: اشقتنا إلى سماع حديثك، واعتدل في جلسته.

: لما نزلت بالموصل عزمت على النزول على شيخنا الفاضل أبي

الحرم المكي بن ريان صاحب علم النحو واللغات، لكنني تفاجئت بكثرة

الطلاب من مختلف الأنحاء، وفوق كل ذلك لقد كان الشيخ ضريير، والله

عز وجل وفقني بأن رأيت أحد أعيان بغداد، الإمام ابن النظروني بجوار

شيخنا الجليل، فأخذتها حجة لي وتقربت إلى عالمنا الجليل، ودرست تحت قدميه منذ وقت وصولي إلى قرب عودتي، وكانت المفاجأة.

: أي المفاجآت، خير، أخبرنا .

: التقيت بالإمام أبو الحسن عز الدين ابن الأثير، انتفض الأمير في لحظتها واقفاً، ثم تحدث قائلاً: يا الله يا يحيى تلتقي بثلاثة من أعظم من مشوا على تلك الأرض في يومٍ واحد.

: جميع أيامي والله يا سراج، إلا ابن الأثير فقد لقيته آخر أيامي، ولم يسعفني الوقت للتحديث معه كثيراً، ولكني أخبرته بقصة قتالنا مع ابن عبدالمؤمن رحمه الله .

: تقبله الله، لقد كان نعم السلطان ونعم الأمير رحمه الله، لقد كانت أيام خير وبركات معه والله .

: لقد أخبرني بأنهم اجتمعوا على قتله في ١٨ من ربيع الآخر، ذهب شهيداً إلى ربه رحمه الله بعد أن أذل الصليبيين القشتاليين، ومنعهم عن الأندلس .

: فليرحمه الله، كم تمنيت أن أجلس تحت قدميه أغسلها له .

:أخبرني عن موت علاء الدين تكش خوارزمشاه أبو السلطان
علاء الدين محمد، والفاجمة التي أخبرني عنها، مقتل نظام الملك مسعود
بن على وزير خوارزمشاه تكش، وثب عليه الملاحدة الحشاشين وقتلوه
غدرًا في أواخر جماد الآخر، كان كريماً رحمه الله، كثير العطايا والصدقات،
وكان الناس يحبون نظام الملك ومدبر أمور المملكة.

: لعنة الله على الملاحدة وأعوانهم الإسماعيلية الحشاشين المجرمين،
ما رأو عزاً للإسلام إلا وكانوا خنجراً مسموماً في ظهر المسلمين.
ورحل كل واحد إلى داره، أما سراج فقد كان قد تزوج فور
وصوله ببغداد من السلطانة أسماء ابنة الأمير ابن ملك الدين شرف الدولة
أبو المعالي، أحد وزراء الخليفة، ما أن دخل البيت وألقى السلام حتى
أقبلت فتاة صغيرة تهول نحو سراج، لا يتخطي عمرها الخامسة بعد، أبي
أتى يا أمي، فاحتضنها وأقعدها على حجره وقبلها على جبينها، أهلاً فريدة
يا مرحب، وأخذ يداعبها ويلاعبها حتى ذهبت إلى أمها، وأسند ظهره إلى
الخلف على المقعد الذي يجلس عليه، وأخذ يتذكر ذلك اليوم الذي التقى
فيه بالسلطانة أسماء.

من خمس سنين يسير سراج وصهيب ويحيي وزوجته، وعلى أعتاب بغداد نزلوا ضيوفاً في دار الربط، تقدم صهيب داخل الدار وتفقد المكان ودخل بعده سراج ويحيي ثم زوجته، حتى تحدث يحيي هل سيستقر بنا المقام في بغداد يا سيدي.

: لا اعلم بعد يا يحيي، ولكن سنري في الغد .

:أين المسير غداً؟.

: عند أحد الأصدقاء القدامى إن شاء الله، سنكون في الغرفة

الأخرى بجوارك أنا وصهيب، إن احتجت إلى شيءٍ فهاتفنا.

:إن شاء الله، متى سننطلق غداً؟.

: بعد الظهر، وبعد صلاة الظهر تجهز يحيي للانطلاق مع سراج

وصهيب، ولكنه صعق لما عرف بأنه سيبقي مع زوجته .

:ولكن لماذا يا سيدي سابقى .

: يجب أن تبقي بجوار زوجته لا ينبغي علينا تركها وحدها.

:أنت محق، إذاً سأخذها إلى السوق نتجول ونتبضع حتى تنتهي من

مهمتك.

وبعد مسيرٍ لم يكن بالكثير، تحدث صهيب هل سيطول مسيرنا يا سيدي.

: اقتربنا يا صهيب، واقترب من أحد الدكاكين وألقى السلام على شيخ كبير فرد وأحسن وأجابه إلى الجلوس وأكرمه بحسن الكلام وعذب الحديث، تفضل يا بني أراكم غرباء عن هذه البلاد، تفضلوا عندي أقدم لكم واجب الضيافة.

: أكرمك الله يا سيدي، إنما نحن في عجلة من أمرنا، نسأل عن دار القائد أبو جعفر السفنياني.

: آه يا ولدي، منذ متى وأنت لم ترى القائد.

: منذ زمن بعيد يتخطي العشر سنين .

: قتله الملاحدة الحشاشين، وثبوا عليه في داره وقتلوه، لكن الله أنقذ زوجته وولده، وقام الجند بالقبض على المجرمين من أتباع حسن الصباح زعيم الحشاشين.

: ومن سكن الدار بعده يا شيخ.

: اشتراه القائد سليم البنجالي، وكان من جنود الأمير.

: شكراً لك ربما أجد بُغيتي عنده.

انظر يا بني إنه هو ذاك الرجل الذي يقسم العطايا على الفقراء،
وأشار ناحية رجل بزّي الفرسان وحوله الكثير من العساكر.

ماذا نفعل يا سيدي؟ المسؤل عنه قتل!، عند من نجد الجواب.

عند هذا الرجل يا صهيب .

كيف، وكيف سنخترق كل هؤلاء الجنود ونصل إليه؟.

: الكيف مجهول لا يعلمه سوى علام الغيوب، انتظر وسنري

الإجابة، بالنسبة للاختراق، نحن من زمن الزمان وقد اخترقنا أصعب
الأمور وخرجنا منها في أحسن ما نكون، أيعجزنا مثل هذا وتبسم
لصهيب.

وانطلقوا نحو الأمير سليم، وما أن رأهم الجنود حتى فزعوا من
ملابسهم البيضاء، والتي تشير إلى الموحدين، وأشهروا سيوفهم على الفور
مخافة أن تكون حركة للغدر بالقائد واغتياله، فألقى سراج السلام على
الأمير، سيدي نحن غرباء جئنا من بلاد بعيدة، وأخرج سيفه من غمده
وأخرج الخنجر وفعل صهيب مثله، وهذا سلاحه يا سيدي لتطمئن
قلوبكم، فأخذ الحراس السلاح وسمح لهم بالتقدم إلى الأمير.

: ما هي حاجتكم أيها الرجال.

: صحبتك يا سيدي بالأمير أبو جعفر السفيفاني رحمه الله .
اعتدل الأمير سليم في جلسته، وهل تعرف الأمير لتقول ذلك،
وهل تعلم متى قتل الأمير حتى تتجرأ على قول كلامك هذا.
: سيدي لقد صاحبت الأمير منذ سنين طويلة، ولكن منذ أن رأيت
آخر مرة لم نلتقي بعدها، كانت آخر مرة منذ ثمانية أعوام، ولنا عنده حاجة
نسأل الله أن يكون قد ترك عندك خبرها.
: هات ما عندك.

: انظر سيدي، إذا جاء الغريب من بلادٍ بعيدة كيف يعرف
الطريق .

تعجب الأمير سليم مما سمع فرد قائلاً يعرف الطريق بالصالحين .
: وماذا يفعل بالصالحين .

: ينير بهم الطريق .

: وأين يقع الطريق؟ .

: يقع الطريق على هاوية الأرض .

: وهل يوجد في الطريق غيرنا .

: يكمن الظالمين .

: وما نهاية هذا الطريق .

: شهادة أو نصرٌ مبين .

: فلتكن الشهادة دليلي والنصر رفيقي .

وقام الأمير سليم واحتضن سراج وأجلسه بجواره، لقد أخبرني
الأمير أبو جعفر عن هذا الأمر، وكنت في انتظارك منذ سنين، لما تأخرت
كل هذا.

: وقعت في الأسر، حتى من الله على برفقة أعانتي على الهروب،
والتحقت بالموحدين وأذن الله لنا بالاجتماع بالأحبة مرة أخرى .

: هل أخبر السادة بهذا الخبر العظيم .

: لا، انتظر سوف اذهب أنا لإخبارهم بذلك، لا أريد أن لا يعلم
أحد بما دار بيننا هنا .

: أمرك ياسيدي .

: أردت منك أن تجد لنا منزل يحتوينا أنا ورفيقي هذا وآخر
وزوجته .

: أمرك، قبل حلول الغروب سوف تكون في المنزل .

: جزاك الله خيراً، انتظر مني الأخبار الجديدة عند عودتي .

:في انتظارك سيدي .

وانطلق سراج وصهيب إلى الربط، وأخبروا يحيى بما حدث مع الأمير، وبعد أن انتقلوا إلى البيت الجديد، أخبرهم سراج بذهابه إلى الموصل لبضع أيام.

بعد مرور عشرة أيام، كان سليم يعد العدة من أجل التقاء سراج بالخليفة، فما أن دخل الخليفة حتى قام كل القاعدون له وقوفاً، ولما قارب مجلسه من الانتهاء، أقبل ناحيته سراج بعد أن أشار الخليفة إلى سليم بالحضور، فأخذ الخليفة ينظر إليه، إذأ هذا سراج الدين الذي حدثني عنه يا سليم.

:نعم يا أمير المؤمنين كما حدثتك بدون زيادة أو نقصان.

:رائع، لقد حدثنا سليم عنك كثيراً يا سراج، وما صنعته بالفرنج في الأندلس، ولكن أنا أتخير!، لماذا مثلك يترك جيش ابن عبدالمؤمن ليأتي إلينا!، ويترك نعيم الأندلس ليعيش في زحمة بغداد؟.

:الشوق والحنين إلى البلاد يا أمير المؤمنين، مهما أعطونا من

الأموال والأراضي لا يثنينا عن عودتنا إلى الديار، وخدمة أمير المؤمنين.

:عجيبٌ أمرك، زدت في حيرتي، أبغدادِي أنت .

: نعم يا سيدي أب عن جد.

: أو ما التقينا من قبل يا سراج الدين.

: أدام الله لنا أمير المؤمنين يتذكر كل من رآهم من رعاياه.

: ضحك الخليفة حتى بانق نواجذه، قد وجدت بعيتك بيننا،

أخبره يا سليم بوظيفته الجديدة.

: أمرك يا أمير المؤمنين، وانسحبوا إلى الخلف حتى خرجوا من

الباب، وما أن أبصرت عيناه ناحية الحديقة حتى ضربه سليم على رأسه إلى

أين تأخذك عينك.

: إلى هناك، وأشار حيث بعض الفتيات جالسات.

: ثكلتك أمك يا سراج، هل تريد أن يقوم الخليفة بصلبنا، هذه ابنة

الخليفة وصديقاتها.

: وما شأنى بذلك، إنما جذبت عيني تلك الفتاة وأشار ناحيتها

بعينه.

رفع سليم حاجبه إلى أعلى، هذه الأميرة أسماء ابنة الوزير أبو

المعالي.

: قد كفيت ووفيت يا سليم، وقام بالضرب على كتفه خبطتين
وتقدمه، وقد لبس لباس العباسيين وخلع ملابس الأندلسيين .
:سراج، سراج إلى أين ذهب عقلك يا حبيبي؟
: أساء، كنت أتذكر ذلك اليوم الذي رأيتك فيه أول مرة.
:وهل تذكرته، وتدلللت على كتفيه.
: تذكرته بكل وضوح، وبكل معاملة.
:عندما أطلت النظرة الأولى.
: كانت أول مرة تأخذ قلبي فتاة إلى هذا الحد.
:بالرغم من أنك مررت بروما والأندلس وبمصر، لم تستطع فتاة
أن تسرق قلبك.
: تخيلي، لم تستطع فتاة أن تسيطر على عقلي وقلبي مثلك.
:ولكنك لم تكتفي بتلك النظرة، بل ذهبت تحتلس النظرات
وتسترق المعلومات عني، حتى وصلت إلى داري وتزوجتني من أبي.
: نعم صدقتي، تلك كانت أجمل لحظات عمري حينما أصبحتي
بجوارى.

:أتذكر أول ليلة عندما خرجت من بيت أبي إلى بيتك، ونظرات
عينيك تكاد تخطفني، ولم يخفى عني ذلك، فعينك لم يكن لها فلك تسبح فيه
غير عيني.

: وقلبي لم يجد غير قلبك ملاذ وأمان له.

: وابتسمت له، وأجمل ما وجدته عندما دخلت دارك أتذكر؟.

: نعم أتذكر، تفضلي أيتها العروس، حلدت أهلاً ونزلت سهلاً،
وأنارت منزلاً بلا أضواء، وأصبحتي فيه شمساً وقمرأً ونوراً مضيئاً.
دخلت الأميرة أسماء المنزل مبتسمة تسير في حجل، تتمايع في جلل،
تطير فرحاً، وتمشي على الأرض قهراً، كأنها قطعة من الجنة خلقت لتفوح
الأرض منها عطراً، وأشار سراج إلى إحدى الغرف، فدخلتها دخلت
المظفر في الحرب، تتمعن بنظرها في تلك الغرفة العجيبة، عمودان يعلوهما
قناديل كأنهما مستقران من عصورهم الأولى، ومكتبة عظيمة منتظمة
الأدوار، وعلى كل رفٍ سُجِّلَ أسماً مختصراً لما يحمله الرفُ بداخله من كتبٍ
ومخطوطات، ونقوشات على الحائط، دونت إحدى العبارات المكتوبة بخط
الكوفيين،

ولئن قدمت على اللقاء لأنني

صبيُّ في هواكٍ محبُّ
يطول شوقي وأكتب ما بي
حبُّك يا حبيبتى مُنقذي
وأخر قد سجل باسمها
أسماء والأسماء لا تحسبُ
غير أسماء في القلب تسكنُ

ولما فرغت، فتحت تلك المذكرة التي بجوار المكتبة وجدت
بداخلها مكتوبٌ، اسمها أسماء، لقد زاد وقال ورغب في العشق من أجل
أسماء، لقد أحب وعشق وافترض عشقه، وعرفنا أن اسمها أسماء.
وضحكت واستنار وجهها، والتفت فوجدت سراج يدخل إلى
الغرفة يحمل صينية محملة بالطعام، ووضعها على منضدة واحتضنها،
وقبلها في رأسها، وجلست بجواره والعيون تتلاقى وتضيء الغرفة
بأكملها، لقد تفاجئت بما صنع في هذه الغرفة.

: هذه غرفة المكتبة.

: أعجبتني كثيراً؛

فليحفظك الله لي يا سيدي، ونظرت إلى عينيه ووضع يده على
بطنها، وذلك غلامنا القادم إن شاء الله.
فليكن أسدً مثل أبيه.

((قونيا))

وتلثم الفارس، وعبر الحدود، وتسلق الجدار وانقض على بعض الحراس المناوبين وأرسلهم في رحلة الإغماء، ثم دخل القصر- من الباب الخلفي وخلفه فارسان متلثمان يسرون على خطاه، لا يستطيع أحد مجابتهم إلا وأسقطوه واطرحوه أرضاً، وزاد عدد الفرسان وأحاطوا بالمكان، ودخلوا غرفة النوم وقام أحدهم بوضع منديل على فم المرأة ليفقدها الوعي، وقام آخر بإيقاظ الرجل من نومه وهددوه بالسلاح وأخذوه إلى غرفة من غرف الدار، وما أن أدخلوه، حتى وجد الفرسان بملابسهم السوداء تشع أعينهم رعباً وشراراً، وفي منتصف الغرفة رجل عظيم الهيئة، يجلس على كرسي ضخم، يقلب في الأوراق، وقام الفارس بإلقاء الرجل على الأرض، ووضع قدمه على رقبته، ووضع السيف موضع النحر، وما أن أفاق الرجل واعتدل ببصره ناحية الجالس على الكرسي حتى شخص بصره وشهقت أنفاسه، وأردف قائلاً الأمير مراد الدين .

: كيف حالك يا كوتجان .

: ما الذي حدث يا أميري لتصنعوا معي كل هذا.

: هناك شخص يريد رؤيتك .

وفتح الباب، ودخل رجل ملثم، يدور حول كوتجان وينظر في عينيه، ثم وجه اللكمات في وجهه يمين ويسار يضربه بقوة حتى نزع الدم من أنفه، وأحمر وجهه وتنفخت أوداجه، ومال وجهه إلى الأرض وتحدث قائلاً ٦١ خبرني يا سيدي ماذا صنعت .

: بل أنت من سيحكى لنا كل شيء .

: أنا لا أفهم شيء يا سيدي، ثم قام الملثم بتوجيه الضربات مرة أخرى نحو كوتجان، وتحدث هذه المرة قائلاً، ستحكى لنا خيانتك وتعاونك مع الصليبيين .

: سيدي مراد ماذا يقول هذا الأحمق، يتهموني في عرضي وديني، وأردف الملثم ضربات أخرى في وجه كوتجان، إما أن تتحدث وإما أن تقتل الآن، وقام بضربه بمقبض السيف في وجهه حتى ذهب وعيه، أربطوه جيداً .

: لن يتحدث .

: سأجعله يتحدث حتى يطمئن بالك يا سيدي .

ومر الوقت وقام أحدهم بإلقاء الماء على وجه كوتجان، فأعادته إلى وعيه وأردف الملثم قائلاً، أَلن تتحدث بعد يا كوتجان .

:ما عندي شي يا سيدي لأخبركم به.

:إذا لقد اخترت الطريق الأصعب للحدث، وأخرج خنجره
ووضعه على نحره، ورفع الخنجر عالياً وأغمض كوتجان عيناه، ثم قام
الملثم بوضع الخنجر في أعلى منكبيه، فصاح صارخاً يتوجع ويتألم
سأخبركم، سأخبركم .

:جميل، تحدث إني أسمعك.

:أنا اعمل لدي فرسان المعبد، أنقل لهم الأخبار، وأسلم لهم
الأمراء.

: مثل الأمير حمزة .

ذهل كوتجان من ما سمعه، فإذا بالملثم يرفع الغطاء عن وجهه،
فزهقت روح كوتجان، وما أن رآه حتى تحدث قائلاً سيدي الأمير، وقام
بقطع رقبته وانصرفوا .

مر عام ٦١٢ هـ بالخير على الدولة الخوارزمية خصوصا لما قدمته من إنجازات عظيمة أدت إلى ازدياد رقعة الدولة، حتى سيطرت على جميع مناطق الغوري في خراسان والسند، ووقفت على بعض المناطق في الهند الكبير، وترك ابنه جلال الدين يتولى شؤون المنطقة بالنيابة عنه .

وفي الطريق ظهر الإرهاق والتعب على وجه ضياء الدين حتى التفت إلى السلطان أما آن الأوان كي أرتاح قليلاً من عناء المعارك.
:اذهب إلى خوارزم واسترح واستمتع هناك.

: كنت أريد أن استأذن منك مولاي، أريد أن أعود إلى تبريز، أريد زيارة أهلي.

سار السلطان بضع دقائق في صمت، ثم التفت إلى ضياء، يمكنك الآن العودة إلى الديار، ولكن لا تطل الغياب عنا، سأكون في انتظارك.
: أمرك يا سيدي، وابتسم ضياء الدين وسار بقية الطريق في صمت.

وما أن وصل إلى خوارزم حتى انطلق بفرسه مسرعاً نحو منزله
بداخل المدينة، وما أن دخل حتى استقبله عمر الصغير وابنته زينب فألقى
السلام وأردف قائلاً أين حمزة يا صافية .

:مع أخي طلال في القصر .

:أرسلني إليه يحضر في الحال .

:لماذا يا سيدي .

:سنعود إلى الديار .

:سنعود إلى تبريز، وابتسمت وأمتلئت عينها بالسرور .

:لن نعود إلى تبريز .

:فغابت الفرحة عن عينيها، ولكن إلى أين سنذهب؟ .

:إلى قونيا يا صافية .

:ماذا سنصنع في قونيا يا ضياء .

:حان وقت العودة يا صافية إلى الديار، حان الوقت لتتعرف في على

أهلي .

:أنا سعيدة بسماع هذا الخبر يا ضياء سعيدة جداً لهذا .

:هيا يا صافية استعجلي في ترتيب أمور السفر، الطريق طويل .

:أمرك يا سيدي.

لقد اجتزنا الكثير من الصعاب في هذا الطريق، عبرنا الكثير من الطرق، اخترقنا الكثير من الأراضي، مشينا على جثث الظالمين، نصرنا الضعفاء والمساكين، ركبنا البحر ونزلنا على البر، وسيرنا نحمل بين قلوبنا غبار السنين، والشوق والحين إلى الماضي القديم الذي لم نعرف فيه غير رفقة الصالحين، ومحبة الأصدقاء المخلصين، إنني اشتاق إلى تلك السنين .
من خوارزم إلى تبريز إلى ديار بكر إلى حلب والنزول في دوارها.
:اعلم أن بقائنا هنا يؤلمك كثيراً يا ضياء.

: لا عليك يا صافية، كل الأمور تمضي- والماضي ينتهي بانقضائه، ولا يبقى غير المستقبل هو الذي نسير إليه بإرادتنا أو غصباً عنا، في كلتا الحالتين سنسير إليه .

:كيف سنرحل من حلب وكل هذه المخاطر تحيط بنا، لقد سمعت بأن العلاقات متوترة كثيراً بين حلب وقونيا، من جهة أخرى الصليبيين .
: من ناحية قونيا لا تحملي همأ، لا يقدر أحد أن يقترب منا، كل ما يخيفني حقاً وجود تلك الإمارة الصليبية بالجوار، لا اعلم ما الذي أوقف

زحف المسلمين عند هذه الإمارة، كان يجب عليهم القضاء عليها دون أي
رحمة.

:سيأتي وقتها لا تقلق، ولكن أخبرني كيف سننطلق من حلب.

: سنخرج غداً مع القافلة المنطلقة من حلب إلى قونيا.

(بغداد)

:ما حال قلبك يا حبيبي.

: قلبي لا يستقر إلا بك.

: غريبٌ أمر تلك القلوب يا سراج، تألفُ وترتاح، وتتألم وتجتاز.

:إنها القلوب يا أسماء، إذا أحتمت بركن الله أوأها، أعطاهها من

اللين إنارة، وفي المحبة تجارة، وأشرها النقاء شراب الطهارة، وأصفاهها من

الذل، فلا تركزن لظالم، ولا تأوى لبغي، ولا تروحُ بعهرٍ، فتصفو كما يصفوا

الحديد من الشوائب؛

آه يا أسماء لقد اشتقت كثيراً للعودة للديار، اشتقت إلى أهلي

كثيراً.

:وما الذي يمنعك يا سراج.

: لا شيء غير أن تتجهزي لنرحل.

:الآن.

: نعم الآن، لقد طلبت من الخليفة أجازة من أجل رؤية أهلي وقد

أذن لي.

:سننطلق إلى الموصل.

: لا بل سنذهب إلى قونيا.

" قونيا، ماذا سنفعل في قونيا.

: سأأخذك إلى أهلي حتى يتسن لك معرفتهم عن قرب.

: لكنك لم تحدثني من قبل عن شأن قونيا هذه.

: لم يكن وقتها غير الآن، هيا تجهزي واستعدي وجهزي الابناء

سننطلق في الصباح.

: أمرك يا سيدي.

(العودة إلى قونيا)

وبعد شروق الشمس يسير سراج من بغداد منطلقاً على فرسه

ومعه زوجته وابنته وولده خارجاً من بغداد، يسير في طريقه مروراً

بالموصل إلى حلب ونزل بدوار الربط التي في طريق حلب.

:لماذا لم نكمل في طريقنا يا سراج، لماذا وقفنا.

: الطريق إلى قونيا طويلٌ يا أسماء، والطريق خارج حلب مليئةٌ
بقطاع الطرق والصليبيين، لن يسمحوا لنا بالمرور بالساهل من هذا الطريق

:ماذا ستصنع!، كيف سنعبّر منهم؟.

: لا تقلقي يا حبيبتي فأنا متجهزٌ لهذا الأمر منذ سنين، هناك قافلة

ستخرج غداً من حلب، سننطلق على متنها إلى قونيا.

صباح اليوم الجديد والقافلة تسير في طريقها نحو قونيا، اعتلت

النساء الهوداج، كل امرأة على حسب ما تملكه من الأموال، هناك من تسير

على قدمها، وهناك من تركب على عربة يقودها حمار، وأخر يقودها

حصان، تسير منتظمة، يحرسها الحراس ويتناوبون، بعد مسيرة يوم نزلوا

بإضنة يستر يحوا من الطريق، ونصبت الخيام، وافترش كل ذا فرش فرشته،

كل في شُغلٍ لأهون، وأحاط الفرسان بالقافلة من كل اتجاه يحرسونها

ويقومون على حمايتها، كان سراج يتجول بزوجه في المعسكر المنسوب

للقافلة، يتحدثون ويتسامرون فيما بينهم، فجأة التفت ناحية خيمةٍ

منصوبةٍ، ويجلس أمامها شاب في أواخر العشرينات، فالتفت إلى زوجته

وهمس في أذنها، أترين ذاك الشاب الجالس هناك.

:أين هذا، لا أرى.

:أنظري ناحية الدخان.

:أه، أه، رأيته ما به.

:أنا أعرفه لقد رأيته من قبل.

:لا أفهمك .

: هذا الرجل من الخوارزم .

:وكيف عرفت، إنه على غير هيئتهم.

: نعم متنكر في ملابس غير ملابسهم، وهذا ما يقلق حفيظتي، لقد

رأيته ذات مرة عندما ذهبت مع وزير الخليفة مؤيد الدين إلى حران للصلح

مع الخوارزم، كان هو هناك مع الأمير الخوارزمي، وكان قريباً جداً منه،

ويستشيره ويستمع إليه كأنه هو المسؤول عن إتمام الصلح، ولكنه فشل في

النهاية.

:ما الذي يدور في عقلك .

:أخشى أن يكون جاسوساً .

:وما الذي يشغلك في ذلك .

:ابناء جلدتي يا أسهاء .

:ماذا ستصنع معه.

: سأكون في ظلّه دون أن يدري، لا بد أن أعرف همه.

وانطلقت القافلة في طريقها.. تعبر الصعاب.. وتجابه الأمطار..
وتصارع الطين في الأرض الخصباء.. حتى استقرت بمدينة قونيا داخل
القلعة الحصينة.. التي استغرق السلطان كيخسر و سنين في ترميمها بعد
الغزو الصليبي الألماني للبلاد..

كانت أسماء تقف متوترة الحال، تعض على شفيتها، وما أن وصل
سراج حتى انفجرت فيه قائلةً: منذ أن قدمنا إلى قونيا وأنت تسير خلفه،
تتبع أثره، وتكلف نفسك أكثر من طاقتك في معرفة أخباره، كأننا قدمنا إلى
ههنا لتتبع آثار الآخرين وليس للتنزه والفرحة، منذ أن قدمنا وأنا محبوسةٌ
هنا في هذه الدار، أريد الخروج ورؤية بلاد الروم.

: هانت يا أسماء، الأمور شبه منتهية، لقد اقتربت من النهاية.

: أخبرني، أرح قلبي، لا تتركني أعيش مخافة الشر.

: لا تخافي يا أسماء، لا بد أن اذهب الآن، لن أتأخر.

وتلثم سراج، ولبس عمامة، وقميص أسمر، وسروال أسود
طويل، وانطلق الصياد يبحث عن فريسته في أدغال الغابة، ركب حصانه

وانطلق يهرول خلف ضياء حتى وصلوا إلى مشارف غابة خونيا العظيمة، واستمر في المسير خلفه دون أن يلاحظه ضياء، حتى نزل من على حصانه وربطه في جذوع الشجرة، وجلس على إحدى الجذوع المُلَاقاة على الأرض ينظر ببصره قِبَل السماء ويحدث نفسه ويكي، أما آن الآن لصاحب القلب الجريح أن يستريح، ألا استحقُّ الراحة والجلوس بجوار أهلي وتمضية بقية حياتي معهم، ولكنني مملوك للخوارزم كيف انخلع من هذا الأمر، وفجأة وعلى حين غفلة وجد سيفاً وضع على رقبتة من الخلف، فتضاربت أنفاسه حتى سيطر عليها مجدداً، وأخذ نفساً منتظماً ثم أردف قائلاً: ماذا تريد، هل تريد الأموال؟.

: أريد نفسك.

: إذاً تحتاج إلى الرجال كي تسلبها مني.

: استطيع أن أفعلها وحدي، فقد فعلتها كثيراً أيها الخوارزمي.

تفاجئ ضياء من كلام الرجل وأراد أن يلتفت ناحيته ولكنه لم يترك له مجالاً للتحرك، ثم أردف قائلاً: هل تظن بأنني لا أعرفك يا ضياء الدين الخوارزمي!!، منذ قدومك إلى هنا وأنا أتتبع أثرك.

: ماذا تريد مني إذاً.

: ما الذي تصنعه في بلادنا، هل أنت جاسوس؟.
ضحك ضياء جاسوس!!، هل يجرم عليّ أن أسير في بلاد المسلمين
وأتجول في مناطقهم، أحرامٌ على ذلك؟
: حرامٌ على الخوارزم، وليس على المسلمين.
: أتقول بأننا لسنا مسلمين.
: أنظر إلى أفعالكم هل تشبه أفعال المسلمين؟، قاتلتم الخليفة
المسلم، وقاتلتم الغوري، ساعدتم الخطأ الأتراك الكفرة في قتال المسلمين،
أين أفعالكم من المسلمين؟.
: ونسيت أن تقول قاتلنا الخطأ الأتراك، ومحونا أثرهم، ورددنا
التر على أعقابهم إلى بلادهم.
: بعد أن شتتم جيوش المسلمين عن هدفها.
: لكنك نسيت شي مهم، بأنهم هم من بدأوا القتال معنا، من أجل
ذلك شردت جيوشهم.
: وجيوشكم.
: دعنا لا نختلف كثيراً فالمسلمين في حالة يرثى لها، وأرفع عني
سلاحك فما أظن بأنك قاطع طرق.

: صدقت، أنا لست بقاطع طريق، تخيل ممن أكون أنا.

: لا أظنك من الحشاشين، لأنك أعقل بكثير منهم، هم يقتلون بدون فهم، وكلامك فيه نبرة عربية فأنت لست من الغورية، ولكن هل أنت سلجوقي.

: ألا تعرفني أيها الحائر.. وتركه يلتفت ناحيته.

: من تكون .

: أنا الماضي الذي لا تراه، أنا الظل في ظهرك والنور في وجهك، أنا السند والرفيق، أنا الذكرى التي لا تضيع، أنا من جئت من الأعماق البعيدة بحثاً عن حياة الخالدين في قلبك، الم تعرفني بعد،
:ولكن تلك بقعتي وملاذ رحلتي، فكيف وصلت إليها وكيف
عرفت بأمرها.

: لقد راقبتك منذ قدومك هنا، وعرفت طريقها، ولكنني أعرفها
من قديم الزمن، وأعرفك من زمن بعيد، ولكن ألا ترى الطفولة في وجهي
يا رجل.

: عن أي طفولةٍ تتحدث .

: عن الماضي البعيد، عن ذلك الدرب وذلك الرفيق، عن تلك الحياة التي عشناها سوياً، ألا تذكر عندما كنا سوياً، عندما افترقنا ورحلت.

: هل تقول بأنك أنت هو، ودمعت عيناه واستشرق وجهه، حمزة .
: حسن، لقد اشتقت إليك كثيراً، وتعانقا وطال احتضانه بصديقه وبكاء من العيون، بكاء الفرحة والعودة، واللقاء بعد الغياب الذي طال سنين، لقاءً بعد ٢٥ عام يا صديقي .
: آه يا حمزة آه، سنة الله في الحياة، ولكن سمعت بمقتلك في حلب قبل دخولك الأناضول.

: هذه حكاية عجيبة يا صديقي .
: فلنسمعها إذًا، عندي الكثير من الحكايات سأحكىها لك أيضاً، هيا بنا إلى بقعتنا نجلس باتجاه البحر ونتسامر مثل أيامنا الخوالي، وانطلقوا سيراً على الأقدام نحو البقعة السرية، وجلسوا ناحية البحر يتسامرون، أحكي لي ما حدث لك في حلب .

: كنت حينها في مأمورية سرية في حلب، كان الواضح أمام الجميع أن المأمورية هي إيصال الأميرة أطميارة إلى حلب لتجلب بعض الملابس

لذفافها، ولكن كان هناك غرض أعظم وهي رسالةٌ إلى الخليفة الناصر لدين الله، حملتها مع أحد الجنود وخرجنا بها ليلاً وقمنا بإيصالها إلى بغداد واستلمنا رسالة من الخليفة إلى السلطان، كانت في غاية الأهمية، وضعناها في ضفائر إحدى الفتيات التي تعمل في خدمة الأميرة تركة تون، ولما خرجنا من حلب، كانوا على علم بأمر هذه الرسالة، كان بيننا خونة يعملون لصالح الصليبيين .

:خونة يا حمزة!، وهل عرفتهم.

: نعم عرفته وحاسبته، المهم يا صديقي عندما دارت علينا الدائرة وسقطنا في المعركة ظلوا يفتشوننا ويبحثون عن تلك الرسالة، صاح القائد في الفارس السلجوقي الخائن وكان اسمه كوتجان، فصاح فيه قائلاً أين تلك الرسالة اللعينة؟.

:بالأمس أجمع بنا الأمير حمزة وأخبرنا بأن مهمتنا الأساسية حماية هذه الرسالة، وحملها بين صدره وأخبرتكم بما علمت .
:ولكن مما علمته أنك ضربت بأربعة أسهم، وطعنوك أكثر من طعنة.

: إنها هي أقدارنا كتب فيها الأجل بميعاد، كان قدر الله لم يحل بعد،
أراني الله الخائن وروحت في سبات عميق، لا أدري ما حدث لي بعد ذلك،
غير أنني عرفت بأن مجموعة من تجار اليهود وجدوني في الطريق وبني رمق،
حملوني وقاموا على علاجي، ولما أفاقْتُ من تلك النومة الطويلة وحكوا لي
ما حصل أثناء غيابي عن الوعي، وطالبوا مني دفع ثمن الإقامة وثمان
العلاج، وتمت الحسبة وأتضح لي أنني مديون بمائة وعشرين ديناراً ذهبي،
أخبرتهم بأنني استطعت تدبير أمر الأموال بمجرد وصولي إلى الأناضول،
أخبروني بالإجابة والقبول، فتمتُ مطمئناً مرتاح البال، وأصبحت على
بيعي وتسليمي لفرسان المعبد بمائتين ديناراً ذهبي، لما حسبها اليهود وجدوها
تجارة رابحة لهم، أخذني فرسان المعبد وعذبوني على أن أخبرهم بأمر
الرسالة، ولكنني فقدت السمع والكلام طوال هذه المدة، أذاقوني سوء
العذاب، ولكن الله سلم ونجاني من تحت أيديهم بعد أن فقدوا الأمل في
إخبارهم أي معلومة عن السلاجقة، هربتُ من تحت أيديهم، ولكنهم
قبضوا عليّ سريعاً وأرسلوني إلى السوق الكبير في القسطنطينية، باعوني
لقائد رومي وهناك شاركت في مسابقات الإمبراطور وسملت أعين أعظم
مخاربيهم، وصلبتهم أمام أعين الإمبراطور، بفضلني أصبح هذا القائد من

الأثرياء بسبب الرهانات التي أكتسبها بسببي، في تلك الرحلة صاحبت سامور وهاتشوريا، لولا أن جعلهم الله في طريقي، لا أدري كيف كنت سأنجو من هذه المصيبة التي حلت فوق رأسي .

:ألم تحاول الهروب يا حمزة.

: حاولت مراراً وتكراراً يا صديقي ولكن تنتهي دائماً بالفشل،

يقبضون عليّ دائماً بعد كل محاولة هرب.

:انتظر يا حمزة، هل أنت من فعل هذا بالروميين في روما؟.

: نعم أنا من فعلها.

:أصدقني القول يا حمزة ولا تُنسب الأفعال لنفسك، لقد سمع

بهذه الحادثة المشرق الإسلامي أجمعه من الأندلس إلى الهند.

: أكذبت عليك من قبل يا حسن.

:أنت سراج العربي؟.

: نعم أنا سراج العربي.

:كيف يا حمزة وأنت لم تكن عربياً من قبل.

: كيف يا صديقي، الم أخبرك من قبل بأن أجدادي وأبى من

العرب، من العرب الذين هاجروا إلى الموصل .

:لا أتذكر أنك أخبرتني عن شي مثل هذا، أكمل أكمل، وأخذ
يقص عليه ما حدث حتى يوم أن رآه.

:لقد عانيت كثيراً يا صديقي في رحلتك.

:ولكنه الطريق الذي اخترناه بإرادتنا.

:ولكنه كان شاق جداً يا صديقي، خشيتُ أن أقع في الفتن
وأسقط، ولكن بالرغم من كل ما عنيته في طريقي، إلا أنه لا يساوي مثقال
ذرة، مقابل ما حدث لك.

:سنكون يوماً ما نريد.. لا الرحلة ابتدت.. ولا الدرب انتهى .

:أما بعد يا صديقي، لما سمعت بخبر موتك هممتُ على وجهي،

وكنت حينها في مهمة سرية في حلب من قبل الأمير مراد الدين أنقل
الأخبار من حلب ودمشق إلى قونيا، خرجت لا اعلم إلى أين اذهب، تبعني
جنودي وأصحابي ولكن من الظاهر يا صديقي أنهم أعدوا لي كميناً، وقعنا
في الكمين الصليبي، وسقطتُ وسقط أصحابي ولكن الحمد لله، سبحان من
أحياناً من الممات، وأبتعثنا بعد الموت وأعادنا إلى الحياة، في تلك الأثناء
كانت قافلة تمر من هذا الطريق، فنزل الجند الذين بها وقتلوا الصليبيين،
وأنقذوا من فيه رمقٌ من الحياة، وكنت من بينهم وذهبوا بي إلى خوارزم،

وهناك بعوني إلى السيد مندوكان والذي أهداني إلى قريبه خوارزمشاه،
وابتدأت حكايتي، وظل يقص عليه حكايته؛

تزوجت يا صديقي وأنجبت حمزة وعمر وزينب.

: ما شاء الله يا حسن أسميت ابنك حمزة على اسمي.

: نعم يا صديقي حتي يظل ذكراك معي.

: أنا أنجبت فريدة وحسن .

:أننا نتشارك نفس القلوب والعقول.

: بالطبع يا صديقي، بالتأكيد سوف تستقر هنا، أخيراً يا صديقي

سنقضي ما تبقي لنا من حياتنا سوياً.

: من قال بأنني سأبقى .

: أولن تبقى .

:لا، لن أبقى، لقد جئت من أجل هدفٍ، وسوف أرحل عن

قريب .

: ما الذي أتى بك إذاً، إن كنت تنوي الرحيل .

:لابد أن تعلم بأن حياتي ليست هنا، وطريقي ليس هنا، لقد
رسمت طريقي جيداً، وحددت أهدافي، وعلمت كيف يكون نهايته،
أتريدني بعد كل ما قدمته للخوارزمي أرحل بتلك السهولة.

: ما كان هناك داعي لقدومك من الأساس، أرحل، فأنا لا أريد
رؤياك مجدداً، أرحل واتركني كما فعلتها من قبل.

: لا تضغط عليّ يا حمزة، أتعلم لماذا عدت، اعلم أنك بت تكرهني
وتشكك بي، ولكنى عدت من أجلكم، كان بإمكانني الرحيل مرة أخرى،
ولكني اشتقت إلى الجلوس بجوارك، إلى الحديث معك، إلى مشاجرتك،
ولكن عندك حق في كلامك، فأنا اشتاق لكتبي .. لبيتي .. لسري ..
لحديقتي .. لحديثي مع أهلي .. اشتاق لوطني .. ولكن وطني أصبح في
خوارزم.

: أرحل يا حسن كما تحب، فأنا سأبقى بجوار أهلي ودولتي.

:ولكنك عربي.

: كل دول المسلمين دولتي، هذا آخر عهدي بك يا حسن، وتركه
ومضى يمشي بخطواتٍ ثقيلة، وحسن واقفٌ مكانه ينادي عليه بصوتٍ
يحمّله الألم والجراح والبكاء، حمزة، حمزة، سأعود يا حمزة في يومٍ من الأيام،

سأعود وستذكر تلك اللحظة، أريدك أن تعلم بأني لن أترك أحلامي من أجل وهمٍ اسمه خدمة سلطان ضحي بنا من أجل ملكه، لقد رحل حمزة وهو يحمل بين عينيه بركاناً من الدموع كاد أن ينفجر، ولكنه أنفجر بين أحضان أساء، أساء احتوته واحتضنته واذهبت عنه الورع، وأمسحت الدموع من على عينيه لقد أخبرها بما حدث.

هل انتهت الحكاية يا صديقي، كلا إنها البداية كالعادة، نفترق ثم نلتقي، ونجتمع ونفترق، ونسير على مفترق الطرقات، لا أنت وصلت إلى نهايتك بعد، ولا أنا وصلت إلى نهايتي، ولكن لكل منا دربٌ ورفيق، فاختر دربُ الصادقين، واستعن بالرفيق الذي يعينك على الخوض في هذا الدرب.

(٦١٧ هـ، القصر الحاكم قونيا)

يجلس السلطان علاء الدين كيقباز وقد منَّ الله عليه بالسلطنة بعد وفاة أخيه عز الدين كيكاوس، وهو في مجلس الأمراء يستشيرهم ويأخذ برأيهم في أمر التتار بعد أن استباحوا بلاد الخوارزم وخربوها وقتلوا أهلها واستعبدوا الابناء والنساء، وقد أرسل إلينا الخليفة يستنجد بنا، ما الحل إذاً

تحدث بعضهم بالنجدة للخليفة وإرسال الجيوش نصرّة لأمر الخليفة العباسي .

ولكن وقف بعض الأمراء وتحدثوا، سيدي هذا البلاء الذي حل بأهل خوارزم وجندها هو قريبٌ منا وليس ببعيد، ولو أنكم تجهزتم لقتالهم من الآن لكان خيرٌ لنا وأعظم، إن لهم لشوكةً عظيمةً، وهمٌ ثقيل، وليس لقلوبهم رحمةٌ ولا دين، فمن الرأي أن تجهزوا الجيوش لقتالهم، ومتى ذهبنا إليهم أدخلنا في قلوبهم الرعب وفتكنا بهم، فاستحسن السلطان هذا الكلام ولكنه رأى إرسال الجنود إلى حضرّة الخليفة بقيادة الأمير بهاء الدين قتلوجه بخمسة آلاف من جند الروم .

ركب حمزة حصانه وولي شطره ناحية خوارزم أما أن لنا أن نجتمع من جديد يا صديقي، أما أن لنا أن نقاتل سوياً كتفاً بكتف، سيأتي ذلك اليوم لا محالة وأنشد يقول

هي الأيام والدول وأمر الله ينتظر
أتىأس أن تري فرجاً فأين الله والقدر

وانطلق بحصانه مع الأمير ناحية بغداد للانتصار لجند الخليفة من
غزو التتار الأولى، وما أن اقتربوا من بغداد حتى علموا بانسحابهم إلى
بلادهم .

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع :

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

ARABICLIBRARY2017@GMAIL.COM

صفحتنا على موقع الفيسبوك

FACEBOOK.COM/ARABICLIBRARY2017

صفحة الكاتب علي موقع الفيسبوك

HTTPS://WWW.FACEBOOK.COM/AHMED.ELSH

EIKH.5876

صفحة الرواية علي موقع جودريدز في انتظار تقييمكم للرواية

**CHECK OUT THIS BOOK ON GOODREADS:
(AMICUS)**

أميجوس

**[HTTP://WWW.GOODREADS.COM/BOOK/SHOW/43317
917-AMICUS](http://www.goodreads.com/book/show/43317917-amicus)**